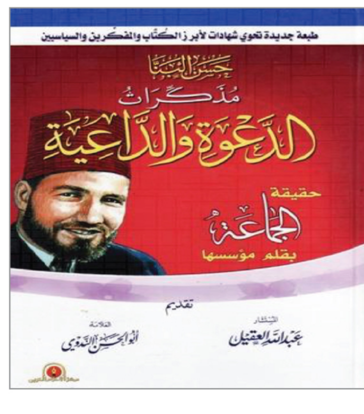
ترجمنا أكثر من 2 مليون كلمة

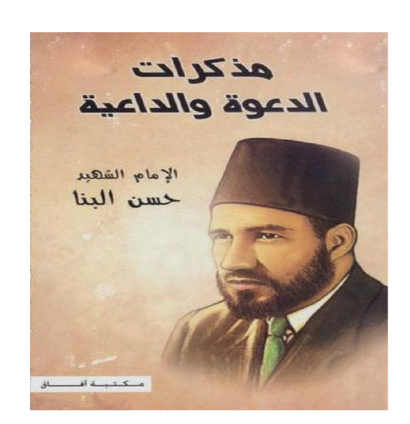
مختارات د. حمد العيسى
دراسات نادرة
12

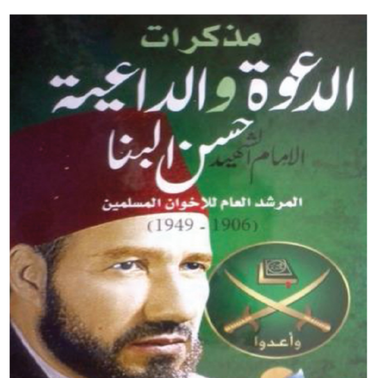
البروفيسور برينيار لِيًّا

مذكرات حسن البنا بين الحقيقة... و«الخيال»!!

ترجمة وتحرير وتعليق: د. حمد العيسى









استخدم البروفيسور برينيار ليّا بدهاء ومكر كتاب «خطابات حسن البنا الشاب إلى أبيه»، الذي أعده وحرره جمال البنا وصدر عام 1990، كمرجع لتحليل وفحص صدقية بعض الأحداث في سيرة حسن البنا الذاتية «مذكرات الدعوة والداعية». ونجح لِيّا ، بالفعل، في تفنيد بعضها ، أو على الأقل التشكيك فيها!!

د. حمد العيسى



* * *

يضيف الدكتور حمد العيسى، بجهده الدؤوب في الترجمة، معرفة حقيقية جادة إلى ملايين القرّاء العرب. لا يترجم الدكتور حمد العيسى عشوائيًا ولا على سبيل الهواية؛ فهو، بالإضافة إلى بكالوريوس الهندسة المدنية، قد حصل على درجة الدكتوراه في «الترجمة» من جامعة لندن. وهو يختار بعناية أعمالًا أدبية ودراسات علمية ليترجمها بلغة جميلة جزلة ومنضبطة في آن.

علاء الأسواني

مذكرات حسن البنا بين الحقيقة... و«الخيال»!!

❖

مذكرات حسن البنا بين الحقيقة... و«الخيال»!!

❖

مختارات د. حمد العيسى
دراسات نادرة
12

البروفيسور برينيار لِيَّا

مذكرات حسن البنا بين الحقيقة... و«الخيال»!!

ترجمة وتحرير وتعليق

د. حمد العيسى

ملحوظة:

هذا هو الكتاب رقم (12) في

مشروع د. حمد العيسى «الشخصي» في الترجمة المعنون:

(12) مختارات د. حمد العيسى
دراسات نادرة

وهو كتاب منفصل وقائم بذاته ولا علاقة له

بالكتاب السابق[*] رقم (11) ولا الكتاب المقبل رقم (13)

(*) لمعرفة عناوين الكتب السابقة، انظر ص-209. (العيسى)

تم، بفضل الله، تجاوز سقف

2,000,000

كلمة مترجمة



تجاوز **المترجم والمحرر د. حمد العيسى** سقف 2,0 مليون (2,000,000) كلمة مترجمة من الإنكليزية إلى العربية منذ بداية عمله في الترجمة عام 2005، بعد تقاعده من «**أرامكو**» مباشرةً. وكانت رحلة ماتعة ومثيرة ترجم خلالها أكثر من 35 كتاباً، فضلًا عن آلاف المواد الصحفية.

«أحياناً... حُسن الظنّ غَفْلَة، وسوء الظنّ فِطْنَة!!»

د. حمد العيسى

«لا توجد معرفة ضارّة.. ولا جهل نافع»

عبد الله القصيمي

المحتويات

تنويه مهم وتبرئة ذمة!

«من لزوم ما لا يلزم» إلا في بلاد العرب، ونخصّ بلاد العرب نظرًا إلى تجارب شخصية كشفت لنا عن سوء فهم فظيع لدور المترجم عند البعض؛ نعم، إن «من لزوم ما لا يلزم» أن نشير إلى أمر «بدهي»، وهو أن ترجمة وتحرير هذه المواد (الفصول والملاحق) «لا تعني بالضرورة» الاتفاق مع «جميع» محتوياتها، من مصطلحات وأوصاف وتحليلات واستنتاجات وآراء ومقترحات، سواء كانت واضحة ومباشرة أو بين السطور. كما أن المترجم «لا» يُصادق على أيّ نوع من «الاتهامات» الصريحة أو الضمنية التي قد ترد في النصوص الأصلية، و«لا» يتفق معها أيضًا؛ بل حرص على ترجمة وتحرير هذه النصوص بدقّة، كما كتبها مؤلّفوها، بدون أيّ تدخل يخلّ بالمعنى. وباختصار، فإن دور المترجم هنا هو فقط نقل كلام المؤلف/المؤلفة من اللغة الإنكليزية إلى العربية بدقّة وأمانة، وتنحصر مسؤوليته في «اختيار» المادة ونقلها إلى العربية، ويجتهد المترجم في «اختيار» المادة، متمنّيًا إن أصابَ أن يكون له أجران، وإن أخطأ أجر؛ والله من وراء القصد.

د. حمد العيسى

تنويهات عامة

1. الكلمات التي بين معقوفتين، على هذا النحو: [...]، هي للمترجم؛
2. **كُتبت مواد هذا الكتاب في تواريخ سابقة معينة، ومن ثمّ تنبغي قراءتها في سياق تاريخ نشرها المشار إليه في مطلع كل مادة؛**
3. فكرة الغلاف: د. حمد العيسى؛
4. جميع صفحات الصور التي في الكتاب هي من إعداد د. حمد العيسى؛
5. تستخدم علامات «التنصيص» عادة لغرضين: التأكيد أو التشكيك، وينبغي للقارئ استيعاب السياق لمعرفة المقصود؛
6. ينبغي للقارئ ملاحظة أن المؤلفين يكتبون للجمهور الغربي الناطق بالإنكليزية، ولذلك يشرحون أمورًا قد نجدها بدهيّة أو لا تحتاج إلى شرح.
7. ترجمنا، في هذا الكتاب، مصطلح «الإسلام السياسي» (ISLAMISM) ليصبح «إسلامويّة»، واشتققنا منه مصطلح «إسلامويّ»؛ بحسب الترجمة العلمية التي نراها دقيقةً لهذا المصطلح المستعمل في الغرب الآن.

ويعكس مصطلح إسلاموية (ISLAMISM) الإنكليزي مقاربة شائعة لإضافة لاحقة (ISM) إلى كلمة لتحويل «اسم» (أو فكرة) إلى «أيديولوجية» أي فكر بشري. فعلى سبيل المثال، عندما تضاف لاحقة (ISM) إلى اسم ماركس (MARX) يتحوّل هذا الاسم إلى أيديولوجية (**ماركسية**، MARXISM)، وهو ما يعكس تحول أفكار هذا الفيلسوف، المتجسدة في اسمه، إلى أيديولوجية. وبالمثل تتحوّل كلمة «**رأس مال**» (CAPITAL) إلى (**رأسمالية**، CAPITALISM). وعلى المنوال نفسه تتحول كلمة «**إسلام**» (ISLAM) إلى (**إسلاميّة**، ISLAMISM) ولكن أُضيفت «واو» عند اشتقاق المصطلح لأول مرة لتصبح «إسلاموية»، نظرًا إلى أن كلًا من مصطلح «**إسلاميّة**» (ISLAMISM) ومصطلح «**إسلاميّ**» (ISLAMIST) المشتقين منه ينطوي على خلفية «إقصائية» خطيرة لخصوم هذا

التيار ولكل من لا ينتمون إليه، **إذ يؤدّي «تلقائيًا» إلى وصفهم بأنهم «غير إسلاميين» مثلاً، وقد تتحول إلى «غير مسلمين» عند اشتداد الخصومة!! والحقيقة هي أنهم «غير إسلامويين»؛ أي لا ينتمون إلى «أيديولوجية» الإسلام السياسي. فالإسلاموية** (الإسلام السياسي) هي عملية يُسيّس فيها الدين لابتكار أفكار سياسية «بشرية» ربما لم ترد في الشريعة الإسلامية، وقد يؤدي ذلك إلى تحقيق أهداف غير دينية. **ولذلك، نقول إن الإسلاموية (ISLAMISM) ليست الإسلام (ISLAM)، فالإسلام دين «إلهي» بينما الإسلاموية هي أيديولوجية أي تفسير سياسي «بشري» لهذا الدين.**

ويمكن القول بشكل «**تقريبي**» علميًا وتاريخيًا - على الأقل في الغرب - إن مصطلح «إسلاموية» (**ISLAMISM**) قد حلّ محل مصطلح «أصولية» (**FUNDAMENTALISM**) المستعمل سابقًا، «**بعد**» هجمات 11 سبتمبر 2001 الإرهابية تقريبًا.

مقدمة المترجم والمحرر
حسن البنا بين الحقيقة... و«الخيال»

يسعدني أن يكون الكتاب الـ (12)(*) في مشروع د. حمد العيسى «**الشخصي**» في الترجمة المعنون «**مختارات د. حمد العيسى - دراسات نادرة**» هو هذا الكتاب النوعي النادر والفريد المعنون «**مذكرات حسن البنا بين الحقيقة... والخيال**».

ينتمي هذا الكتاب إلى فئة «**المختارات ذات الوحدة الموضوعية**». فقد اقتبسنا هذه المختارات من مصادر إنكليزية مختلفة ومتنوّعة، كما يلي:

- ❖ الفصل الأول: دراسة أو مقالة طويلة، (ESSAY) من فصلية أكاديمية رصينة مثل «**مجلة الدراسات العربية والإسلامية**».
- ❖ الفصل الثاني: فصل (CHAPTER) من كتاب لباحث غربي متمرس في الدراسات الإسلاموية؛ و
- ❖ الفصل الثالث: مقالة (ARTICLE) منشورة في مجلة أمريكية عريقة مثل «**ذا نيويوركر**».

وهكذا صَنعتُ هذا الكتاب باللغة العربية «**من العدم**»، أي بدون أن يكون له كتاب أصلي بأي لغة أخرى؛ لأنّ فصوله عبارة عن مواد إنكليزية مختارة جمعناها من مصادر متفرّقة كما أسلفنا.

ونظرًا لأن «**الصورة أبلغ من ألف كلمة**»، ولتعزيز رسالة الكتاب، و«**تسهيل استيعاب جيل جديد من القراء محتوى الكتاب**»، بذلتُ مجهودًا إضافيًا، وهو من لزوم ما لا يلزم، في استخراج العديد من الصور المرتبطة بفصول الكتاب.

(*) **انظر ص-209. (العيسى)**

يجادل المؤلف الرئيس لهذا الكتاب الباحث النرويجي العتيد البروفيسور برينيار لِيًّا، المتخصص في الحركات الإسلاموية «العنيفة»، في دراسته النوعية المنشورة في الفصل الأول من هذا الكتاب، **بأنه بالرغم من مركزية سيرة حسن البنا الذاتية، المعنونة «مذكرات الدعوة والداعية»، ووفرة الإشارات إليها في الكتابات المتعلقة بالإسلاموية باللغات العالمية كافة بصفتها «مصدرًا أوليًا رئيساً» عن تاريخ جماعة الإخوان المسلمين المبكر، فإنها لا تزال «غير مفهومة» و«غير واضحة» للباحثين!!**

وبالاعتماد على مجموعة من المصادر الأولية «**الجديدة**»، والتي لم تُفحص جيّدًا من قبل، يحاول البروفيسور برينيار لِيًّا بـ «**دهاء**» و«**مكر**» **أن يثبت أن هذه السيرة الذاتية «لم» تُكتب أبدًا بأثر رجعي كمذكرات تقليدية، أيْ كسيرة ذاتية كُتبت في الحاضر لتصف الماضي بأمانة وصدق؛ ولكنه يؤكد أن حسن البنا كتبها في قلب «معركة إخوانية داخلية» ساخنة عام 1947، وكان هدفه المباشر والرئيس من تدوين ونشر هذه السيرة «نزع شرعية المعارضة الداخلية لزعامته» خلال واحدة من أكثر الأزمات خطورة في تاريخ الجماعة المبكر. ويقدم لِيًّا العديد من الحجج «المثيرة والذكية» التي تدعم فرضيته البحثية.**

تكمن أهمية هذا الكتاب - جزئيًّا - في حقيقة أنه لا توجد، بحسب معلوماتي، دراسات نقدية عميقة وجادة باللغة العربية لكتاب «**مذكرات الدعوة والداعية**» المنتشر بشكل واسع، باستثناء بعض المناكفات والمماحكات المكتوبة بشكل مقالات جدلية وسجالية ذات نكهة سياسية كيدية وانتقامية. **وأتمنّى أن يشجع هذا الكتاب الباحثين العرب في حقل الدراسات الإسلاموية، على القيام بتحليل نقدي جادّ وعميق لهذه المذكرات وغيرها من الكتب الإسلاموية السائدة المليئة بالعجائب والغرائب التي لا تنسجم مع العقل والمنطق والذوق السليم (COMMON SENSE)، والتي ضلّلت الكثير من الناس (ومنهم كاتب هذه السطور، لبعض الوقت!!) الذين يعتقدون، مثلاً، أن حسن البنا معصوم عن الخطأ وأن كل ما كتبه هو «الصواب» و«الحقيقة» و**﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ **(فصلت، 42)! مع العلم أن حسن البنا بشر وليس معصومًا وهو، في أحسن الأحوال، مجرد «داعية وليس نبيًا»!!**

وحرصًا على الدقة والأمانة، لم أكتف بالترجمة الدقيقة للاقتباسات الكثيرة التي استشهد بها البروفيسور لِيًّا في ورقته من سيرة البنا لإثبات فرضيته، بل بحثتُ عنها في كتاب «**مذكرات الدعوة والداعية**» (النسخة الإلكترونية المتوفرة على موقع إخوان ويكي، ikhwanwiki) حتى عثرت عليها ثم نقلتها «**حرفيًا**» لكي أتأكد بنفسي من دقة الاستشهادات، وكانت جميعها صحيحة 100٪ بدون أي استثناء.

تُرى: هل نجحت أم فشلت حجج البروفيسور لِيًّا «**المخاتلة**» في إثبات فرضيته الصعبة والمثيرة عن مذكرات حسن البنا؟! حتى لا نَحرق مفاجآت الكتاب العديدة، ولا نُفسد على القراء الكرام، في هذه المقدمة، اللَّذَّة والنشوة العقلية المتمثلة في معرفة تحليلات واستنتاجات البروفيسور لِيًّا العميقة والمدهشة والماكرة وغير المسبوقة (باللغة العربية)، سوف نترك للقراء الكرام متعة اكتشافها بهدوء أثناء قراءة هذا الكتاب.

أرجو أن يروق هذا الكتاب للقراء الأعزاء، وأن أكون دائمًا عند حسن ظنهم.

والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وأسأله سبحانه أن يجنّبنا العثرات والزلل، وأن يوفّقنا إلى صالح القول والعمل.

د. حمد بن عبد العزيز الحمد العيسى

الدار البيضاء - المملكة المغربية

1 أبريل 2022

الفصل الأول

برينيار لِيَّا

مذكرات حسن البنا بين الحقيقة... و«الخيال»!!

(مارس 2017)

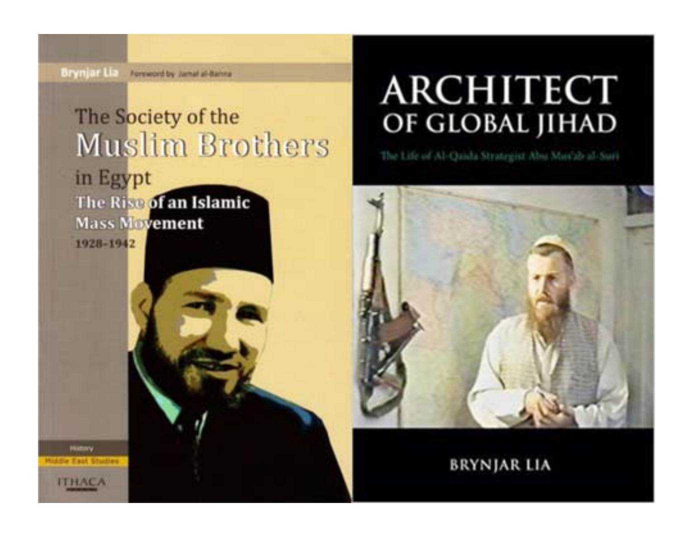
البروفيسور برينيار لِيَّا: سيرة موجزة

(بقلم: د. حمد العيسى)





البروفيسور (أ. د.) برينيار لِيَّا هو مؤرخ نرويجي ولد عام 1966، وهو حاليًا أستاذ دراسات الشرق الأوسط في قسم الدراسات الثقافية واللغات الشرقية بجامعة أوسلو. ويعد لِيَّا أحد أهم الخبراء في العالم في تنظيم القاعدة والإرهاب الدولي. أَلَّفَ لِيَّا كُتبًا عديدة في تخصصه. أحدث كتبه بعنوان **مهندس الجهاد العالمي: حياة مخطط القاعدة الإستراتيجي أبو مصعب السوري** (تحت، يمين)، نيويورك، قسم النشر بجامعة كولومبيا، عام 2008، 256 صفحة. وهو أيضا مؤلف كتاب **جماعة الإخوان المسلمين في مصر: صعود حركة جماهيرية إسلامية 1928–1942**، ردينغ (بريطانيا)، إيثاكا للنشر، عام 2006، 328 صفحة. ونشرت هذه الدراسة في «**مجلة الدراسات العربية والإسلامية**» (**JAIS**)، التي تصدرها جامعة أوسلو، المجلد 15، مارس 2017، ص ص 199–226. (العيسى)



مذكرات حسن البنا بين الحقيقة... و«الخيال»!!

الملخص: يَرجِعُ الباحثون الذين يدرسون صعود الإسلاموية المعاصرة وتاريخ الإخوان المسلمين المبكر دائمًا إلى سيرة حسن البنا الذاتية المعنونة بــ «**مذكرات الدعوة والداعية**»، بصفتها مصدرًا رئيسًا للمعلومات حول أصل الحركة. **وعلى الرغم من مركزية هذه السيرة الذاتية ووفرة الإشارات إليها في الكتابات الإسلاموية، فإنها لا تزال «غير مفهومة» و«غير واضحة»**. وبالاعتماد على مجموعة من المصادر الأولية، التي لم تُفحص جيّدًا من قبل، تجادل وتثبت هذه الورقة أن هذه السيرة الذاتية «لم» تُكتب أبدًا بأثر رجعي كمذكرات تقليدية. فقط من خلال التعرف إلى طبيعتها «الخيالية» واستكشاف الحدود بين السيرة الذاتية والخيال، يمكن فهم مذكرات البنا بشكل صحيح**!!** انتهى الملخص

مقدمــة

يعود العلماء الذين يبحثون في قضايا الإسلاموية المعاصرة والتاريخ المبكر لحركة الإخوان المسلمين[1] دائمًا إلى كتاب حسن البنا المعنون بــ «**مذكرات الدعوة والداعية**»، بصفته مصدرًا رئيسًا للمعلومات حول أصل الحركة. وعلى الرغم من مركزية هذه السيرة الذاتية ووفرة الإشارات إليها في الأدبيات الإسلاموية، فإنها «لم» تخضع مطلقًا لأية دراسة نقدية جدية[2]. ويعود ذلك إلى عدم توفر مصادر أولية تساعد على إنجاز مثل هذا التحليل النقدي[3]. ولكن نُشرت، في السنوات والعقود الأخيرة، مصادر قدّمت معلومات جديدة عن الحياة المبكرة لزعيم الإخوان المسلمين وعن تأسيس حركة الإخوان. وتشمل هذه المصادر رسائل حسن البنا إلى والده، التي حرّرها ونشرها شقيقه الأصغر جمال البنا في كتاب بعنوان «**خطابات حسن**

البنا الشاب إلى أبيه»[4]. وهناك مصدر آخر، وهو تقرير كتبه الانفصاليون خلال الأزمة الداخلية الأولى في جماعة الإخوان ونشر حوالي عام 1932، بقلم مصطفى يوسف عنوانه «**تقرير مرفوع للرأي العام الإسلامي مبينًا فيه أعمال رئيس جماعة الإخوان المسلمين**»[5].

وتعدّ هذه الكتابات وغيرها من المواد الجديدة مصادر نقدية مهمة لتحليل وفحص سيرة البنا الذاتية، ومكّنت بعض العلماء بالفعل من إعادة تفسير مرحلة الإسماعيلية الغامضة في تاريخ جماعة الإخوان المسلمين[6]؛ ولكن الأهم من ذلك هو أن هذه المصادر تسمح أيضًا بإعادة تفسير مذكرات البنا، وهذا هو الهدف الأساس لهذه الورقة.

البروفيسور روبرت ف. ساير: عمل كاتب السيرة الذاتية هو بلا شك خلق «صور» ولذلك، تجب دراسة «كيفية صنع هذه الصور، ومكوناتها، وكيف تختلف، وكيف ترتبط»

للقيام بما هو أبعد من عمل مقارنة ذات بعد واحد لهذه المصادر الجديدة مع سيرة البنا، من المفيد أن نُقيِّم سيرة البنا الذاتية عبر منظور نظري أوسع. ويُعد كتاب البروفيسور روبرت ف. ساير الكلاسيكي والمرجعي «**الذات المفحوصة: دراسة السير الذاتية لبنجامين فرانكلين وهنري آدامز وهنري جيمس**»، الصادر عام 1964، نقطة انطلاق جيدة لفهم السيرة الذاتية كنوع أدبي[7]. ينتقد ساير التمييز الحاد بين «الحقيقة والخيال» في أدبيات السير الذاتية، ويدعو، بدلًا من ذلك، إلى «نقد السير الذاتية بشكل ينبغي ألا يتعقب كل حادثة خيالية ويعيدها إلى بعض السوابق في «الحياة الواقعية»». ويجادل ساير بأن كاتب السيرة الذاتية «مضطر إلى اتخاذ العديد من الاختيارات والقرارات لمادته، تمامًا مثل المؤرخ أو الروائي». وبناء عليه، يقول ساير، فإن عمل كاتب السيرة الذاتية هو بلا شك خلق «صور». ولذلك، يوصي ساير بدراسة «كيفية صنع هذه الصور، وما هي مكوناتها، وكيف تختلف، وكيف ترتبط (...)»[8].

البروفيسور روبرت ف.ساير:
لا يستطيع كاتب السيرة الذاتية تفادي تأثير الحاضر عليه، ولذلك يقوم بـ «فرض ترتيب الحاضر على الماضي»!!

ومن المحتم أن يعتمد صنع «الصور» الذاتية على الوقت الفعلي للكتابة، ولا يستطيع كاتب السيرة الذاتية تفادي تأثير الحاضر عليه. ومن المؤكد أن الأحداث المعاصرة ستترك بصماتها، بدرجة أو أخرى، على ما يكتبه. ومن ثمّ، يمكن اعتبار السيرة الذاتية بمثابة «**إعادة ترتيب بأثر رجعي لتجارب المرء الحياتية على أساس آراء ومفاهيم المرء السائدة في وقت الكتابة (إعادة الترتيب)، وليس في وقت التجارب التي عاشها في الماضي**». وهكذا، فإن كاتب السيرة الذاتية «يفرض، إلى حد ما، على الماضي ترتيب (حالة) الحاضر»[9]. وقد لا يكون هذا، بالطبع، واضحًا دائمًا؛ ولكن في هذه الحالة، كما سنثبت أدناه، كان الوضع الذي واجهه حسن البنا عام 1947 عندما ألّف ونشر سيرته الذاتية ذا أهمية حاسمة. **وبالنسبة إلى البنا، أثّرت «حالة الحاضر» بشكل جوهري وجذري على أسلوب كتابه ومحتواه، ولا يمكن فهم سيرته الذاتية بشكل كامل من دون الأخذ بعين الاعتبار ظروف وأحداث عام 1947، أيْ فترة الأزمة الداخلية الأكثر خطورة في تاريخ الإخوان المسلمين المبكر.**

مذكرات حسن البنا والأزمة الداخلية عام 1947

يمكن تقسيم سيرة حسن البنا الذاتية، «**مذكرات الدعوة والداعية**»، إلى قسمين. يروي الجزء الأول حياة البنا المبكرة والسنوات الأولى للحركة في الإسماعيلية حتى انتقاله إلى القاهرة عام 1932[10]، ويشكل هذا الجزء سيرة ذاتية حقيقية. والجزء الثاني هو تأريخٌ للحركة كُتب بشكل قصاصات من الأخبار الصحافية من مجلات وصحف الإخوان الأسبوعية في الثلاثينيات، مصحوبة بتعليقات موجزة. ومن الأرجح ألّا يكون هذا الجزء من عمل حسن البنا. ولذلك، لن يتم تناوله بالتفصيل هنا[11]. ويمكن تقسيم الجزء الأول، أيْ السيرة الذاتية الحقيقية، إلى ثلاث فترات:

(أ) طفولته وصباه في بلدة المحمودية في الدلتا المصرية حتى عام 1923؛ و

(ب) أربع سنوات دراسية في **دار العلوم** بالقاهرة حتى عام 1927؛ وأخيرًا

(ج) الفترة التي قضاها في الإسماعيلية، في منطقة القناة الخاضعة للسيطرة البريطانية، كمدرس في مدرسة ابتدائية خلال الفترة 1927-1932. هنا، تأسست حركة الإخوان المسلمين.

خالف البنا «العرف العالمي»
بأن تُكتب السير الذاتية للشخصيات العامة
بعد «انسحاب» المؤلف من الحياة العامة إذ كتبها في مرحلة زمنية «مبكرة» جدًا لمقاومة خصومه خلال «أزمة الإخوان الداخلية» الخطيرة عام 1947!!

وهكذا، لم يكتب البنا سيرة ذاتية كاملة تغطي حياته كلها؛ ولكنه «حصر» مذكراته في فترة الطفولة والشباب، وخمس سنوات كمدرس غير متزوج في الإسماعيلية بعد التخرج من **دار العلوم**. زواجه وانتقاله إلى القاهرة وهو في الـ26 من عمره يمثل نهاية سيرته الذاتية الحقيقية**!** وبعد تأسيس جماعة الإخوان المسلمين عام 1928، لم تحظ قصة حياته الشخصية باهتمام كبير في كتابه، وأصبح تاريخ الحركة هو النقطة المحورية.

لقد جرت العادة حتى أصبحت كـ «**العرف العالمي**» أن تُكتب السير الذاتية للشخصيات الدينية والسياسية المهمة بعد انسحاب المؤلف من الحياة العامة؛ ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة إلى سيرة البنا الذاتية. فعندما كُتبت تلك السيرة الذاتية، كان المؤلف يترأس جمعية الإخوان في عصرها الذهبي، وكان الإخوان يتمتعون بشعبية معتبرة في فترة ما بعد الحرب؛ وهو الأمر الذي يثير السؤال الآتي: لماذا قرّر كتابة مذكراته في هذه المرحلة [المبكرة نسبيًا] تحديدًا؟ ولماذا خصّص وقتًا لكتابة المذكرات ونشرها في وقت كان مشغولًا جدًّا بشؤون الحركة؟

حاول البنا، في مقدمة سيرته الذاتية، أن يقدم إجابة جزئية عندما تحدث عن الصعاب والمعاناة التي كان عليه أن يتحملها عندما صادرت الشرطة

مذكراته الشخصية عام 1943 واستخدمتها ضده في محاكمته. ولذلك، يقول البنا: امتنعتُ بعد ذلك عن تدوين الذكريات؛ ولكن خوفًا من أن تتلاشى هذه الذكريات العزيزة ويطويها النسيان، تشجعتُ أخيرًا على تدوينها حتى لا «يتلفها الزمن»، لأن «كلام الليل يَمحُوهُ النَّهارُ»[12].

تُرى: ما هي تلك الذكريات العزيزة التي توجّب تدوينها وإعلام أعضاء الجماعة بها في صيف عام 1947، عندما نُشرت الحلقة الأولى من «**مذكرات الدعوة والداعية**» في جريدة الإخوان المسلمين واسعة الانتشار؟ يبدو أن نشر تلك السيرة الذاتية كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بالأزمة الداخلية للإخوان المسلمين خلال الفترة 1946-1947 والتي استهدفت البنا شخصيًا. لقد كان هذا الصراع الداخلي، الذي يشار إليه غالبًا بـ «**الفتنة الثالثة**» في تأريخ جماعة الإخوان، بلا شك، أخطر أزمة تعرّضت لها الحركة منذ تأسيسها؛ وهي أزمة أدت إلى طرد واستقالة صديقين وثيقين للبنا كانا أيضًا نائبين بارزين له، وهما إبراهيم حسن وأحمد السكّري[13]. وتورّط العديد من عناصر الإخوان في هذا الصراع. وكان الأمر الأول المتنازع عليه يخصّ علاقة الإخوان بالقوى السياسية في مصر، وخاصة حزب الوفد والقصر؛ فقد تساءل العديد من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين عن حكمة سياسة البنا، التي كانت تميل نحو المواجهة مع الوفد والتقارب مع أحزاب الأقلية التي يرعاها القصر وحكومة إسماعيل صدقي باشا. وكان أحمد السكّري، صديق البنا القديم ونائبه الشهير، من بين أبرز مؤيدي التقارب مع الوفد.

حدثت اضطرابات متنامية في قيادة جماعة الإخوان...
بسبب استمرار ممارسة المرشد العام سلطاته بشكل «تعسفي»
وكذلك «عدم ممارسة الشورى» ما أدى إلى أزمتين رئيستين في الثلاثينيات!!

لكن إلى جانب هذه الاعتبارات السياسية، كانت هناك مؤشرات قوية على أن السكّري قرر أيضًا تحدّي دور البنا كقائد للحركة. ووفقًا لكتاب محمود عبد الحليم ذي الثلاثة أجزاء المعنون «**الإخوان المسلمون: أحداث**

صنعت التاريخ» والذي يعد بمثابة التاريخ الرسمي لجماعة الإخوان، نشر السكّري شائعات تؤكد أنه كان أول زعيم للجماعة وأحال البنا إلى منصب سكرتير[14]. وكانت هناك اضطرابات متنامية في قيادة جماعة الإخوان المسلمين، نابعة من استمرار ممارسة المرشد العام سلطاته بشكل «**تعسفي**». كذلك كان عدم وجود الشورى أيضًا من بين العوامل الرئيسة التي أدت إلى الأزمات الرئيسة عامي 1932 و1939.

«رفض» البنا فصل صهره عبد الحكيم عابدين من الجماعة بعد اتهامه بـ «انتهاك منازل بعض الإخوان والتحرش بنسائهم»... ما أدى لتلقيبه بـ «راسبوتين الإخوان المسلمين»!!

وفي 1946-1947، أصبحت مسألة القيادة أكثر إلحاحًا بسبب «**الفضيحة الأخلاقية**» التي تورّط فيها عبد الحكيم عابدين، صهر (زوج أخت) البنا والأمين العام للجماعة، إذ وُجهت إليه تهمة «**انتهاك منازل بعض الإخوان والتحرش بنسائهم، ووصفه بعض الأعضاء الغاضبين بأنه «راسبوتين الإخوان المسلمين»**». وفاقمت القرابة بين البنا وعابدين من حساسية القضية، وشككت في نزاهة البنا بسبب عدم رغبته في فصل عابدين من الجماعة[15]. ومن المؤكد أن التأثير التراكمي المشترك لجميع هذه العوامل كان أهم مصدر لمخاوف زعيم الإخوان المسلمين وقلقه عام 1947، ولم يكن من الممكن قطعًا أن يتجاهل البنا ذلك التهديد المحتمل الخطير لمنصبه كمرشد عام لجماعة الإخوان المسلمين. وفي تلك الظروف، كان على البنا بذل جهود خارقة لاستعادة ثقة الأعضاء وإعادة تأكيد سلطته. وكان نشر سيرته الذاتية، التي كشف فيها القصة الحقيقية لأصل جماعة الإخوان المسلمين، إحدى طرق استعادة الثقة به وفرض النظام داخل الجماعة. وكما أسلفنا، فقد نُشرت المذكرات على شكل حلقات شبه يومية في جريدة الإخوان المسلمين، واستمرت لأكثر من ستة أشهر بدءا من يوليو 1947، وظهرت في وقت كانت تداعيات الأزمة الداخلية لا تزال قوية

جدًّا[16](*). وليس ما يستحق الانتباه والملاحظة هنا فقط هو توقيت نشر تلك السيرة الذاتية. فكما سنذكر لاحقًا، فإن وصف الأحداث وعرض «الصور» في المذكرات يكشف أيضًا عن علاقة وثيقة بأزمة عام 1947. **ففي مواقع عديدة، تتحول عملية «إعادة ترتيب الأحداث بأثر رجعي» تقريبًا إلى «خلق نوع من الحكايات الخيالية»، حيث يتم وضع عناصر من أزمة 1947 في سياق مرحلة الإسماعيلية التأسيسية، أيْ تحديدًا عند ولادة جماعة الإخوان المسلمين، وهي فترة مشحونة بالرمزية لكل من يدّعي القيادة والأقدمية في الجماعة. وأخيرًا، في نهاية سيرته الذاتية، يتخلّى البنا عن الماضي تمامًا، ويختتم بصفحتين من الخواطر التي تدور حول أزمة القيادة وصراعه مع أحمد السكّري[17]. وباختصار، يبدو لنا، بدون أيّ شك، أن أزمة عام 1947 تشكّل خلفية هذه السيرة الذاتية.**

إعادة تأكيد السلطة من خلال عرض «صور»

تُرى: كيف يمكن أن تكون السيرة الذاتية في هذه المرحلة وسيلة لتعزيز مكانة البنا وتوحيد الإخوان المسلمين؟ يرتبط هذا ارتباطًا وثيقًا بشخصيته وأسلوبه الفريد في القيادة. لقد كان زعيم الجماعة يملك ذاكرة خارقة منحته قدرة هائلة على تذكّر آلاف الأسماء والوجوه، وتفاصيل حيوات أتباعه. وساعدته هذه السمة، بجانب تواضعه، في خلق إحساس عام بين الأعضاء بالصداقة الشخصية الحميمة مع أتباعه[18]. وكان البنا يملك أيضًا قدرة استثنائية هائلة على إيصال إحساس بـ«الصدق والتواضع ونكران الذات مع إخلاص كامل لقضيته» إلى أعضاء الجماعة[19]. ولم يكن هذا واضحًا فقط

(*) يقول المؤلف في الهامش (16): تم فصل أحمد السكري بعد شهور قليلة من استقالة إبراهيم حسن في أبريل 1947. ولكن حتى أواخر نوفمبر 1947، عُقدت اجتماعات في الجمعية العمومية للإخوان المسلمين، صادقت على طرد حسن البنا للسكري وبعض أنصاره. كما نشر أحمد السكري أيضًا رسالة مفتوحة إلى حسن البنا في صحيفة «صوت الأمة» الوفدية، منتقدًا تحالفه مع إسماعيل صدقي باشا وممارسة «الديكتاتورية» في جماعة الإخوان. انظر السيسي 1987، ص ص 150-155، حيث أعيد طبع الرسالة كاملة مصحوبة برد حسن البنا الذي فند فيه مزاعم السكري. (العيسى)

في اهتمامه الحميم بأتباعه الأكثر فقرًا وبؤسًا، وفي جولاته المستمرة في القرى البدائية المتخلفة، وفي سفره بالقطار على فئة الدرجة الثالثة؛ ولكن أيضًا في أسلوب حياته المتقشف وتبرعه بثلث راتبه للجماعة[20]. ولم يكن هناك شك في أذهان أتباعه في أن زعيمهم كان مختلفًا بشكل جذري عن جميع القادة السياسيين الآخرين في مصر؛ **ولكن أزمة القيادة خلال 1946-1947 هَشّمت وحَطّمت بعض هذه الصور، خاصة الصورة القائلة بأن البنا كان إيثاريًا تمامًا (غير أناني) وخاليًا من جميع أنواع التحيّزات كالمحسوبية والحزبية والمصالح الشخصية**. وفي الأزمة الداخلية السابقة، نجح البنا في طمأنة أتباعه من خلال مواجهة حجج خصومه في صحافة الإخوان، ومن ثمّ القيام بجولة على الفروع. وطبّق البنا، عام 1947، التكتيك نفسه عندما نشر انتقادات أحمد السكّري على الصفحات الأولى لجريدة الإخوان اليومية وفنّد حُججه في المكان نفسه[21]. ولم يكن ممكنا، عام 1947، استخدام الكاريزما الشخصية التي يتمتّع بها وقدرته على الإقناع بالقدر نفسه الذي استعمله في الماضي، بسبب النمو الهائل للجماعة منذ حدوث الأزمة الأخيرة عام 1939[22]. وعبر تقديم سردية عن حياته على شكل سيرة ذاتية، تمكن البنا من توجيه الاهتمام وتركيزه نحو أقوى سِمتين يتمتع بهما: الكاريزما (الجاذبية) الشخصية والنضال الطويل لأجل الدعوة. لقد منحه هذا النوع الأدبي الحرية لتخليد العديد من «**الصور والأساطير**»، التي يشترك ويعتز بها الإخوان بشكل سرمدي. أكثر من ذلك، كانت السيرة الذاتية هي الوسيلة الوحيدة لتبديد كل الشكوك حول هوية الأب المؤسس الحقيقي للجماعة. لقد زوّد الجماعة بنسخة رسمية و«حقيقية» من تاريخها المبكر؛ ما عزز موقفه مقابل خصومه ومنافسيه.

«لا توجد» في سيرة البنا إشارات للأنشطة
الترفيهية التي نتوقع أن يشارك فيها طفل ومراهق؛ مثل:
اللعب في الحي، أو الرياضة، أو ممارسة الحيل والخدع ضد الناس!!

وركز البنا، منذ بداية سيرته الذاتية، بشكل أو بآخر، حصريًا على الجوانب الدينية القوية في نشأته وشبابه. لقد بدأ سيرته الذاتية بوصف

الفضائل التربوية والروحية لمعلمه الأول الشيخ محمد زهران، الذي كان له، إلى جانب والد البنا، تأثير مهم عليه في سنواته الأولى[23]. كما يذكر أيضًا كيف انجذب إلى طقوس **الذكر** الصوفي للطريقة الحصافية التي أصبح لاحقًا عضوًا فيها[24]. ويحتل ارتباطه الروحي بالصوفية جزءًا مهيمنًا من سيرته في شبابه. ويعترف بأن الجماعة الحصافية «**أثّرت فيه كثيرًا**»، وأثناء فترة دراسته في مدرسة تدريب المعلمين الابتدائية بدمنهور كان «**منغمسًا تمامًا في الصلاة والتفاني للتصوف**»[25]. ويذكر المؤلف كذلك أن «**الصلاة والتأمل كانا أقدس برامجنا التي لا نتغيب عنها إلا لضرورة قصوى**»[26]. «تُصَوِّرُ» هذه الصفحات من سيرته الذاتية شابًا عميق التدين ويعتز بالتفوق على أقرانه في الورع والإخلاص: «**وكان من أعمالنا بالمحمودية خلال الإجازة الصيفية أو في صباح الجمعة أن نتقاسم أحياء القرية، وكنا ثلاثة أو نزيد في بعض الأحيان لنوقظ الناس لصلاة الصبح قبل الفجر بقليل وبخاصة الحصافيين منهم، وكنت أجد سعادة كبرى وارتياحًا غريبًا حين أوقظ المؤذنين لأذان الصبح**(*)»[27]. كما «تُصور» المذكرات البنا أنه شاب شجاع، ولا يخاف من سلطة الرجال الراشدين، ولا يخشى توبيخ العصاة وتوجيههم، حتى لو كان إمام المسجد المحلي أو أستاذه[28]. كما توضح المذكرات مواهبه التنظيمية في المجال الديني، حيث يذكر البنا جهوده في تأسيس جمعيات دينية؛ مثل «**جمعية الأخلاق الأدبية**»، و«**جمعية منع المحرمات**»[29].

ولا توجد في سيرته إشارات للأنشطة الترفيهية التي نتوقع أن يشارك فيها طفل ومراهق؛ مثل اللعب في الحي، أو الرياضة، أو ممارسة الحيل والخدع ضد الناس. ولا تكاد المذكرات تشير إلى الأعمال التي ربما مارسها خلال الإجازات المدرسية لمساندة أسرته ماليًا. ولا ترد في سيرته الرحلات

(*) يقول الناقد البروفيسور دانيال مندلسون (نقلًا عن الكاتب جيمس فَرَايْ): «**كلما زاد «الادعاء» الدراماتيكي في السيرة الذاتية، زاد احتمال كون الحكاية «خيالية» ومبالغ فيها**»!! انظر الفصل الثالث: **عرض لكتاب «تاريخ كتب السيرة الذاتية»**، بقلم البروفيسور دانيال مندلسون، ص-183. **(العيسى)**

والمهمات التي قام بها نيابة عن والده في شبابه، والتي احتلت مكانة مركزية في رسائله إلى والده؛ بل لم يذكرها في مذكراته على الإطلاق[30]. **وبدلاً من ذلك، جعل البنا سيرة حياته بأكملها، منذ الطفولة المبكرة والشباب، تدور بطريقة أو بأخرى حول نضاله من أجل «الدعوة»؛ ولكن مصطلح «الدعوة»، في خطاب البنا وجماعته، أصبح من الصعب تمييزه عن البرنامج الديني-السياسي للإخوان.**

تتخلل العديد من فصول سيرة البنا الذاتية قصص لرجال فضلاء وشجعان يمثلون القدوة. وتستحق القصة الطويلة لمؤسس الطريقة الحصافية الذكر لأنها تُوصل بعض أعز وأغلى «الصور» التي كانت لدى الإخوان المسلمين عن أنفسهم: أيْ فكرة أنهم كانوا لا يخشون إلا الله وحده، ويملكون الجرأة على انتقاد وشجب الأشخاص الأقوياء والمؤثرين، وأنهم لم يتملّقوا مطلقًا أهل السلطة، وكذلك لم يتذللوا ويخنعوا لأي شخص، بغض النظر عن منصبه. فعلى سبيل المثال، إليكم هذه القصة: «**ومن نماذج ذلك أنه (الشيخ الحصافي) زار رياض باشا حين كان رئيس الوزارة، فدخل أحد العلماء وسلّم على الباشا وانحنى حتى قارب الركوع، فقام الشيخ مغضبًا وضربه على خديه بمجمع يده، ونهره بشدة قائلاً: استقم يا رجل فإن الركوع لا يجوز إلا لله**»[31]. **[حرفيًا من كتاب «مذكرات الدعوة والداعية»، العيسى]**

وتستمر القصة مع قيام الشيخ الحصاني بتوبيخ وتبكيت جميع رموز السلطة والنفوذ في مصر في ذلك الوقت من البكوات والباشوات إلى الملوك والبريطانيين. كما عُرضت «**الصورة**» ذاتها عن البنا نفسه من خلال قصص مشابهة عنه وعن أقرب رفاقه[32]. وفي مدرسة تدريب المعلمين، على سبيل المثال، يقرِّع البنا المفتش العام للتعليم الذي أخبره بأنه لن يحصل على أيّ تعيين إذا أصرّ على ارتداء الزي الإسلامي. يقول البنا:

> **«قال المفتش: وبهذا الشكل خرجت عن النظام المدرسي. فقلت له: ولم، يا سيدي؟ إن النظام المدرسي مواظبة وأنا لم أغب عن الدروس أبدًا، وسلوك وأخلاق، وأساتذتي راضون عني والحمد لله، وعلم ودراسة، وأنا أول فرقتي. ففيم الخروج عن النظام المدرسي، إذن؟ فقال:**

ولكنك إذا تخرجت وأصررت على هذا الزي فسوف لا يسمح مجلس المديرية بتعيينك مدرسًا، حتى لا يستغرب التلاميذ هذا المظهر. فقلت: على كل حال، هذا لم يجيء وقته بعد، وحين يجيء وقته يكون للمجلس الحرية ويكون لي الحرية كذلك، والأرزاق بيد الله ليست بيد المجلس ولا الوزارة. فسكت المدير وتدخل الناظر في الأمر، فقدمني إلى المدير بكلمة طيبة وصرفني، فانصرفت وانتهت المشكلة بسلام»(*)(33).
[حرفيًا من كتاب «مذكرات الدعوة والداعية»، العيسى]

الرجل ورؤيته

تُخصص سيرة البنا الذاتية مساحةً كبيرةً لعرض آراء دينية واجتماعية متنوعة، بهدف تركيز الانتباه على الرجل ورؤيته. ومن خلال سرد حكاية حياته المبكرة، نجحت المذكرات في رسم «**صورة**» رجل يتمتع بمهارة قيادية رائعة؛ ولكن لضمان نقل وإيصال «**صورة**» رجل ذي رؤية مهمة وهدف عظيم، تضمنت السيرة الذاتية أيضًا انعطافات واستطرادات طويلة من التأملات الفكرية التي لا علاقة لها بقصة وسيرة حياة المؤلف. فعلى سبيل المثال، أتبع سيرته الصوفية في شبابه بتعليق شامل عن وجهة نظره الخاصة في التصوف(34). فقد كانت هناك شكوك واسعة النطاق في استقامة الصوفية بين أعضاء جماعة الإخوان المسلمين بسبب بعض ممارساتها البدعية، وربما وجد البنا نفسه مضطرًّا إلى اتخاذ موقف حازم ضد «تجاوزاتها»(35).

عناصر نهضة الأمة الإسلامية (وفقًا للبنا):
علماء الأزهر + الطرق الصوفية + الجمعيات الإسلامية العملية [كالإخوان]!

وهكذا حرص البنا، في سيرته الذاتية، على التأكيد على قيم الصوفية

(*) نكرر: يقول الناقد البروفيسور دانيال مندلسون (نقلًا عن الكاتب جيمس فَرَايْ): «... **كلما زاد «الادعاء» الدراماتيكي في السيرة الذاتية، زاد احتمال كون الحكاية «خيالية» ومبالغ فيها»**! انظر الفصل الثالث: **عرض لكتاب «تاريخ كتب السيرة الذاتية»**، بقلم البروفيسور دانيال مندلسون، ص-183. (**العيسى**)

بعد تنقيتها وإصلاحها كوسيلة للتربية الروحية. لقد رأى أن الأمة الإسلامية الموحدة والقوية تتكون من ثلاثة عناصر: علماء الأزهر، والطرق الصوفية، والجمعيات الإسلامية العمليَّة [كالإخوان المسلمين]: «**ولو أراد الله والتقت قوة الأزهر العلمية بقوة الطرق الروحية بقوة الجماعات الإسلامية العملية لكانت أمة لا نظير لها: توجه ولا تتوجه، وتقود ولا تنقاد، وتؤثر في غيرها ولا يؤثر شيء فيها، وترشد هذا المجتمع الضال إلى سواء السبيل**»[36]. [**حرفيًا من كتاب «مذكرات الدعوة والداعية»، العيسى**]

وبهذه الطريقة، حوّل البنا الصوفية إلى عنصر من عناصر رؤيته لنهضة إسلامية وطنية: أمة قوية وموحدة قائمة على كل من المؤسسات الإسلامية التقليدية (الأزهر والصوفية) والحركيّة الإسلامية المنبثقة ممثلة في الجمعيات الإسلامية [كالإخوان المسلمين]. لقد كان زعيم الإخوان يعرف أنه سيخسر الشباب إذا لم ينجح في ربط ميولهم الدينية مع النضال الوطني ضد البريطانيين؛ فقد كان الجيل الشاب في أواخر الأربعينيات من القرن الماضي أكثر ميلًا من أيّ وقت مضى في التاريخ المصري إلى ربط الدين مع الظلامية والتخلف. وكانت خلفية البنا الصوفية تمثل نقطة ضعف مميتة محتملة (مثل كعب أخيل) إذا أصبحت قيادته موضع شك. ولتجنب هذا المأزق، رَبَطَ البنا الصوفية بالقوة الروحية وجعلها جزءًا أساسيًّا من النهضة الإسلامية المرتجاة. أكثر من ذلك، تضمنت السيرة الذاتية مساحة كبيرة لسرد تفاصيل مشاركة المؤلف «**المبكرة**»[*] في ثورة 1919 ضد الحكم البريطاني وفي النضال الوطني اللاحق، كما لو كان يريد التأكيد على أنه لم يتجاهل واجبه الوطني على الرغم من انشغاله بالصوفية. وبالنسبة إلى معظم الشبان من جيل البنا،

(*) **تضمنت سيرة البنا الذاتية «مذكرات الدعوة والداعية» مساحة كبيرة لسرد تفاصيل مشاركة المؤلف «المبكرة» في ثورة 1919؛ ولكن المفارقة المدهشة هي أن حسن البنا ولد عام 1906، ولذلك كان عمره بالكاد 13 عامًا عندما وقعت ثورة 1919 التي «ادعى» أنه شارك فيها!! ونكرر مقولة الناقد البروفيسور دانيال مندلسون (نقلاً عن الكاتب جيمس فَرَايْ): «... كلما زاد «الادعاء» الدراماتيكي في السيرة الذاتية، زاد احتمال كون الحكاية «خيالية» ومبالغ فيها»!!** انظر الفصل الثالث: **عرض لكتاب «تاريخ كتب السيرة الذاتية»**، بقلم البروفيسور دانيال مندلسون، ص-183. **(العيسى)**

كانت ثورة 1919 ذات قيمة رمزية عميقة، وكان الكثير من السياسيين الشبان في عقد الثلاثينيات حريصين على الادعاء بأنهم شاركوا في صنع تلك الأيام المجيدة من النضال الوطني والتضحية؛ حتى لو كانوا تلاميذ في المرحلة الابتدائية![37] وترسم المذكرات «**صورة**» مشرفة لزعيم الإخوان المسلمين بصفته أحد الطلاب النشطاء الذي قاد مظاهرات في دمنهور، بل وتفاوض في سن مبكرة مع الشرطة[38]. ويتم، مرة أخرى، إيصال صفاته القيادية إلى القراء عبر حكايات من حياته المبكرة.

إعادة اختراع معاداة الغرب؟

انتقل البنا، عام 1923، إلى القاهرة لاستكمال دراسته في «**دار العلوم**»، ليدرس مزيجًا من العلوم التقليدية والحديثة. لقد استُخدم وصف لقائه مع القاهرة في عشرينيات القرن الماضي بشكل متكرر لتوضيح كيفية تأثره وانزعاجه هو والجماعة من التأثير المشترك للتغريب و«**الحداثة**»[*] في مصر في الثلاثينيات. لقد كتب:

«وعقب الحرب الماضية (1914–1918) وفي هذه الفترة التي قضيتها بالقاهرة، اشتد تيار موجة التحلل في النفوس وفي الآراء والأفكار باسم التحرر العقلي، ثم في المسالك والأخلاق والأعمال باسم التحرر الشخصي، فكانت موجة إلحاد وإباحية قوية جارفة طاغية، لا يثبت أمامها شيء، تساعد عليها الحوادث والظروف. ولقد تحولت الجامعة المصرية من معهد أهلي إلى جامعة حكومية تديرها الدولة وتضم عددًا من الكليات النظامية، وكانت للبحث الجامعي والحياة الجامعية حينذاك في رؤوس الكثيرين صورة غريبة: مضمونها أن الجامعة لن تكون جامعة علمانية إلا إذا ثارت على الدين وحاربت التقاليد الاجتماعية المستمدة

(*) يقدم المفكر المصري الراحل البروفيسور نزيه نصيف الأيوبي (1944–1995) ملاحظة نوعية ثاقبة في كتابه المنشور بالإنكليزية بعنوان «الإسلام السياسي: الدين والسياسة في العالم العربي»، (لندن: روتليدج للنشر، 1991، ص 231)، إذ يقول: «بينما كان الأفغاني وعبده يسعيان بجد وصدق إلى «تحديث الإسلام»، فإن حسن البنا كان يسعى جاهدًا إلى «أسلمة الحداثة»!! (العيسى)

منه، واندفعت وراء التفكير المادي المنقول عن الغرب بحذافيره، وعرف أساتذتها وطلابها بالتحلل والانطلاق من كل القيود.(...) ولقد وضعت نواة «الحزب الديمقراطي»، الذي مات قبل أن يولد ولم يكن له منهاج إلا أن يدعو إلى الحرية والديمقراطية بهذا المعنى المعروف حينذاك: معنى التحلل والانطلاق (...). وكنت متألمًا لهذا أشد الألم، فها أنذا أرى أن الأمة المصرية العزيزة تتأرجح حياتها الاجتماعية بين إسلامها الغالي العزيز الذي ورثته وحمته وألفته وعاشت به واعتز بها أربعة عشر قرنًا كاملة، وبين هذا الغزو الغربي العنيف المسلح المجهز بكل الأسلحة الماضية الفتاكة من المال والجاه والمظهر والمتعة والقوة ووسائل الدعاية»[39]**. [حرفيًا من كتاب «مذكرات الدعوة والداعية»، العيسى]**

ومن المحتمل أن يكون البنا قد انزعج بشدة من الآثار المربكة للحداثة والتغريب عندما وصل إلى القاهرة في منتصف عشرينيات القرن الماضي؛ فقد زعم، على الأقل في سيرته الذاتية، أنه رفض لفترة طويلة قبول تغيير الزي المدرسي من الملابس الإسلامية التقليدية إلى اللباس الغربي[40]. ومقارنة بما ورد في مصادر أخرى حول أسلوب حياته في هذه الفترة، تبدو المذكرات غير دقيقة ويجب ألّا تُضللنا بحيث نعتقد أن زعيم جماعة الإخوان المسلمين عارض بشدة، منذ البداية، كل شيء من أصل غربي وأن «عداءه الثقافي المتأجج بالفعل للتغريب والحداثة تحوّل إلى كراهية عاطفية للأجانب» [زينوفوبيا، Xenophobia]، على حد تعبير أحد المؤرخين[41].

زعم البنا في مقال ناري عام 1937 أن الغرب «ليست له فضائل» مطلقًا باستثناء علومه الحديثة!!

لقد كتب البنا، في أحد مقالاته الأولى التي نُشرت في أواخر العشرينيات من القرن الماضي، ما يشير إلى عدم رفضه الكامل لكل شيء غربي، إذ حدد فيه بدقة الجوانب التي يريد اقتباسها من المدارس الغربية. ولا يقتصر ذلك بصرامة على العلوم الطبيعية؛ ولكن، على سبيل المثال،

«اهتمامهم بالاتجاهات الجديدة في التعليم الحديث»، و«اهتمامهم بالتربية البدنية» وجهودهم «لغرس الفضائل الوطنية في نفوس تلاميذهم»[42]. وعندما أصبحت الجماعة أكثر تسييسًا وتطرفًا بعد سنوات وزادت الثورة الفلسطينية من حماسها القومي، لم تعد قيادات الجماعة تتحدث علنًا بشكل إيجابي عن الحضارة الغربية. ففي عام 1937، على سبيل المثال، زعم البنا في مقال ناري أن الغرب ليست له فضائل مطلقًا باستثناء علومه الحديثة[43]. وأدت كتابات مثقفي الجماعة المعادية للغرب في أواخر الثلاثينيات أيضًا إلى جعل المؤرخين يعدون «**مناهضة الغرب**» كواحدة من أهم سمات الجماعة**!**[44].

تدل كتابات البنا على أن حماسه «المناهض للغرب» كان على الأرجح تطورًا «لاحقًا» في فكره!!

ولا يبدو أن هذا الرفض الشامل للثقافة الغربية كان موجودًا أثناء أيام البنا الأولى في القاهرة والإسماعيلية؛ فقد كتب البنا الشاب بفخر إلى والده كيف ارتجل كلمة عن الثورة الفرنسية، أدهشت حتى أولئك المدرسين المتخصصين في التاريخ[45]. وفي كتاباته المبكرة في **مجلة الفتح** وبعدها في السنوات الأولى من **جريدة الإخوان المسلمين** في الثلاثينيات، كانت هناك إشارات وفيرة إلى الغرب وكانت غالبا عبارة عن توضيح أمثلة من حضارة أوروبا ينبغي لمصر محاكاتها. وبشكل مجمل، تدل هذه المؤشرات على أن الحماس المناهض للغرب كان على الأرجح تطورًا لاحقًا في فكر البنا**!!**

مالت سيرة البنا الذاتية إلى «تضخيم» مناهضته للغرب لتعزيز «صورته» ومنزلته في سياق أزمة الجماعة الداخلية عام 1947!!

إن حقيقة أن سيرة البنا الذاتية تميل إلى تضخيم مناهضته للغرب تؤكد مجددًا أن مذكرات البنا كتبت، بالفعل، لتعزيز «**صورته**» ومنزلته في سياق أزمة الجماعة الداخلية عام 1947[46]. وبشكل مماثل، فإن طموحات المؤلف للحصول على تعليم عالٍ والسفر إلى الخارج للدراسة أو العمل

توضح أيضًا الصراع الكامن داخله بين بعض «**الصور**» التي يرغب في إيصالها ونقلها في سيرته الذاتية وبين الحقائق الفعلية لقصة حياته؛ فقبل قبوله في دار العلوم، يتذكر البنا كيف كان مترددًا وحائرا بين الرغبة في تحصيل المعرفة من جهة، ورؤية العالم المسلم الكبير في العصور الوسطى أبي حامد الغزالي من جهة أخرى، الذي أفتى أن التعليم ينبغي أن يقتصر على ما هو ضروري للقيام بالشعائر الدينية وكسب الرزق فقط. وكان البنا على وشك التخلي عن فكرة التعليم العالي في دار العلوم لولا أن أحد الأساتذة أقنعه، في النهاية، بمواصلة الدراسة(47). ويتذكر التردد نفسه بخصوص الترشح للحصول على منحة دراسية في الخارج بعد التخرج من دار العلوم. ويكمن أحد الأسباب التي قدمها في رغبته في التخلي عن الخيلاء والأبهة الخارجية ومواصلة العمل في نشر الدعوة الإسلامية التي كان يحملها في ذهنه(48). ويتذكر زعيم الإخوان المسلمين في مذكراته أيضا مفاوضاته مع الشيخ حافظ وهبة، مستشار الملك ابن سعود، ليعمل في وظيفة [مدرس] في المملكة العربية السعودية عام 1928. يقول البنا: «**وفي الموعد التقينا، وكان أهم شرط وضعته أمام فضيلة الشيخ حافظ ألا أعتبر موظفًا يتلقّى مجرد تعليمات لتنفيذها، بل صاحب فكرة يعمل على أن تجد مجالها الصالح في دولة ناشئة هي أمل من آمال الإسلام والمسلمين، شعارها العمل بكتاب الله وسنة رسوله وتحرّي سيرة السلف الصالح. وأما ما عدا ذلك من حيث المرتبات والامتيازات المادية(*) وما إليها فلم أجعله موضع حديث فيما بيننا**»(49). **[حرفيًا من كتاب «مذكرات الدعوة والداعية»، العيسى]**

(*) نكرر: يقول الناقد البروفيسور دانيال مندلسون (نقلًا عن الكاتب جيمس فَرَايْ): «... **كلما زاد «الادعاء» الدراماتيكي في السيرة الذاتية، زاد احتمال كون الحكاية «خيالية» ومبالغ فيها»!! انظر الفصل الثالث: عرض لكتاب «تاريخ كتب السيرة الذاتية»**، بقلم البروفيسور دانيال مندلسون، ص-183. (**العيسى**)

نشرت جريدة الإخوان أن حسن البنا يسافر في القطار
على فئة «الدرجة الأولى» ولكن بعدما شن الإخوان «لاحقًا» هجمات
على بذخ وترف موظفي الحكومة، نشرت أن البنا يسافر على فئة «الدرجة الثالثة»!!!

ويؤكد البنا بهذه الطريقة بوضوح لأعضاء الجماعة زهده ونكرانه للذات، معلنًا عن رغبته في التضحية بكل طموحاته المهنية وامتيازاته المادية من أجل الدعوة. وأصبحت هذه «**الصورة**» للمرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين، في النهاية، جزءًا أساسيًّا من هوية الحركة؛ ولكن لا يمكن العثور على مثل هذا الموقف المتنسِّك المستلهم من الغزالي في المصادر الأخرى المتاحة لدينا عن حياته المبكرة. بل على العكس من ذلك، نجد في رسائله إلى والده في فترة الإسماعيلية أنه كان دائمًا يطمئن والديه اللذين يشتكيان من أنه يصرف جزءًا كبيرًا جدًّا من راتبه على نفسه، ولا يرسل إليهما المبلغ المتوقّع[50]. ويتذكر شقيقه الأصغر جمال أيضًا كيف كان حسن أنيقًا وحسن الهندام في الإسماعيلية. ويقول إنه اكتسب زهده وأسلوب حياته البسيط عندما بدأ لاحقًا يتجول في الريف المصري الفقير [لحشد وتعبئة الأنصار بعد اندلاع أزمة الإخوان الداخلية**!!**][51]. وتدعم شهادة جمال البنا ما نشر عام 1933 في جريدة الإخوان المسلمين، إذ نجد إشارة إلى أن حسن البنا كان يسافر مع بعض إخوانه في القطار على تذاكر فئة «**الدرجة الأولى**»[52]. ولكن بعدما شن الإخوان المسلمون لاحقًا هجمات عنيفة وقاسية على الحياة المترفة والآثمة لكبار موظفي الحكومة وشخصيات الطبقة العليا، نجد إشارات في جريدة الإخوان نفسها عن سفر البنا في القطار على تذاكر فئة «**الدرجة الثالثة**»**!!**[53] وهكذا، فإن زهد البنا المزعوم يقدم مثالًا آخر على كيفية «**فرض ترتيب الحاضر على الماضي**» في سيرته الذاتية، عندما يتم عرض «**صور**» عن القيادة لتساعد البنا على استعادة سلطته كمرشد عام.

رجل من عامة الناس وزعيم غير نخبوي!!

كان أحد المثل العليا التي يعتز بها الإخوان المسلمون على نطاق واسع هو أنه لا ينبغي لهم أبدًا الخنوع وإذلال أنفسهم أمام من يمثّلون السلطة ويملكون النفوذ؛ بل ينبغي دائمًا أن يحافظوا على شرفهم وكرامتهم. وتسلط سيرة البنا الضوء على هذا المثل الأعلى، من خلال قصة عن البنا نفسه عندما ذهب إلى أحد معارف والده في القاهرة ليتوسط له في الكشف أو في امتحان القبول؛ ولكن في لحظة دراماتيكية أمام باب ذلك الرجل، قرّر فجأة أن يتراجع ويغادر المكان. يقول البنا:

> **«وذهبت إليه، ووقفت أمام الباب وطرقته مرة... وفي هذه اللحظة خطر لي خاطر تملك نفسي ودفعني إلى الانصراف فورًا دون انتظار الرد من الداخل، هذا الخاطر هو أنني شعرت بأن هذا لجوء لغير الله واعتماد على سواه وركون إلى الناس. فصممت على الاستعانة بالله وحده، وعلى أن تكون زيارتي للشيخ - رحمه الله - بعد الانتهاء من الكشف والامتحان معًا»(*)(54). [حرفيًا من كتاب «مذكرات الدعوة والداعية»، العيسى]**

لقد كانت هذه «**الصورة**» التي تنفي اهتمام الإخوان بالواسطة والمحسوبية وتؤكد توكلهم على الله واعتمادهم على أنفسهم، بلا شك، حجر الزاوية في تصوّر كل إخواني لذاته. ورافق هذا الرفض للواسطة والمحسوبية إحساس بالكرامة والشرف؛ ولكن كانت العلاقات والواسطة لا غنى عنهما لنجاح الجماعة، ولم يكن بإمكان البنا تجاهل الدور المحوري لشبكات العلاقات غير الرسمية في مصر. لقد كان هناك، بدون شك،

(*) نكرر: يقول الناقد البروفيسور دانيال مندلسون (نقلًا عن الكاتب جيمس فَرَايْ): «... **كلما زاد «الادعاء» الدراماتيكي في السيرة الذاتية، زاد احتمال كون الحكاية «خيالية» ومبالغ فيها»**!! انظر الفصل الثالث: **عرض لكتاب «تاريخ كتب السيرة الذاتية»**، بقلم البروفيسور دانيال مندلسون، ص-183. **(العيسى)**

تضارب بين هذه المثالية العزيزة ومصالح الجماعة. ويمكن التدليل على ذلك بمثال من المؤتمر الخامس للإخوان المسلمين عام 1939، الذي عُقد في وقت كانت فيه هناك شكاوى حول علاقة البنا الودية مع السياسي المصري القوي وقتها **علي ماهر باشا**. لقد زعم مرشد عام الجماعة، في كلمته أمام المؤتمر، أن الإخوان تجنّبوا «هيمنة الأعيان وكبار الشخصيات»[55]. ولكن بعكس هذا الزعم، كان **علي إسلام باشا** يعد واحدًا من عدد قليل من الباشوات في الجماعة. وعلى الرغم من كونه عضوًا جديدًا، فإنه قد حصل على ترتيب متقدم جدًّا بين المتحدثين في المؤتمر[56].

وفي الأيام الأولى في القاهرة والإسماعيلية، لم يكن هناك شك في أن «الأعيان» لعبوا دورًا حاسمًا في الجماعة. ولم يقلّل البنا مطلقًا من دور راعيهم ومناصرهم المحلي، رجل الأعمال الحاج حسين الزملوط، الذي تبرّع بـ 500 جنيه مصري لبناء أول مسجد للإخوان المسلمين[57]. ولكن البنا يتذكر أنه عند وضع حجر الأساس للمسجد، أصر الإخوان المسلمون على أنه، البنا، ينبغي أن يؤدي المراسم. ورفض البنا هذا العرض من أجل الدعوة: «**اقترب اليوم المحدد لوضع الحجر الأساسي للمسجد والمدرسة وهي «دار الإخوان»، فاجتمع الإخوان وأخذوا عليّ أن أكون واضع هذا الحجر، فأفهمتهم أن ذلك سوف لا يعود على المشروع بفائدة مادية أو أدبية، ومن الخير أن نفكر في الاستفادة من هذا المظهر للمشروع، فأخذوا يستعرضون أسماء من يضعونه من كبار الموظفين أو الأعيان، وكان نكتة من النكت البارعة أن أذكر اسم أحد كبار الموظفين، فقال بعض الإخوان تعليقًا على ذلك: وما الذي يدعوكم إلى اختياره... لا هو صالح ترجى بركته ولا هو غني تستفيدون من ماله**»[58]. **[حرفيًا من كتاب «مذكرات الدعوة والداعية»، العيسى]**

وعبر إعادة سرد مثل هذه «الحكايات»، تعزز السيرة الذاتية «**صورة**» للجماعة وزعيمها حتى لو كانت الحقائق الصلبة من المذكرات تشير إلى اعتماد قوي على حسن نية المتبرعين. **ومن الأرجح والمحتمل أن حفل وضع**

حجر الأساس لم يكن موضوع نقاش على الإطلاق. لقد تبرع الحاج الزملوط بالمال، ووقع عقد شراء قطعة الأرض التي بُني عليها المسجد، وسُمي المسجد لاحقًا باسمه(59). أكثر من ذلك، جمع الزملوط، لاحقًا، أعيان الإسماعيلية لتسوية وتسديد ديون الإخوان المسلمين المستحقة(60). وعلى الرغم من ذلك، فإن البطل في سيرة البنا الذاتية ليس الحاج الزملوط بل أعضاء الإخوان من الطبقات الدنيا. ويتذكر البنا ببهجة عظيمة كيف باع أحد أتباعه الفقراء دراجته، وهي وسيلة النقل الوحيدة لديه، للتبرع بثمنها للمسجد(*)(61). وتصف حكاية أخرى دهشة المفتش العام عندما زار مدرسة الإخوان الجديدة في الإسماعيلية:

> **«والتأم الجمع، وانتظم الحفل، وتعاقب الخطباء ودهش الرجل، وبخاصة حين كان يسمع أن هذا الخطيب نجار والآخر جنايني والثالث مكوجي وهكذا، فقال: عجيب هذه أعجب مدرسة رأيتها.. ولم يتمالك نفسه بعد نهاية الخطب أن قام فتناول وسامًا من أوسمة الإخوان، وكان شارة الإخوان إذ ذاك وسامًا من الجوخ الأخضر كتب عليه الإخوان المسلمون، فلبسه وأعلن انضمامه(*) للجماعة وحيا المجتمعين بكلمات طيبات»(62).**
> **[حرفيًا من كتاب «مذكرات الدعوة والداعية»، العيسى]**

نُفي البنا إلى قنا في عام 1941
لنقده الصريح لانحراف الدولة «المتخيل».. وأصبح
مستعدًا لتقديم تنازلات كبيرة للحكومة لضمان بقاء ونجاة الحركة...
ما أدى إلى انتقادات واسعة من أتباعه نتج عنها «انقسام» مؤقت في الحركة!!

لماذا يوجد في مذكرات البنا مثل هذا التركيز الواضح على «**الصور**»

(*) نكرر: يقول الناقد البروفيسور دانيال مندلسون (نقلًا عن الكاتب جيمس فَرَايْ): «... **كلما زاد «الادعاء» الدراماتيكي في السيرة الذاتية، زاد احتمال كون الحكاية «خيالية» ومبالغ فيها»**!! انظر الفصل الثالث: **عرض لكتاب «تاريخ كتب السيرة الذاتية»**، بقلم البروفيسور دانيال مندلسون، ص-183. **(العيسى)**

المرتبطة بالطبقة الاجتماعية لبعض أعضاء الإخوان، و«**الصور**» التي توضح معارضة الإخوان المسلمين للسلطات القائمة ورفض رعايتهم ودعمهم؟ أحد الأسباب هو الخلفية الاجتماعية-الاقتصادية لأعضائها؛ فقد تم تجنيد غالبية الأعضاء من فئة المتعلمين في الطبقة الوسطى الدنيا، وكانوا من فئة صغار المسؤولين الحكوميين والمعلمين والطلاب. كما انضم إلى الجماعة العديد من التجار والحرفيين ووجهاء القرى. وكان القاسم المشترك بين هذه المجموعات هو نقد الطبقات الحاكمة العليا الذين تتناقض أساليب حياتهم الغربية الباذخة جدًا مع بساطة أسلوب الحياة المستمد من الإسلام، وفقًا لمفهوم الإخوان المسلمين. وكانت حملاتهم لتحقيق الإصلاح الأخلاقي والاجتماعي تحمل، في كثير من الأحيان، نبرات نقدية طبقية مع تركيز واضح على شجب التهتك والعهر بين أعضاء المؤسسة الحاكمة. كما دعا برنامجهم الديني-السياسي إلى تخفيض رواتب جميع كبار موظفي الدولة[63]. وبشكل عام، اعتبر الإخوان المسلمون أن المصالح الشخصية للطبقات العليا تسيطر على النظام الحاكم في مصر. ولذلك، استغلوا أية فرصة لشن هجمات عنيفة على فساد النظام القائم؛ ولكن كانت هذه الهجمات مكلفة جدًّا. ففي عام 1941، تم نفي البنا إلى قنا في صعيد مصر بسبب نقده الصريح للحكومة لانحرافها «**المتخيل**» عن الطريق المستقيم، وفقًا لرأي البنا[64]. وأدى النزاع المتصاعد مع الحكومة إلى إدراك البنا العواقب المميتة الناتجة عن سياسة المواجهة هذه. ولذلك، أصبح، في السنوات اللاحقة، مستعدًّا لتقديم تنازلات كبيرة للحكومة لضمان بقاء ونجاة الحركة. وجلبت عليه هذه السياسة عام 1942 انتقادات واسعة من أتباعه، وأدت إلى انقسام مؤقت في الحركة[65].

ولكن لسوء حظ البنا، كانت هذه التنازلات تقوّض «صورة» حسن كـ «**قائد شجاع**»، يتحدث بجرأة قوية ضد الباشوات والملك والإنكليز. وخلال أزمة 1947، انبثقت مجددًا قضية «**المواجهة مقابل التسوية مع الحكومة**» بكل قوة. وناصر أحمد السكّري، خصمه الرئيس ومنافسه، سياسة «المواجهة» في تحالف مع حزب الوفد ضد الحكومة، متهمًا البنا بفصله من

الجماعة بسبب ضغط من رئيس الوزراء إسماعيل صدقي باشا. وكانت هناك مؤشرات قوية على أن المرشد العام للإخوان المسلمين قد أبرم صفقة مع صدقي في مقابل امتيازات مختلفة للجماعة. وبناء على هذه الخلفية، سيستخدم البنا مذكراته لصنع وتعزيز «صورة» له وللإخوان المسلمين كمعارضين صلبين وعنيدين للنخبة الحاكمة بشكل عام وحكومة صدقي بشكل خاص. فعلى سبيل المثال، تصف سيرته الذاتية كيف رفض زعيم فرع الجماعة بالقاهرة بازدراء قدرًا كبيرًا من المال من حكومة صدقي باشا[66]. كما يتذكر البنا، في مذكراته، أنه عندما مر رئيس الوزراء عبر الإسماعيلية، تم اختيار البنا لإلقاء كلمة ترحيب؛ ولكنه رفض[*] بشكل صارخ تمجيد صدقي باشا، وقال لرؤسائه:

«إذا كنتم تظنون أن الموظف أداة تتحرك بإرادة الناس فأنا الذي أقدر قيمة نفسي لا وزارة المعارف ولا يمكن أبدًا أن أضع نفسي في هذا الموضع، وأنا أعلم تمامًا أن التعاقد الذي بيني وبين وزارة المعارف لا يلزمني بأكثر من أن أحسن عملي في التربية والتعليم. وليس فيه نص على الخطابة لرؤساء الحكومات، وكلام طويل من هذا القبيل. وأمام هذا الإصرار لم يجدوا بُدًّا من انتداب أحد الأعيان للقيام بهذه المهمة»[67] [حرفيًا من كتاب «مذكرات الدعوة والداعية»، العيسى]

ولم تنبثق «صورة» تعبر عن سمات الكرامة والفخر عند الإخوان المسلمين كما انبثقت في تعاملهم مع الاحتلال البريطاني المكروه. يتذكر زعيم الإخوان المسلمين في سيرته الذاتية كيف واجه أحد تلاميذه، الأخ حافظ وهو نجار، السيد سولنت المتغطرس من شركة قناة السويس التي يهيمن عليها البريطانيون. طلب سولنت من حافظ القيام ببعض الإصلاحات

(*) نكرر: يقول الناقد البروفيسور دانيال مندلسون (نقلًا عن الكاتب جيمس فَرَايْ): «... **كلما زاد «الادعاء» الدراماتيكي في السيرة الذاتية، زاد احتمال كون الحكاية «خيالية» ومبالغ فيها»**!! انظر الفصل الثالث: **عرض لكتاب «تاريخ كتب السيرة الذاتية»**، بقلم البروفيسور دانيال مندلسون، ص-183. **(العيسى)**

في منزله، واتهمه بتضخيم أجرته ووصفه باللص. وطلب حافظ من سولنت الاعتذار؛ ولكنه رفض قائلًا إنه لن يعتذر حتى لو كان خصمه ملك مصر، فرد حافظ:

«سأكتب تقريرًا إلى قنصلكم هنا وإلى سفارتكم أولاً ثم إلى مجلس إدارة قناة السويس بباريس ثم الجرائد الفرنسية المحلية والأجنبية، ثم أترقب كل قادم من أعضاء هذا المجلس فأشكوك إليه، فإذا لم أصل إلى حقي بعد ذلك استطعت أن أهينك في الشارع وعلى ملأ من الناس وأكون بذلك قد وصلت إلى ما أريد، ولا تنتظر أن أشكوك إلى الحكومة المصرية التي قيدتموها بسلال الامتيازات الأجنبية الظالمة، ولكني لن أهدأ حتى أصل إلى حقي بأي طريق. فقال سلونت: يظهر أنني أتكلم مع «محام لا نجار»، ألا تعلم أنني كبير المهندسين في قناة السويس فكيف تتصور أن أعتذر لك؟ فقال حافظ: وألا تعلم أن قناة السويس في وطني لا في وطنك، وأن مدة استيلائكم عليها مؤقتة وستنتهي ثم تعود إلينا، فتكون أنت وأمثالك موظفين عندنا فكيف تتصور أن أدع حقي لك؟ وانصرف الرجل إلى مشيته الأولى. وبعد فترة عاد مرة ثانية وعلى وجهه أمارات التأثر، وطرق المنضدة بيده في عنف مرات وهو يقول: أعتذر، يا حافظ، سحبت كلمتي»(*)(68). [حرفيًا من كتاب «مذكرات الدعوة والداعية»، العيسى]

لقد نثر وغرس البنا حكايات كثيرة من هذا النوع في مذكراته. وكان العديد منها أقل إثارة وعاطفية من المثال المذكور أعلاه؛ ولكن كان الغرض منها مجاملة جميع أعضاء الإخوان ووصف سمات الفخر والشرف والكرامة التي يتميزون بها. فقد ذكر البنا في الجزء الأول من مذكراته أكثر من 120 اسما،

(*) نكرر: يقول الناقد البروفيسور دانيال مندلسون (نقلًا عن الكاتب جيمس فَرَايْ): «... **كلما زاد «الادعاء» الدراماتيكي في السيرة الذاتية، زاد احتمال كون الحكاية «خيالية» ومبالغ فيها»**!! انظر الفصل الثالث: **عرض لكتاب «تاريخ كتب السيرة الذاتية»**، بقلم البروفيسور دانيال مندلسون، ص-183. **(العيسى)**

وكان الكثير منهم لا يزالون أعضاء نشيطين في الجماعة. وعندما نسي، في إحدى حلقات مذكراته المنشورة صحافيًا، ذكر رواد مبكرين في الجماعة في **قرية ميت مرجا سلسيل** (التابعة لمركز الجمالية في محافظة الدقهلية) من عام 1930، كتبوا له وذكروه[69]. وهذا يثبت أن مذكرات البنا كان يُنظر إليها إلى حد كبير بصفتها تمثل قصة الإخوان المسلمين الرسمية، وليست فقط قصة حياة قائدها. وتم نشر وترسيخ «صورة» المرشد العام كزعيم يتميز بالإخلاص ونكران الذات عبر إثبات حقيقة أنه كرّس جزءًا كبيرًا من سيرته الذاتية للحديث عن أتباعه وليس عن نفسه فقط. وأدت تلك الحكايات العديدة الغرض نفسه: إثارة الحماس والفخر بين أولئك الأتباع الذين كانوا أبطالًا في تلك الحكايات، وتعزيز الإحساس بالصداقة الشخصية بينه وبين أتباعه.

التبرع البريطاني

إن الصورة الشائعة عن جماعة الإخوان المسلمين كمنظمة تتصدى وتتحدى البريطانيين في الإسماعيلية لا تتسق، حقًّا، مع حقيقة أن الجماعة تلقت تبرعًا من شركة قناة السويس البريطانية لبناء أول مسجد لها. لقد نجح البنا في ترسيخ هذه «**الصورة**» كما سنرى لاحقًا. ووفقًا لمذكراته، مرّ بالصدفة وبشكل خاطف مدير شركة قناة السويس قرب مسجدهم، وهو تحت التشييد، ثم أرسل موظفًا ليقول للبنا إن الشركة ترغب في التبرع بـ 500 جنيه إسترليني لصالح مشروع مسجدهم. وعندها سأل البنا المدير بتعجب عن سبب التبرع بمبلغ ضئيل؛ بينما تبرعت الشركة في الوقت نفسه بـ 500,000 جنيه إسترليني لبناء كنيسة؟[70] ولكن تم قبول التبرع، وقام المؤلف بسرد الشائعات الخبيثة التي انتشرت بأن جماعة الإخوان تبني مسجدًا من «**أموال الخواجات**»[71].
ولكن فند البنا تلك الشائعات قائلًا: «**إن هذا مالنا لا مال الخواجات، والقناة قناتنا، والبحر بحرنا، والأرض أرضنا**»[72].

البروفيسور لِيَّا يستنبط من مقال لمحب الدين الخطيب أن حسن البنا «أخفى» دوره الحقيقي في «حث» شركة قناة السويس على التبرع بالمال لتشييد مسجد!!

ومن المرجح جدًّا أن هذه الرواية عن تبرع شركة قناة السويس متأثرة بشدة بحسابات لاحقة مناهضة للإمبريالية. وتشير العديد من المصادر المعاصرة الأخرى أيضًا إلى ذلك التبرع؛ ولكن ليس باعتباره قضية جدلية[73]. ويبدو أن زعيم الإخوان قد «**أغفل ذكر دوره**» الحقيقي في حث شركة قناة السويس على التبرع بمبلغ من المال. **فقد كتب محب الدين الخطيب، رئيس تحرير مجلة الفتح**: «**أود الإشادة بأخينا المجاهد في سبيل الله، الأستاذ حسن أحمد البنا، الذي تمكن من إقناع شركة قناة السويس بالتبرع بـ 500 جنيه إسترليني لتشييد مسجد**»[74]. ومن المرجح جدًّا، كما يبدو لي، أن هذه المسألة أصبحت ذات أبعاد أكبر في مراحل لاحقة عندما انخرط الإخوان في السياسة الوطنية في أواخر الثلاثينيات والأربعينيات. ففي الصدامات النزاعية بعد الحرب مع الشباب الوفدي واليساري، اتُهمت جماعة الإخوان المسلمين بالتحالف مع البريطانيين وإضعاف الجبهة الوطنية المشتركة ضد الإمبريالية. وكانت هناك أيضًا شائعات (ربما لا أساس لها) حول حصول الإخوان على دعم مالي من بريطانيا[75]. فقد نشر إبراهيم حسن، وهو أحد الانفصاليين، عام 1947، مقالات عديدة عن اتصالات سرية مزعومة للإخوان مع البريطانيين[76]. كانت هذه الاتهامات والاتهامات المضادة في معظمها خطابية، وجاءت في سياق النضال للسيطرة على الحركة الوطنية، وأصبح من المألوف في الساحة السياسية وجود اتهامات وشائعات عن قيام البريطانيين بدفع رشى لمن يناصرونهم، وكانت المنافسات تدور حول من هو الأكثر مناهضة للإمبريالية.

غَرَسَ البنا حكايات «خيالية»

في سيرته عن العداء بين الإخوان وشركة قناة السويس...

لـ «منع» ظهور الحقيقة عن وجود علاقة «تعاونية» بين الطرفين!!

وفي هذا السياق، استخدم حسن البنا سيرته الذاتية لـ «**غرس حكايات خيالية**» عن العداء بين مجتمع الإخوان المبكر في الإسماعيلية وشركة قناة السويس، لـ «منع» ظهور أيّ تصور محتمل عن وجود علاقة «تعاونية» بين الطرفين. لقد «أضاف» إلى سيرته العديد من الحكايات عن الشيخ فرغلي، الذي عيّن إمامًا للعمال المسلمين في شركة قناة السويس في قرية جباسات البلاح بالقرب من الإسماعيلية. وعندما حاولت شركة قناة السويس طرده وأعطته راتبه، واجه فرغلي المسؤولين الأجانب قائلًا: «**ما كنت أظن، يا مسيو فرانسوا، أنني موظف بشركة جباسات البلاح، ولو كنت أعلم هذا ما قبلت العمل معها؛ ولكني أعلم أنني موظف من قبل جماعة الإخوان المسلمين بالإسماعيلية، وأتقاضى مرتبي منهم محولاً عليكم وأنا متعاقد معهم لا معكم على هذا الوضع، وأنا لا أقبل منك مرتبًا ولا حسابًا، ولا أترك عملي في المسجد ولا بالقوة إلا إذا أمرني بذلك رئيس الجماعة التي انتدبتني هنا وهو أمامكم بالإسماعيلية، فاتفقوا معه كما تريدون واستأذن وانصرف**». وبعد مواجهة طويلة اشترك فيها محافظ منطقة القناة وقوة شرطة من الإسماعيلية، انتصر إصرار وشجاعة فرغلي وأَجْبَرَ، في النهاية، شركة قناة السويس على الخضوع(*). وتنتهي القصة مع قول مدير الشركة: «**لقد قضيت في الجزائر عشرين سنة؛ ولكني لم أجد منهم أحدًا كهذا الشيخ الذي ينفذ علينا هنا أحكامًا عسكرية كأنه جنرال تمامًا!**»[77]. واتفق البنا، أخيرًا، مع الشركة على أن يبقى الشيخ فرغلي شهرين حيث هو، وأن تقوم الشركة بتكريمه عند انتهاء هذه المدة وأن تطلب رسميًا إلى الإخوان من يحل محله من المشايخ.

(*) نكرر: يقول الناقد البروفيسور دانيال مندلسون (نقلًا عن الكاتب جيمس فَرَايْ): «... **كلما زاد «الادعاء» الدراماتيكي في السيرة الذاتية، زاد احتمال كون الحكاية «خيالية» ومبالغ فيها**»!! انظر الفصل الثالث: **عرض لكتاب «تاريخ كتب السيرة الذاتية»**، بقلم البروفيسور دانيال مندلسون، ص-183. **(العيسى)**

صحيح أن الشيخ فرغلي اشتهر، لاحقًا، بتطرفه[*]؛ ولكن جماعة الإخوان عُرفت، في إسماعيلية أواخر العشرينيات، كجمعية خيرية إسلامية ذات «**مسحة صوفية قوية**»[78]. وانبثق التطرف والصدام مع السلطات لاحقًا، بعد 8-10 سنوات. ولا توجد مؤشرات على العداء والصدام اللذين يصفهما حسن البنا في سيرته الذاتية؛ بل، على العكس من ذلك، نجد أن جماعة الإخوان دعت، في أوائل الثلاثينيات، محافظ منطقة القناة إلى أن يكون ضيف شرف في عيد الهجرة النبوية الذي أقيم في بورسعيد. كما ناشد فرع الجماعة في بورفؤاد المحافظ من أجل تقديم التماس إلى الملك لبناء مسجد جديد في بورفؤاد[79]. وفي سيرة البنا الذاتية، كان هذا المحافظ نفسه قد أوصى القائد العسكري للإسماعيلية باستخدام قوات الشرطة ضد الشيخ فرغلي!**[80]**.

لم يكن يُنظر إلى البنا كـ «مرشد عام» لجميع فروع الإخوان منذ البداية... ويدعم هذا الرأي حقيقة أن البنا أرسل، خلال الفترة من مارس إلى ديسمبر 1928، خمس رسائل إلى والده، «لم» يذكر فيها أنه قد أسس «جماعة الإخوان»!!!

أثارت «**رواية**» تأسيس جماعة الإخوان بعض الخلاف عندما نشرها البنا، عام 1947، في إحدى حلقات مذكراته في جريدة جماعة الإخوان المسلمين؛ فقد جادل أنصار خصمه أحمد السكّري بأن البنا بالغ في دوره في عملية التأسيس وضخّمه، وزعموا أن صاحب فكرة تأسيس الجماعة هو أحمد السكّري وجرى ذلك في الوقت الذي كان هو والبنا ينتميان إلى الطريقة الحصافية، وأكدوا أن البنا وأصدقاءه في القاهرة قاموا بتطوير الفكرة وتحديد شكلها النهائي، وهو ما لم يذكره البنا في سيرته[81]. وللأسف، لا توفر المصادر الجديدة المتاحة لنا ما يكفي من المعلومات لتأكيد أو رفض أيّ من هذه الروايات بشكل قاطع. ولكن يبدو بوضوح أن البنا لم يكن يُنظر إليه

(*) الشيخ محمد فرغلي (1907- 1954) من رفاق حسن البنا المقربين، وعضو مكتب الإرشاد في جماعة الإخوان المسلمين. شارك في حرب فلسطين في عام 1948. أُعدم في 7 ديسمبر 1954 ضمن مجموعة من أعضاء جماعة الإخوان لمشاركته في محاولة اغتيال جمال عبد الناصر في «**حادثة المنشية**» التي جرت في 26 أكتوبر 1954!!!! (العيسى)

كقائد أو مرشد عام بدون منافس لجميع فروع الإخوان منذ البداية، على الرغم من أنه استحوذ على هذا الدور بعد سنتين، ربما عام 1932. ويدعم هذا الرأي حقيقة أن البنا أرسل، خلال الفترة من مارس إلى ديسمبر 1928، على الأقل خمس رسائل إلى والده، دون أن يذكر في تلك الرسائل أنه قد أسس أية منظمة أو أنه يسعى إلى عمل ذلك(82). وينطبق الشيء نفسه على **مذكرة**(*) عام 1929، حيث لا توجد إشارات إلى الجماعة(83). وحتى عام 1931، استمر البنا في توقيع مقالاته في مجلة الفتح بأنه «**معلم في مدرسة ابتدائية بالإسماعيلية**»، وليس «**رئيس جماعة الإخوان المسلمين**». وتعود أول إشارة إلى جماعة الإخوان المسلمين في مجلة الفتح إلى عام 1931. هنا، يشار إليه فقط كقائد لفرع جماعة الإخوان المسلمين في الإسماعيلية، بينما يشار إلى أحمد السكّري وحامد عسكرية كقائدين لفرعي الجماعة في المحمودية وشبراخيت(84).

زعيم ومؤمن حقيقي... وغير أناني!

وتُلمح السيرة الذاتية أيضًا إلى هذا الأمر وتشير، بين السطور، إلى أن منصب المؤلف القيادي لم يكن منصبًا خاليًا من المنافسة. يقول البنا عن افتتاح المسجد:

> **«وكان افتتاحه في حفل فخم دعي إليه الإخوان من الإسماعيلية ومن شبراخيت، وقد أجمع الإخوان على أن أكون الإمام في أول صلاة لهذا المسجد وصمموا على ذلك كما صمموا على أن يكون الافتتاح بيدي**

(*) يشير المؤلف هنا إلى رسالة بعنوان «**مذكرة في التعليم الديني**» من تأليف حسن البنا وأحمد السكري وحامد عسكرية. وقد صدرت، على الأرجح، في ربيع عام 1929. والرسالة هي عبارة عن مذكرة مرسلة إلى الملك فاروق، والأمراء، والحكومة، والأزهر، إلخ. وتتعلق الرسالة بالسياسات التعليمية، إذ تحث الجهات المختصة على زيادة جرعة التعليم الديني في المدارس المصرية. وفي الثلاثينيات من القرن الماضي، كانت هذه المسألة على الأرجح أهم قضية في برنامجهم حتى اندلاع ثورة فلسطين عام 1936. انظر ورقة يوهانس يانسن، «أولى رسائل حسن البنا»، **مجلة عالم الإسلام** (Die Welt des Islams)، مجلد 32، عدد 2، عام 1992، ص ص 254-258. (العيسى)

أيضًا قطعًا لأطماع الطامعين ممن لا يستحقون؛ ولكن الأستاذ أحمد السكّري، رئيس الإخوان بالمحمودية حينذاك، فاجأ الحاضرين بأن تقدم إلى شريط الباب فقطعه وأعلن الافتتاح، فقضى ذلك على آمال المترقبين وكان لطمة لهم يستحقونها، وفاجأتهم أنا في المحراب بتقديم الأخ الأستاذ الشيخ حامد عسكرية إلى صلاة أول فريضة في هذا المسجد اعترافًا بفضله في إنشائه والعمل على إتمام مشروعه، وقضي الأمر»[85].
[حرفيًا من كتاب «مذكرات الدعوة والداعية»، العيسى]

تقدم هذه الحكاية «صورة» البنا كزعيم مؤمن حقيقي وغير أناني ومتواضع وكريم، ويتم وصف منافسيه ضمنيًا كأفراد مغرورين ولا يتمتعون بتأييد شعبي حقيقي.

وكما ذكرنا آنفًا، قام الحاج الزملوط، الراعي المحلي للإخوان المسلمين بالإسماعيلية، بإجراء مراسم وضع حجر الأساس للمسجد. ولذلك، لم يقم البنا بتنفيذ أية أعمال علنية من النوع الذي يدل عادة على السلطة والقيادة في مشروع المسجد. وبحلول سبتمبر 1932، وُصِفَ البنا بالمرشد العام لجماعة الإخوان بكاملها، وكان قد حصل على تصريح بالثقة من أعيان الإسماعيلية والجمعية العامة للإخوان المسلمين يمكنه أن يعتمد عليه لتحقيق الزعامة التي ينشدها[86]. وعند تلك النقطة أصبح، بدون شك، زعيمًا بلا منازع. ولكن في الإسماعيلية لم ترفع الأحداث نفسها البنا بعد إلى منصب القيادة والمؤسس الوحيد الذي لا نزاع عليه. فكيف تمكن، رغم ذلك، من إيصال الرسالة الأساسية في سيرته بأنه كان المؤسس والناقل الأول للدعوة؟ لقد حققت السيرة الذاتية ذلك الهدف من خلال تقديم سرد درامي وعاطفي للغاية للحظة انطلاق الجماعة. يتذكر حسن البنا كيف جاء ستة من الذين تأثروا بتعاليمه ذات ليلة:

«... وفي ذي القعدة سنة 1347 هـ، مارس سنة 1928 م - فيما أذكر - زارني بالمنزل أولئك الإخوة الستة: حافظ عبد الحميد، أحمد الحصري، فؤاد إبراهيم، عبد الرحمن حسب الله، إسماعيل عز، زكي المغربي، وهم

من الذين تأثروا بالدروس والمحاضرات التي كنت ألقيها، وجلسوا يتحدثون إلي وفي صوتهم قوة، وفي عيونهم بريق، وعلى وجوههم سنا الإيمان والعزم، قالوا: لقد سمعنا ووعينا، وتأثرنا ولا ندري ما الطريق العملية إلى عزة الإسلام وخير المسلمين، ولقد سئمنا هذه الحياة: حياة الذلة والقيود، وها أنت ترى أن العرب والمسلمين في هذا البلد لا حظّ لهم من منزلة أو كرامة، وأنهم لا يعدون مرتبة الأجراء التابعين لهؤلاء الأجانب. ونحن لا نملك إلا هذه الدماء تجري حارة بالعزة في عروقنا، وهذه الأرواح تسري مشرقة بالإيمان والكرامة مع أنفسنا، وهذه الدراهم القليلة، من قوت أبنائنا، ولا نستطيع أن ندرك الطريق إلى العمل كما تدرك، أو نتعرف السبيل إلى خدمة الوطن والدين والأمة كما تعرف، وكل الذي نريده الآن أن نقدم لك ما نملك لنبرأ من التبعة بين يدي الله، وتكون أنت المسؤول بين يديه عنا وعما يجب أن نعمل. وكان لهذا القول المخلص أثره البالغ في نفسي، ولم أستطع أن أتنصل من حمل ما حملت، وهو ما أدعو إليه وما أعمل له، وما أحاول جمع الناس عليه، فقلت لهم في تأثر عميق: «شكر الله لكم وبارك هذه النية الصالحة، ووفقنا إلى عمل صالح، يرضي الله وينفع الناس، وعلينا العمل وعلى الله النجاح. فلنبايع الله على أن نكون لدعوة الإسلام جندًا، وفيها حياة الوطن وعزة الأمة!»[87]. [حرفيًا من كتاب «مذكرات الدعوة والداعية»، العيسى]

لقد تأثر البنا بعمق بإيمانهم والتزامهم، وعندئذ قال إنه يقبل عبء أن يكون قائدهم، وأطلق على الجماعة اسم «الإخوان المسلمون». **لقد كانت هذه الرواية «الرومانسية» عن التأسيس التاريخي لجماعة الإخوان المسلمين مقنعة للغاية. ونتج عن ذلك رفض أعضاء الجماعة، بشكل عام، رواية أحمد السكّري وأنصاره.** ومن خلال سيرته الذاتية، نجح البنا في إثارة بعض تلك المشاعر القوية، التي لم تؤثر في أعضاء جماعة الإخوان المسلمين فحسب؛ بل أثّرت في قطاعات أكبر من جيل الشباب الذين كانوا وقتها يتذوقون الجو الوطني لمصر ما بعد الحرب. لقد تماهوا بسهولة مع ما كتبه البنا في سيرته؛ مثل الشعور بأنهم لا يزيدون عن أجراء تابعين لهؤلاء الأجانب، والإحساس بعدم وجود كرامة ومكانة، ورغبة ملحة في استعادة شرف مصر ومجد الإسلام المندثر.

صّوَّرَ البنا نفسه في سيرته كزعيم يملك «وحده» معرفة طريق خلاص المسلمين، وأن «الثقة به وطاعته» سوف تؤديان إلى النجاح... واتخذت هذه الصورة شكلاً أكثر صلابة مع اِستِحداث فكرة «البيعة»!!!

تمنحنا رواية البنا عن تأسيس الإخوان أيضًا معرفة قيّمة عن تصوره للعلاقة بينه وبين أتباعه؛ فقد كلفه أتباعه بالقيادة «**لأننا لا نستطيع أن ندرك الطريق إلى العمل كما تدركه**». وعبر تكليفه بالمسؤولية الكاملة أرادوا: «**وكل الذي نريده الآن هو أن نقدم لك ما نملك لنبرأ من التبعة بين يدي الله، وتكون أنت المسؤول بين يديه عنا وعما يجب أن نعمل**». «**الصورة**» **التي ينقلها هذا المقطع هي للبنا الذي يملك** «**وحده**» **معرفة الطريق لخلاص المسلمين، وأن الثقة به وطاعته سوف تؤديان إلى النجاح. واتخذت هذه الصورة شكلاً أكثر صلابة مع اِستِحداث فكرة البيعة، أيْ يمين الولاء، التي أصبحت جزءًا لا يتجزأ من الحركة**[88].

ولا تعني «البيعة» نفسها بالضرورة ضمنيًا اعترافًا بالبنا كصاحب مهمة إلهية. ولكن، تقدم السيرة الذاتية تلميحات محددة في هذا الاتجاه، كأن تشير ضمنيًا إلى أن زعيم جماعة الإخوان المسلمين قد أُلهم عبر نوع من التدخل الإلهي. أحد الأمثلة على ذلك هو قصة في شبابه تنبأت بدعوته لخدمة ورفعة الإسلام؛ فقد قال له شيخ طائفته الصوفية، على سبيل المثال، ذات مرة: «**أستطيع أن أرى فيك علامات أن الله سيحول قلوب الناس إليك، وسينضم عدد كبير من الناس إلى رسالتك**»[89]. وبالمثل، يتذكر من طفولته أنه كان يقف:

«**في هذه اللحظة السحرية الشاعرة على نهر النيل وأصغي إلى الأذان ينطلق من حناجرهم في وقت واحد، إذ كانت المساجد على مسافات متقاربة في القرية، ويخطر ببالي أنني سأكون سببًا ليقظة هذا العدد من المصلين، وأن لي مثل ثوابهم مصادقة لقول الرسول ﷺ:** «**من دعا إلى هدىً فله أجره، وأجر من عمل به إلى يوم القيامة، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا**». **وكان يضاعف**

هذه السعادة أن أذهب بعد ذلك إلى المسجد فأرى نفسي أصغر الجالسين فيه، في هذا الوقت سنًّا، فأحمد الله وأسأله أن يديم التوفيق»[90]. **[حرفيًا من كتاب «مذكرات الدعوة والداعية»، العيسى]**

وعندما وصل لأول مرة إلى الإسماعيلية ليبدأ وظيفته الأولى مدرسًا في المرحلة الابتدائية، دعا الله: «اللهم ارزقني كل خير، ونجني من كل شر!» وكان يشعر في أعماق قلبه بأن قضيته في هذه البلدة ستكون مختلفة عن قضية سكان المدينة، القادمين والمغادرين، أو الزائرين العابرين[91]. وهناك أيضًا العديد من الحكايات عن مختلف المعجزات الصغيرة التي حدثت له، وكلها تؤكد المهمة الإلهية التي أنعم الله عليه بها[92].

غرس البنا في سيرته حكايات «خيالية» عن مؤامرات ضد البنا والجماعة... كي تبدو أزمة عام 1947 وكأنها حلقة أخرى في سلسلة متصلة من المؤامرات التي حيكت ضدهم منذ البداية!!

وتعززت «صورة» مماثلة لزعيم ذي إلهام إلهيّ يكافح في مواجهة الأشرار، أيضًا في سيرته الذاتية عبر حكايات «**خيالية**» كتبها عن «**مؤامرات**»(*) ضد الجماعة والبنا نفسه. فعندما بدأ بعض الناس في الإسماعيلية يزرعون بذور الكراهية والشك ضد الإخوان المسلمين، طمأن البنا أتباعه: من الواضح أننا نعمل حقًّا من أجل الإسلام؛ لأن الشائعات الكاذبة بدأت تنتشر ضدنا[93]. وتم تقديم تفسير لاهوتي أيضًا:

«ولكن دعوة الحق في كل زمان ومكان لا بد أن تجد لها من المعارضين والمناوئين من يقف في طريقها، ويعمل على معاكستها وإحباطها، ولكن النصر لها في النهاية، سنة الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ

(*) نكرر: يقول الناقد البروفيسور دانيال مندلسون (نقلًا عن الكاتب جيمس فَرَايْ): «... **كلما زاد «الادعاء» الدراماتيكي في السيرة الذاتية، زاد احتمال كون الحكاية «خيالية» ومبالغ فيها»!!** انظر الفصل الثالث: **عرض لكتاب «تاريخ كتب السيرة الذاتية»**، بقلم البروفيسور دانيال مندلسون، ص-183. **(العيسى)**

هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[94] **(الفرقان، 31) وهذا هو الذي تواجهه الدعوة الإسلامية بالإسماعيلية**[95]. **[حرفيًا من كتاب «مذكرات الدعوة والداعية»، العيسى]**

ولا نجد من الضروري تقديم معالجة مفصلة لجميع هذه المؤامرات حتى لا نستطرد كثيرًا. ولكن هناك نقطتان تستحقان الذكر:

أولًا، عبر هذا التركيز الواضح على المؤامرات والدسائس الشريرة التي تحاك ضد جماعة الإخوان في تلك المرحلة المبكرة بالفعل، عزز زعيم الجماعة «صورة» للحركة بأنها تواجه هجومًا متواصلًا من أشرار يسعون لتدميرها. ولذلك، بدت أزمة عام 1947 وكأنها مجرد حلقة أخرى في سلسلة متصلة من المكائد والمؤامرات التي حيكت ضدهم منذ البداية. وساهم «تصوير» الصراعات بشكل دسائس ومؤامرات على تعزيز وترسيخ سمة الإلهام الإلهي لدعوة الإخوان المسلمين بشكل ضمني؛ ما سهّل على البنا حرمان المعارضة من شرعيتها.

ثانيًا، والأهم في هذا السياق، هو أن نرى كيف استخدم المؤلف سرد حكايات عن الدسائس والمؤامرات لتفنيد الاتهامات الموجهة إلى الجماعة وقيادتها والسخرية منها في أواخر الأربعينيات، وهي اتهامات لم تبرز في مرحلة الإسماعيلية. وهذا يُظهر لنا مثالًا مثيرًا عن كيفية أن كاتب السيرة الذاتية لم يعد يكتفي بفرض «ترتيب الحاضر على الماضي»؛ ولكنه في الحقيقة ذهب إلى خطوة أبعد عندما بدأ يغرس أحداثا من حاضره في الماضي.

وتحت عنوان فرعي «**ضد النظام القائم**»، يصف البنا كيف زادت قوة المعارضة الداخلية بينما كانوا يبذلون جهودًا لاستكمال بناء المسجد. لقد قام هؤلاء الناس بعمل مكائد ودسائس شريرة تشمل، من بين أمور أخرى، إرسال عريضة إلى رئيس الوزراء صدقي باشا يتهمون حسن البنا بأنه شيوعي متصل بموسكو ويستمد المال من هناك؛ لأنه يبني مسجدًا ودارًا، ويصرف على جمعية ودعوة، ولا يكلف الناس مالًا فمن أين له هذا؟ وأبلغه مدير

مدرسته أنه سيستدعى إلى محكمة الجنايات؛ لأنه شيوعي يعمل «ضد النظام القائم وضد الملك وضد الدنيا كلها». وسخر حسن البنا من هذه الاتهامات قائلًا بالعامية المصرية: «فقلت: بس كده؟ الحمد لله رب العالمين»(*)[96].

وتقدم سيرته الذاتية حكاية أخرى عن قدوم اثنين من أشد الإخوان إخلاصًا دخلا على البنا وهما في حالة من الألم الشديد، وقالا: «**إن في البلد شائعة قوية ضدنا، إذ يقولون إنك تقول لنا في دروسك اعبدوني من دون الله، وإن الإخوان المسلمين يعتقدون بناء على هذا أن الشيخ البنا إله يعبد وليس بشرًا ولا نبيًّا ولا وليًّا ولا شيخًا. ولقد تحرينا مصدر الشائعة قبل أن نحضر إليك، فعرفنا أن الذي يذيع هذا شيخ عالم يشغل منصبًا دينيًا**»[97]. **[حرفيًا من كتاب «مذكرات الدعوة والداعية»، العيسى]**.

كما حكى البنا عن مؤامرة قيام الانفصاليين بنشر شائعات تقول إنه سَحَرَ أتباعه كي يوافقوه على كل ما يعمل بدون تفكير[98]. وبجانب هذه المزاعم العجيبة والغريبة للغاية، تضيف السيرة الذاتية إلى السردية شائعات عن قيام الجماعة بـ «**نشاطات سرية**». ومن الواضح أن هذا أول تلميح عن انبثاق «**الجهاز السري**» للإخوان في منتصف الأربعينيات[99].

ولا يستطيع المرء أن ينكر تمامًا وجود مثل هذه المؤامرات والدسائس والترويج للشائعات المناهضة لجماعة الإخوان المسلمين؛ ولكننا لا نجد أيّ أثر لها في المصادر الجديدة المتاحة من ذلك الزمن، على الرغم من الخطورة الشديدة لبعض تلك الاتهامات. فعلى سبيل المثال، اتخذت قضية التحقيق الغامضة مع البنا شكل زيارة عادية من قبل المفتش العام للتربية والتعليم في رسائل البنا إلى والده. وبدلًا من استدعاء زعيم الجماعة إلى محكمة الجنايات، هنأه مدير المدرسة بخصوص إكمال وافتتاح مدرسة

(*) نكرر: يقول الناقد البروفيسور دانيال مندلسون (نقلًا عن الكاتب جيمس فَرَايْ): «... **كلما زاد «الادعاء» الدراماتيكي في السيرة الذاتية، زاد احتمال كون الحكاية «خيالية» ومبالغ فيها»**!! انظر الفصل الثالث: **عرض لكتاب «تاريخ كتب السيرة الذاتية»**، بقلم البروفيسور دانيال مندلسون، ص-183. **(العيسى)**

ومسجد جماعة الإخوان المسلمين[100]. **«المؤامرة الوحيدة» التي عثرنا عليها في مراسلاته العائلية هي «صراعه الشخصي مع مديره»!!** وفي مقال نُشر في مجلة الفتح، أشاد البنا بالتشجيع الذي تلقاه من سكان الإسماعيلية[101]. واشتكى تقرير الانفصاليين، عام 1932، فقط من سوء الإدارة المالية وأسلوب البنا الاستبدادي في القيادة. ووفقًا لذلك التقرير، لم يكن أتباع البنا يطيعونه طاعة عمياء؛ بل، على العكس من ذلك، قيل إنه لجأ إلى تهديدات وحلف أيمان ليصدّقه أتباعه ويفرض إرادته[102]. وكان هذا التقرير الضعيف نسبيًا خاليًا تمامًا من التفاصيل المثيرة التي نجدها في سيرته الذاتية. ولا نعثر في المصادر الجديدة على إشارات إلى أنشطة سرية، أو سحر، أو عبادة شخصية البنا أو علاقات مع موسكو مطلقًا. ولذلك، يمكننا القول بثقة إن الانفصاليين عام 1932 كان ينبغي عليهم، على الأقل، ذكر بعض هذه الأحداث الخطيرة في تقريرهم لو كانت قد حدثت حقًّا!!

ولذلك، لدينا سبب كافٍ لأن نجزم بأن حكايات المؤامرات المتتالية هي على الأقل «خيالية» جزئيًا؛ ولكنها تنسجم بشكل أفضل مع وضع الجماعة في النصف الثاني من الأربعينيات. ففي ذروة شعبيته في سنوات ما بعد الحرب، قال أحمد حسين، زعيم حزب مصر الفتاة، إن «**حسن البنا يُعبد من قبل بعض أتباعه**»[103]. وتحمل حكاية صدقي بعض التشابه مع التآمر المثير للجدل بين الجماعة ونظام صدقي بعد الحرب[104]. كما تشبه الاتهامات حول الأنشطة السرية والتخطيط «ضد النظام القائم وضد الملك وضد الدنيا كلها» الشكوك السائدة في سنوات ما بعد الحرب مباشرة، ويشير اكتشاف جناحها المسلح إلى أن الجماعة ربما كانت تخطط سرًّا بالفعل للإطاحة بالنظام الملكي[105]. وأخيرًا، كانت الاتهامات المدهشة، التي لا تكاد تصدق، عن وجود تعاطف مع الشيوعية أيضًا جزءًا من دوامة الدعاية والنميمة السياسية في أواخر الأربعينيات[106]. **ويبدو لنا بوضوح وبشكل مؤكد أن زعيم الإخوان قد «أضاف» هذه «الحكايات» إلى مذكراته كما تضاف التوابل والبهارات إلى الطعام لتزيد من لذته**. وهكذا، قدّم نسخة «خيالية وليست تاريخية» لتاريخ جماعة الإخوان المسلمين المبكر. وعبر غرس هذه

التهم والمؤامرات في سياق مرحلة الإسماعيلية، بدلًا من سياقها التاريخي الحقيقي المناسب، استطاع البنا أن يسخر بسهولة من هذه الاتهامات ويكشف سخافتها، مع تجنب المناقشة الموضوعية للقضايا الجادة!!!

كتب البنا سيرته الذاتية، على الأرجح... للرد على التحدي الذي شكله السكّري لقيادته عام 1947!!

لقد كان أحمد السكّري، النائب الأول لرئيس الإخوان المسلمين حتى عام 1947، شخصيةً رئيسةً في أزمة عام 1947 الداخلية. وكتب البنا سيرته الذاتية، على الأرجح، للرد على التحدي الذي شكله السكّري لقيادته. وعلى الرغم من أن السكّري لعب دورًا مهمًّا خلال السنوات القليلة الأولى للجماعة، فإنه كان مجهولًا نسبيًا خلال معظم عقد الثلاثينيات حتى عام 1939 عندما انتقل إلى القاهرة. وبعد وصوله إلى القاهرة، عيّنه البنا نائبًا أوّل له وجعله مسؤولًا عن إدارة معظم الشؤون السياسية والإدارية للجماعة؛ ما سمح للبنا بأن يركز جهوده على الإرشاد الروحي والتعليم. وبرزت بسرعة مؤشرات عن وجود تصورات مختلفة بينهما لموقف الجماعة السياسي نتج عنه احتكاك أدى في النهاية إلى اندلاع أزمة 1947، وفُصل السكّري من الجماعة[(107)]. لقد تحدى السكّري فقط هيمنة البنا السياسية، وليس دوره كمرشد روحي؛ ولكن تصور البنا لدوره كقائد ومرشد عام لم يكن يسمح مطلقًا بأي تفويض أو تقاسم للسلطة معه في الجماعة. وفي نهاية السيرة الذاتية، نجد فقرة موجهة إلى «**هذا الأخ من المحمودية**» (الذي لا يمكن أن يكون هناك خلاف على أنه أحمد السكّري): «أعرف أن النفس التي أحملها بين جنبي هي نفس علم الله فيها بعلمه السابق الأزلي أنها تضطرم غيرة وتتفتت حسرة وأسًى على ما أصاب الإسلام وأهله»[(108)]. كان تصور البنا لنفسه كمرشد روحي والعلاقة الشخصية-الروحية التي أقامها مع أتباعه بدون شك مصدرًا رئيسًا لقوة الجماعة؛ ولكن، كما سنرى، ربما ساهم ذلك التصور أيضًا في سقوط الجماعة عام 1949.

يعد وصف البنا علاقته مع السكّري في مذكراته مثيرًا للاهتمام في ضوء أزمة 1947. ففي مذكراته، كانت صداقتهما موضوعًا رئيسًا منذ أول لقاء بينهما في حلقة الذكر التابعة للطريقة الحصافية. ويصف المؤلف مدى عمق تعلقه بصديقه: «**لقد كانت الصداقة بيني وبين الأخ أحمد أفندي السكّري قد توثقت أواصرها إلى درجة أن أحدنا ما كان يصبر أن يغيب عن الآخر هذه الفترة أسبوعًا كاملًا دون لقاء**»[109]، ويضيف أن تلك العلاقة كانت «**علاقة أخوة ومحبة وصحبة في عبادة الله**»[110]. وعندما انتقل البنا إلى القاهرة للدراسة في **دار العلوم** كان الشيء الوحيد الذي يقلقه: «**هو الشعور بطول الغيبة عن المحمودية، وفيها الصديق «الحميم»، والأخ «الحبيب» أحمد أفندي السكّري**»[111]. وتركز المذكرات، في المقام الأول، على الجانب العاطفي القوي من العلاقة بينهما.

سلسلة «متعمدة» من حالات «السهو والإغفال» في سيرة البنا للتقليل من دور السكّري في جماعة الإخوان المسلمين!!

وبعد تأسيس جماعة الإخوان المسلمين، لا نجد في السيرة عمليًا أية إشارة إلى دور السكّري كزعيم لفرع جماعة الإخوان في المحمودية؛ بينما أشارت السيرة إلى فروع أخرى للجماعة وأعطتها بعض الاهتمام![112] **ولم يُكْرِمْ أو يجامل البنا صديقه السكّري «الحميم والحبيب» (كما وصفه في مذكراته) بذكر ولو «حكاية» واحدة كالحكايات التي رواها البنا بكل أريحية لتأكيد فضائل جيل الجماعة الأول! ولم يشر تحديدًا إلى رسالة ألّفاها معًا وصدرت عام 1929، وكانت على الأرجح «أول» مطبوعة إخوانية!!**[113] **ويشار إلى هذه الرسالة في مراجع عديدة باعتبارها حدثًا مهمًا في تاريخ الجماعة**[114]. **ولا تشير السيرة كذلك إلى أن البنا والسكّري ألقيا أول خطبهما معًا في جمعية الشبان المسلمين، بمناسبة حلول السنة الهجرية الجديدة عام 1929! ونُشرت كلتا الخطبتين في مجلة الفتح السلفية**[115]. **ويذكر البنا هذا الحدث في مذكراته؛ ولكنه «لا يشير مطلقًا إلى السكّري»!**[116] ومقابل هذه السلسلة من

حالات السهو والإغفال التي تبدو «متعمدة»، تمنح السيرة للجزء العاطفي بين البنا والسكّري الكثير من الاهتمام، وهو أمر مستغرب حقًّا**!!** ويصل الأمر بالبنا إلى الزعم بأنه كتب موضوعًا في مادة الإنشاء في **دار العلوم** جاء فيه: «**وأعتقد كذلك أن النفس الإنسانية محبة بطبعها، وأنه لا بد من جهة تصرف إليها عاطفة حبها، فلم أر أحدًا أولى بعاطفة حبي من صديق امتزجت روحه بروحي فأوليته محبتي، وآثرته بصداقتي» (...) ويضيف البنا: «الصديق الذي أشرت إليه في هذا الموضوع هو الأستاذ أحمد السكّري، الذي كان يبادلني هذا الشعور»!!**[117] **[حرفيًا من كتاب «مذكرات الدعوة والداعية»، العيسى]**

تُرى: لماذا يوجد مثل هذا التضارب بين «صور» السكّري كأعز وأقرب صديق للبنا من جهة، والسكّري كقيادي في الجماعة من جهة أخرى؟! يبدو مجددًا أن أزمة 1947 تقدم الإجابة!!

فمن خلال تأكيد البنا حبَّه ومودّته لصديقه السكّري مع تعمد التقليل من مساهماته الفعلية في قضية الإخوان، تمكن البنا من تصوير معارضة السكّري له عام 1947 كـعملية «خيانة وغدر» للبنا و«تنكر» لصداقة طويلة بينهما!! وبالتركيز حصريًا على الجوانب العاطفية والوجدانية، يتحوّل صراع عام 1947 من مطلب إصلاحي عقلاني مشروع لتغيير السياسة وتقسيم السلطات بشكل عادل داخل جماعة الإخوان المسلمين إلى مسألة «إخلاص وخيانة»!!

وفي العديد من الفقرات التي وصفت إحباطهم من الانفصال، تبدو كلمات البنا، من نواحٍ عديدة، تنطبق أكثر على جهود المصالحة خلال أزمة عام 1947 أكثر من أيِّ شيء آخر:

> **«ولم يكن ينقص على اجتماع شمل الأسرة على هذه الصورة إلا عاطفة قوية جياشة، هي عاطفة الأخوة والمحبة والصحبة في الله بيني وبين الأخ أحمد أفندي السكّري؛ فقد كنا نتعزى عن هذه الفرقة بأيام الإجازات وبأن مصيرنا في النهاية إلى بلد واحد. وأما الآن ونحن نواجه وضعًا جديدًا، فقد يكون من شأنه ألا أعود إلى المحمودية إلا أن يشاء الله، فذلك أمر له في أنفسنا خطورته يجب أن نطيل التفكير فيه، وأن نتغلب عليه بكل**

الوسائل. فقد كانت لنا اجتماعات وليال وأحاديث وجلسات طوال حول هذا المعنى: إن أحمد تاجر، والتاجر لا وطن له، فلماذا لا ينتقل هو الآخر إلى القاهرة؛ ولكن أسرته ما يصنع بها هي لا تريد الانتقال ولا تسمح ظروفها به فما العمل؟ فكرنا طويلاً ثم انتهينا إلى أن نتخذ من هذه السنة تجربة نرى بعدها ما سيكون»(118). [حرفيًا من كتاب «مذكرات الدعوة والداعية»، العيسى]

وفي نهاية السيرة الذاتية، كانت انتقادات البنا للسكري أقل غموضًا، وأفسح النص الخيالي المجال للنقد المباشر للسكري بدون ذكر اسمه مطلقًا. وعندها بدت آمال المصالحة قد ولّت. وكان الكلام موجهًا إلى أحمد السكّري وأنصاره:

«حضر إليّ اليوم (...) و(...) من المحمودية. وتكلمنا كلامًا كثيرًا عن فروع جماعة الإخوان المسلمين. (...) وباختصار، قلت إن فرعي جمعية الإخوان المسلمين بالمحمودية وشبراخيت سوف لا تنفع كثيرًا؛ لأنها أنشئت بغير أسلوبي، ولا ينفع في بناء الدعوة إلا ما بنيت بنفسي وبجهود الإخوان الحقيقيين. (...) إنه [السكّري] قائد موهوب؛ ولكنه منصرف بهذه القيادة وهذه المواهب إلى السفاسف، مسرف في وقته لا يقدر له قيمة، قلبه مملوء بأوهام لا حقيقة لها ومنصرف إلى ناحية لا تثمر إلا العناء؟ فالاعتماد عليه ضرب من المخاطرة العقيمة»(119). [حرفيًا من كتاب «مذكرات الدعوة والداعية»، العيسى]

معضلة القيادة الاستبدادية: كان البنا يعتبر حركة الإخوان بمثابة «حركته الشخصية» ودعوتها بمثابة «دعوته الشخصية»!!!

يختتم البنا مذكراته قائلًا: «وأمثال هؤلاء يريدون تحويل الدعوة وتشكيلها بشكل دعواتهم وذلك ما لا أريده»(120). فبعد أكثر من عشرين عامًا من الحملات المستمرة والوعظ والترحال، كان البنا، لا عجب، يعتبر حركة الإخوان بمثابة حركته «الشخصية» ودعوتها بمثابة دعوته «الشخصية». **ولسوء الحظ، كان المرشد العام مترددًا جدًّا في قبول الدمقرطة الضرورية وتقسيم**

السلطة(*) المطلوب للسيطرة على عناصر جامحة في الجماعة، وخصوصا الأعضاء الشباب في «الجهاز السري».

كان من المؤكد أن ينتج عن تقسيم السلطة بين العناصر المعتدلة في الجماعة «منع وتجنب» تسارع دائرة العنف السياسي، التي أدت إلى حل الجماعة في عام 1948، ثم اغتيال البنا في عام 1949!!

لقد أدى طرد أحمد السكّري وإبراهيم حسن إلى خلق أزمة قيادة في الحركة شلّت الفرع المدني للجماعة، وأدت إلى الاعتماد المؤسف على الجناح العسكري وزعيمه سيئ الصيت عبد الرحمن السَنَدِي[121]. لقد كان البنا، منذ أول اشتباكات له مع الشرطة واعتقاله شخصيا في الإسماعيلية عام 1938، يبذل دائمًا قصارى جهده لكبح أتباعه. وفي بعض الأحيان، أدت سياسته إلى تجنب المواجهات مع الحكومة إلى تشكيك بعض أتباعه في شجاعته الشخصية[122]. وكان عدد أعضاء الجماعة، خلال الفترة 1947-1948، ربما 500,000 فرد؛ منهم آلاف عديدة في الجناح العسكري. ولم يكن البنا، على الأرجح، قادرًا على السيطرة على جميع هؤلاء الرجال وحده. وكان من شبه المؤكد أن ينتج عن تقسيم السلطة بين العناصر المعتدلة في الجناح المدني للجماعة «**منع وتجنب**» تسارع دائرة العنف السياسي، التي أدت إلى حل جماعة الإخوان المسلمين في ديسمبر 1948، ثم اغتيال(**)

(*) تشير الباحثة الإسبانية آنا بيلين سواج، وهي أستاذة العلوم السياسية ودراسات الشرق الأوسط في جامعة «سافك» الأميركية في بوسطن (حَرَم مدريد) إلى أن المؤرخ والمفكر والقاضي طارق البشري (رحمه الله) أشار في طبعة عام 1972 من كتابه **الحركة السياسية في مصر 1945-1952**، إلى التزمت والاستبداد داخل جماعة الإخوان مؤكدًا أنها تفرض على أعضائها «**كيف يتكلمون وكيف يضحكون**»! وجادل أن ذلك يهدف إلى إلغاء شخصياتهم الفردية! وتضيف سواج: لقد كتب البشري ذلك عندما كان يساريا، أيْ قبل تحوله لاحقًا إلى الإسلاموية. ومن ثم، قام بتنقيح الكتاب لحذف تلك الإشارة النقدية وغيرها، إذ صدرت طبعة منقحة بالكامل عام 1983 عن دار الشروق. (العيسى)

(**) **بخصوص اغتيال حسن البنا في 12 فبراير 1949، أجد من المناسب ذكر هذه المعلومات لنسف خرافة شهيرة لا تنسجم مع العقل ولا المنطق ولا الذوق السليم (COMMON SENSE)!!** =

زعيمها في 12 فبراير 1949. لقد منع تشكك وارتياب البنا تجاه المنافسين المحتملين تفويض وتقسيم السلطة داخل الجماعة. وتعكس السطور الأخيرة في سيرته الذاتية معضلته:

«في هذا اليوم تحدث إليّ (...) و(...) بخصوص نظام مجلس الإدارة. هؤلاء الناس لم يفهموا بعد دعوة الإخوان المسلمين، وقليلون هم أولئك الذين يستطيعون النهوض بأعباء إدارتها وتنفيذ منهجها الواسع. إنني أتمنى أن يكون إلى جانبي رجال يفهمون ويديرون، فأسلم إليهم هذا العمل وأرتاح بهم قليلاً وأطمئن إلى مقدرتهم ولكن أين هم؟ إن الكثيرين لا يفهمون من مجلس الإدارة إلا كلمة العضوية، فهم يتنافسون على حيازتها، وتقع بها بينهم العداوة والبغضاء. سيتبع التغيير المنتظر ضجة هي كالسراب يلوح ثم يزول بمجرد الوصول إليه. فاللهم إن كنت تعلم حسن القصد وخلوص النية فوفق، وإن كان غير ذلك فاسلك بنا سبيل عبادك المخلصين آمين»(123). [حرفيًا من كتاب «مذكرات الدعوة والداعية»، العيسى]

= يقول سيد قطب في أحد كتبه: كنت أكره دعوة الإخوان المسلمين، وأرسلتني الحكومة المصرية إلى أمريكا سنة 1948 لدراسة المناهج، إذ كنت مفتشًا في وزارة المعارف، وهناك حدثت لي قضية شدّت ناظري ولفتت انتباهي، وهي أنني في الـ13 من فبراير سنة 1949 كنت نزيلًا في مستشفى من المستشفيات الأمريكية فظهرت معالم الزينة والأفراح في المستشفى، فسألت أحد الممرضين: أي عيد هذا الذي تحتفلون به؟ قال الممرض وببساطة ومن دون تفكير: اليوم قُتل عدو أمريكا الأكبر في الشرق، اليوم قُتل حسن البنا! قال سيد قطب: هذه الكلمة هزّت السرير تحتي وجعلتني أنتبه، «لا يمكن لإنسان يكيد له العالم هذا الكيد إلا أن يكون على حق»!! ونقول: لقد اغتيل البنا في 12 فبراير 1949، ونشرت الصحف المصرية بالتأكيد الخبر في اليوم التالي؛ 13 فبراير. ولكن المفارقة المدهشة هي أن الممرضين والأطباء الأمريكان في ذلك المستشفى «لم» يكونوا يحتفلون في 13 فبراير ابتهاجًا بمقتل البنا كما «توهّم» سيد قطب، بل كانوا، ببساطة، «يستعدون» للاحتفال كعادتهم السنوية بـ «يوم الفالنتين» (**Valentine's Day**)، **أي «عيد الحب» الذي يوافق 14 فبراير!! ولعل الأمر التبس على سيد قطب بسبب عدم إتقانه اللغة الإنكليزية، ولعل الممرض لم يفهم سؤال قطب فنقل له خبر مقتل البنا بالخطأ. والله أعلم! (العيسى)**

النتيجة

تعدّ سيرة حسن البنا الذاتية «**مذكرات الدعوة والداعية**» واحدًا من المصادر الأولية الرئيسة عن تاريخ جماعة الإخوان المسلمين المبكر، ولكنها غير مفهومة جيّدًا. وكما نثبت في هذه الورقة، لم تكتب هذه السيرة بشكل تقليدي، أيْ كمذكرات كتبت في الحاضر لتصف الماضي بأثر رجعي؛ ولكن كُتبت في قلب معركة داخلية ساخنة لهدف محدد وهو نزع شرعية المعارضة الداخلية لزعامة البنا خلال واحدة من أكثر الأزمات خطورة في تاريخ الجماعة المبكر. تسلط المذكرات الضوء على سمات البنا القيادية النوعية، عن طريق خلق سلسلة من «الحكايات» من طفولته وشبابه تقدّم «صورًا وسمات» إيجابية محددة عن شخصيته. وتشمل هذه «الصور والسمات»: تديّنه العميق، وزهده، وتضحياته، ومساعيه الوطنية المناهضة للإمبريالية، واستعداده لتحدي السلطات وكبار المسؤولين، وتعلقه العاطفي بأنصاره، وبالطبع تفانيه في مهمته الإلهية. وإذا كانت هذه السمات «**التبجيلية والتمجيدية**» التي تنتمي إلى أدب القداسة شائعة وتماثل ما نجده في النوع الأدبي المعروف بـ «**السِّيرة التقديسيّة**» (**هاغيوغرافي، Hagiography**)، فإن كتاب البنا يتميز عنها باستخدام «**حكايات خيالية**» ونقل (تبديل موضع) الأحداث من فترة إلى أخرى. وكما بينّا، لا يمكن فهم هذه السيرة الذاتية دون فحص وبحث هذه الجوانب الروائية «**الخيالية**»، حيث تُعاد كتابة الأحداث والقضايا المتصلة بأزمة 1947 ومن ثم تغيير موضعها عبر غرسها في سردية تاريخ الجماعة «المبكر». **وبهذه الطريقة، نجح البنا في مواجهة خصومه خلال أزمة 1947، وفنّد حججهم وتحديهم لقيادته من دون الحاجة إلى مناقشة عقلانية لمطالبهم الإصلاحية وبدون التعامل بجدية مع المعضلات السياسية الصعبة والخطرة التي كانت تواجه جماعة الإخوان المسلمين، خاصة بعد توسعها الهائل خلال الأزمة المتصاعدة في مصر أثناء فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية!!**

انتهت الدراسة

المراجع

أبو النصر، محمد حامد. **حقيقة الخلاف بين الإخوان المسلمين وعبد الناصر،** 1987، المطبعة الدولية، القاهرة.

أحمد، محمد حسن [اسم مستعار]. بدون تاريخ ولكن تقريبًا عام 1946، **الإخوان المسلمون في الميزان،** مطبعة الإخاء، القاهرة.

ألكسندر، مارك. 1952. «اليسار واليمين في مصر»، في كتاب **القرن العشرين**، رقم 151، فبراير 1952، 119–128.

أوريل، دان (محرر). 1988. **القوى العظمى في الشرق الأوسط 1919–1939.** هولمز آند ماير للنشر، لندن، نيويورك.

باقوري، أحمد حسن. 1988. **بقايا الذكريات.** مركز الأهرام للنشر والترجمة، القاهرة.

براغرتر، أليسون. 2010. **الإخوان المسلمون: عبء التقاليد.** الساقي للنشر، لندن.

بنا، حسن. 1986 (طبعة 1950 تقريبًا). **مذكرات الدعوة والداعية.** دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة. (الطبعة الأولى الكاملة، القاهرة، 1950).

بنا، حسن؛ سكري، أحمد؛ عسكرية، حامد. عام 1929 (1347 هـ). «مذكّرة في التعليم الديني» (مذكرة مرسلة إلى ملك مصر، والأمراء، ورئيس الوزراء، والوزراء، أعيان الأزهر، إلخ).

بنا، جمال. 1990. **خطابات حسن البنا الشاب إلى أبيه.** دار الفكر الإسلامي، القاهرة.

تلمساني، عمر. 1985. **ذكريات... لا مذكّرات.** دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة.

تومسون، إليزابيث ف. 2013. فصل بعنوان «حسن البنا: سعي الإخوان المسلمين لتحقيق العدالة الإسلامية». في كتاب **انقطاع العدالة: النضال من أجل الحكم الدستوري في الشرق الأوسط،** لندن، قسم النشر بجامعة هارفارد، 2013، ص ص 150–176.

جريدة الإخوان المسلمين. مجلدات الفترة: يونيو 1933–فبراير 1938.

جريدة النذير (مطبوعة إخوانية). مجلدات الفترة: مايو 1938– يناير 1940.

جندى، أحمد أنور. 1946. **حسن البنا: حياة الرجل وتاريخ المدرسة**. دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة.

حسين، أحمد. 1938. «نحن والجمعيات الدينية». جريدة مصر الفتاة، رقم 77، 20 أكتوبر 1938.

رسائل الإخوان المسلمين: **المنهج** (وثيقة إخوانية). رجب 1357 هـ (1938 م).

زونيس، مارفن. 1991. «السير الذاتية والتراجم في الشرق الأوسط: التماس للقيام بدراسات نفسية–سياسية». في: كريمر (محرر)، 1991، ص ص 60–88.

ساير، روبرت ف. 1964. **الذات المفحوصة.** قسم النشر بجامعة برينستون، برينستون.

سِرِّيَّة، إليزابيث. 2000. «سيرة رشيد رضا الذاتية في السنوات السورية، 1865–1897». مجلة الآداب العربية والشرق أوسطية، مجلد 3، عدد 2، ص ص 179–194.

سيسي، عباس. 1987. **في قافلة الإخوان المسلمين**، ط-2، دار الطباعة والنشر والصوتيات، الإسكندرية.

شُعَيِّرْ، محمد فتحي علي. 1985. **وسائل الإعلام المطبوعة في دعوة الإخوان المسلمين**، دار المجتمع للنشر والتوزيع، جدة.

شوالم، هيلغا. 2014. «السيرة الذاتية». في هون وآخرون، بدون تاريخ.

شوسكي، سيرجي أ. 1982. «بعض الملاحظات على كتب السيرة الذاتية العربية الحديثة». مجلة الأدب العربي، مجلد 13، ص ص 111-123.

عباس، رؤوف. 1985. «الإخوان المسلمون والإنجليز». مجلة فكر للدراسات والأبحاث، 8 ديسمبر 1985، ص ص 144-158.

عبد الحليم، محمود. 1979. **الإخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ**، المجلد 1، دار الدعوة، الإسكندرية.

علي، عبد الله يوسف. (بدون تاريخ). **ترجمة معاني القرآن الكريم** (بالإنكليزية). دار الفكر، بيروت.

عويسي، عبد الفتاح م. 2000. «التربية الجهادية وجمعية الإخوان المسلمين المصرية: 1928-1949». مجلة المعتقدات والقيم، مجلد 21، رقم 2، عام 2000، ص ص 213-225.

غيرشوني، إسرائيل. 1988. «رفض الغرب: صورة الغرب في تعاليم الإخوان المسلمين 1928-1939». في كتاب أوريل دان (محرر)، **القوى العظمى في الشرق الأوسط 1919-1939**. نيويورك، هولمز وماير للنشر، ص ص 370-390.

كريمر، مارتن (محرر). 1991. **حيوات شرق أوسطية: كتابة السير الذاتية والتراجم**. قسم النشر بجامعة سيراكيوز. سيراكيوز، نيويورك.

لِيًّا، برينيار. 1998. **جماعة الإخوان المسلمين في مصر: صعود حركة جماهيرية إسلامية 1928-1942**. إيثاكا للنشر، ريدنغ (مدينة)، بريطانيا.

ليجون، فيليب. 1996. **ميثاق السيرة الذاتية** (بالفرنسية)، ط-2. سويل للنشر، باريس.

ماير، رويل؛ بيكر، إدوين (محرران). 2012: **الإخوان المسلمون في أوروبا**. هيرست للنشر، لندن.

مجلة التعارف (مطبوعة إخوانية). فبراير 1940-يوليو 1940.

مجلة الفتح. مجلدات الفترة: 1928-1932.

مطعني، عبد العظيم إبراهيم. 1979. **19 رسالة من حسن البنا إلى قيادات الدعوة الإسلامية**. دار الأنصار، القاهرة.

مورا، أندريا. 2012. «فحص شجرة نسب الإسلاموية المبكرة: خطاب حسن البنا أنموذجًا». مجلة الأيديولوجيات السياسية، مجلد 17، عدد 1، ص ص 61-85.

ميتشل، ريتشارد بول. 1993. **جمعية الإخوان المسلمين**. قسم النشر بجامعة أكسفورد، لندن.

هاريس، كريستينا فيلبس. 1964. **الوطنية والثورة في مصر: دور الإخوان المسلمين.** قسم النشر بمعهد هوفر، جامعة ستانفورد، كاليفورنيا.

هون، بيتر؛ وآخرون. (محررون)، **الدليل الحي لعلم السرد.** جامعة هامبورغ، هامبورغ.

هيورث-دن، جيمس. 1950. **الاتجاهات الدينية والسياسية في مصر الحديثة.** إصدار خاص، القاهرة. مجلة الاعتصام، مايو 1976.

وزارة الخارجية البريطانية. 1942. «إعادة نظر في الإخوان المسلمين». تقرير سري، (FO 141/ 838)، 10 ديسمبر.

ويكهام، كاري روفسكي. 2012. «ماذا سيفعل حسن البنا لو كان بيننا؟ إعادة تفسير عصرية لخطاب الإخوان التأسيسي». في ماير وباكر (محرران)، ص ص 241-248.

وينتروب، كارل ج. 1975. «السيرة الذاتية والوعي التاريخي». مجلة كريتيكال إنكوري، عدد 1، ص ص 824-827.

يانسن، يوهانس. 1992. «أولى رسائل حسن البنا». مجلة عالم الإسلام. مجلد 32، عدد 2، ص ص 254-258.

يوسف، مصطفى. 1932. «تقرير مرفوع للرأي العام الإسلامي مبينًا فيه أعمال رئيس جمعية الإخوان المسلمين». المطبعة الحديثة بالزقازيق.

الهوامش

(1) كان الاسم الرسمي الأول للإخوان المسلمين هو **جمعية الإخوان المسلمين**. وكان مصطلح «جمعية» شائع الاستخدام من قبل الجمعيات الخيرية الإسلامية في ذلك الوقت؛ **ولكن بحلول منتصف الثلاثينيات ومع تسيس الحركة تدريجيًا، تم استعمال مصطلح «جماعة الإخوان المسلمين»**.

(2) الاستثناء الجزئي الوحيد هو عمل برينيار لِيًّا، عام 1998.

(3) أشار ريتشارد ب. ميتشل، في بحثه المبتكر والمرجعي عن الإخوان المسلمين عام 1969، إلى أنه «لسوء الحظ، لا توجد مصادر نقدية، على حد علمنا، لمقارنة هذه السيرة الذاتية بها». ميتشل 1993، ص 1.

(4) نشر جمال البنا، عام 1990، نسخًا محررة للرسائل التي أرسلها حسن البنا إلى والده بين 1923-1941. وفي الآونة الأخيرة، قامت جماعة الإخوان المسلمين برقمنة وإصدار عدد من المجلات المبكرة الخاصة بالإخوان المسلمين ومواد أولية أخرى على موقع (ikhwanwiki.com) الخاص بهم.

(5) انظر يوسف 1932. مصدر آخر متاح هو مذكرة من تأليف البنا/سكّري/عسكرية 1929، وهي مذكرة أرسلت إلى ملك مصر، والأمراء، ورئيس الوزراء، والوزراء، وأعيان الأزهر، إلخ. انظر أيضًا شُعيِّر. 1985. ص ص 192-197، حيث يمكن العثور على قائمة شبه كاملة لمطبوعات ومقالات الإخوان في مجلة «الفتح» السلفية خلال الفترة 1928-1932. كما يمكن العثور على مذكرات أحد المؤسسين، عبد الرحمن حسب الله، في مجلة الاعتصام، مايو 1976. وتقدم **جريدة الإخوان المسلمين** (من مايو 1933) أيضًا لمحة مهمة عن التاريخ المبكر لجماعة الإخوان المسلمين.

(6) انظر: لِيًّا، 1998، ص ص 21-43. وعلى الرغم من أن عددًا من الدراسات الحديثة تناولت جوانب من تاريخ الإخوان المسلمين قبل الثورة، فإنها لم تتمم دراسات ميتشل 1993 ولِيًّا 1998 عن تأسيس الجمعية عام 1928 وتوسعها خلال الثلاثينيات. انظر على سبيل المثال ويكهام 2012؛ وبراغتر 2010: 15-60؛ طومسون 2013: 150-176؛ العويسي 2000؛ مورا 2012.

(7) ساير 1964. الكتابات حول نظرية السيرة الذاتية كثيرة ومتشعبة. ويعد عمل لوجن 1996 مرجعًا رئيسًا. راجع أيضًا المراجعة الأدبية الممتازة لشوالم 2014. أما بالنسبة إلى السير الذاتية في الشرق الأوسط، فإن أعمال شوسكي 1982 وسرِّيَّة 2000 وكريمر 1991 تعد مفيدة. وبالنسبة إلى هذه الورقة، اخترت الاعتماد على ساير بسبب مناقشته لخلق الصور الذاتية في جنس السيرة الذاتية.

(8) جميع الاقتباسات من ساير 1964. ص x.

(9) زونيس 1991 ص 63. وانظر أيضًا وينتروب 1975: 824-827.

(10) لم أتمكن من مقارنة الجزء الأول من المذكرات بالنسخة الأصلية من جريدة الإخوان المسلمين عام 1947، لأن الصحيفة لم تكن متوفرة في مكتب الأرشيف الوطني المصري أثناء فترة البحث. سنستخدم هنا طبعة **مذكرات الدعوة والداعية** (القاهرة: دار الطباعة والنشر الإسلامية، 1986). لقد قارنت هذه الطبعة بأول طبعة كاملة نشرت في القاهرة، بدون تاريخ؛ ولكن على الأرجح يعود تاريخها تقريبًا إلى عام 1950. لا تختلف النسختان اختلافًا جوهريًا؛ ولكن تم حذف بعض الأحداث في الطبعة الأخيرة، مثل احتفال الإخوان المسلمين بتتويج الملك فاروق عام 1937.

(11) في خريف عام 1947، نُشر عمود يحتوي على حلقات مسلسلة في جريدة الإخوان المسلمين، بعنوان **مذكرات من الدعوة والداعية**، (مع اختلاف طفيف في صياغة عنوان الكتاب). وبالإجمال، تتفق هذه الحلقات تقريبًا مع الجزء الثاني من سيرة حسن البنا الذاتية. هناك عدد من الأخطاء في الوقائع والأحداث في هذا الجزء الثاني ما قد يعني أن حسن البنا أنتج هذا الجزء بنفسه؛ ولكنه ترك المهمة الشاقة المتمثلة في اختيار المقتطفات الصحفية وكتابة التعليقات إلى السكرتير. وتكشف المقارنة بين الجزء الثاني من طبعة 1986 والنسخة الأصلية في جريدة الإخوان المسلمين، نوفمبر-ديسمبر 1947، أنه لم يتم نشر عدد لا بأس به من الحلقات في الكتاب، بدءًا من مسيرات الإخوان المسلمين المؤيدة للقصر، والبيعة المثيرة للجدل للملك عام 1937. كما تم حذف عدد من الحلقات حول حملة الإخوان المسلمين لدعم القضية الفلسطينية، والمواجهات مع الشرطة، والاعتقالات خلال الفترة 1938-1939.

(12) البنا 1986 (طبعة 1950 تقريبًا).

(13) انضم أحمد السكّري، بعد فصله من الإخوان المسلمين، إلى حزب الوفد، وكتب سلسلة من المقالات النقدية ضد الإخوان المسلمين وخاصة ضد عبد الحكيم عابدين، الأمين العام وصهر البنا. كما عمل في حكومة الوفد عام 1951. انظر السيسي 1987، جزء 1، ص ص 150-166؛ وانظر: مقابلة المؤلف مع فؤاد سراج الدين، 16 مايو 1995.

(14) عبد الحليم 1979، جزء 1، ص ص 458-459.

(15) لتقرير كامل عن هذه الأحداث، انظر ميتشل 1993، ص ص 52-55.

(16) تم فصل أحمد السكّري بعد شهور قليلة من استقالة إبراهيم حسن في أبريل 1947. ولكن حتى أواخر نوفمبر 1947، عقدت اجتماعات في الجمعية العمومية للإخوان المسلمين، صادقت على طرد حسن البنا للسكري وبعض أنصاره. كما نشر أحمد السكّري أيضًا رسالة مفتوحة إلى حسن البنا في صحيفة «صوت الأمة» الوفدية، منتقدًا تحالفه مع إبراهيم [بل إسماعيل] صدقي باشا وممارسة «الديكتاتورية» في جماعة الإخوان. انظر السيسي 1987، ص ص 150-155، حيث أعيد طبع الرسالة كاملة مصحوبة برد حسن البنا الذي فند فيه مزاعم السكّري.

(17) البنا 1986 (طبعة عام 1950 تقريبًا)، ص ص 151-152. وانظر أيضًا المرجع نفسه ص 149.

(18) ميتشل 1993، ص 298.

(19) المرجع نفسه، ص 297.

(20) المرجع نفسه، ص 299، وجريدة النذير (مطبوعة إخوانية) عام 1938. في الحملة الداخلية لجمع التبرعات عام 1938 قيل إن حسن البنا قد تفوّق على الجميع عندما تبرع بثلث (33٪) راتبه كمعلم. وكان التبرع بعُشر (10٪) الدخل الشهري هو المساهمة الأكثر شيوعًا بين الأعضاء.

(21) مقابلات مع جمال البنا، ربيع 1995. وانظر أيضًا السيسي 1987، ص ص 152-160.

(22) عام 1937، زعمت جماعة الإخوان المسلمين أن لديها 250 فرعًا، على الرغم من أنه كان من الواضح أن عددًا كبيرًا من هذه الفروع لم يتم تأسيسها بشكل كامل. في ذروة شعبيتها بعد الحرب، تباهت الجماعة بأكثر من 2,000 فرع و500,000 عضو.

(23) البنا 1986 (طبعة عام 1950 تقريبًا)، ص ص 13-15. ولا شك في أن حسن البنا كان على علاقة وثيقة بالشيخ محمد زهران. فقد كتب حسن البنا، في إحدى رسائله إلى والده، أنه كان ينوب عن زهران في مدرسة المسجد بالمحمودية. وكان كل من زهران ووالد البنا من المساهمين الأكثر تميزًا في القسم الديني بجريدة الإخوان المسلمين الأولى منذ عام 1933 وما بعده. انظر جمال البنا 1990، ص 127.

(24) قيل إن الحصافية تفرعت عن الطريقة الشاذلية. راجع البنا 1986 (طبعة عام 1950 تقريبًا)، ص 24.
(25) المرجع نفسه، ص ص 20، 28.
(26) المرجع نفسه، ص 35.
(27) المرجع نفسه، ص 36.
(28) المرجع نفسه، ص 17 وص ص 31-32.
(29) سميت هاتان الجمعيتان بـ «**جمعية الأخلاق الإسلامية**» و«**جمعية منع المحرمات**». المرجع نفسه، ص ص 15، 18.
(30) جمال البنا 1990.
(31) حسن البنا 1986 (طبعة 1950 تقريبًا)، ص 21.
(32) المرجع نفسه، ص ص 31-32.
(33) المرجع نفسه، ص ص 31-32.
(34) المرجع نفسه، ص ص 26-27.
(35) وقد ذهب بعض نشطاء الإخوان المسلمين إلى حد القول إن: «أول سمة لدعوة الإخوان المسلمين هي أنها دعوة «أفندية». ولذلك، فهي تستنكر الصوفية والدروشة». انظر الجندي 1946، ص 84.
(36) البنا 1986 (طبعة 1950 تقريبًا)، ص 28.
(37) انظر جانكوسكي 1975، ص 7. عام 1919، كان عمر حسن البنا 13 عامًا. ويبدو أن ادعاءه بأنه لعب دورًا في المظاهرات وأعمال الشغب خلال 1919-1924 أكثر صدقية من قيادة مصر الفتاة.
(38) المرجع نفسه، ص ص 32-34.
(39) البنا 1986 (طبعة 1950 تقريبًا)، ص ص 57-58.
(40) المرجع نفسه، ص ص 56-57.
(41) انظر هاريس 1964، ص 148.
(42) حسن أحمد البنا، «هل نسير في مدارسنا وراء الغرب؟». مجلة الفتح، 19 سبتمبر 1929.
(43) جريدة الإخوان المسلمين، العدد 47، 9 مارس 1937.
(44) انظر على سبيل المثال غيرشوني 1988، ص ص 370-375.
(45) جمال البنا 1990، ص 106.
(46) على الرغم من هجوم حسن البنا على الفكر الحر والفجور في العاصمة، فإنه كان يشعر بانجذاب كبير إلى القاهرة وبيئتها الثقافية-الدينية وفرصها. ويصف حياته بأنها «مزيج رائع من الأنشطة المختلفة: المشاركة في طقس الحضرة في بيت الشيخ الحصافي أو في منزل علي أفندي غالب، وزيارة المكتبة السلفية حيث كان يوجد السيد محب الدين الخطيب، وزيارة دار المنار ورشيد رضا. و«كنت أذهب أيضًا إلى بيت الشيخ الدجوي وفريد بك وجدي. وأحيانًا كنت أقضي وقتًا في مكتبة دار الكتب وأحيانًا أجلس على الحصير في مسجد شيخون». وعندما حصل بعد التخرّج على وظيفة مدرس ابتدائي في الإسماعيلية، احتج بعنف ولم تكن لديه رغبة في مغادرة القاهرة. مقتبس من البنا 1986 (طبعة 1950 تقريبًا)، ص 67.
(47) المرجع نفسه، ص 39.
(48) المرجع نفسه، ص 68.
(49) المرجع السابق، 89-90. يمكن العثور على إشارات إلى هذه القضية أيضًا في رسائل حسن البنا

إلى والده. ويبدو أن همه الرئيس هو أن الإجراءات يجب أن تتم بشكل صحيح. **لا توجد في الرسالة إشارة إلى مفاوضاته مع المستشار السعودي. وعندما فشل المشروع في التحقق، بدا من الواضح أن حسن البنا شعر بخيبة أمل واضحة وكتب لوالده: «فيما يتعلق بموضوع الحجاز، أعطتني وزارة المعارف إجابتها اليوم: لقد رفضوا الطلب. ولذلك، فقد تخليت عن الفكرة تمامًا. لم أكن مشغولاً جدًا بهذه القضية كما كنتَ تَعتقد، ولم يكن الرفض بمثابة ضربة موجعة لي. فكل شيء بأمر الله»**. نقلًا عن البنا 1990، ص 114.

(50) انظر جمال البنا 1990، ص ص 117-121.

(51) مقابلة مع جمال البنا، ربيع 1995. انظر أيضًا جمال البنا 1990، ص ص 113-114.

(52) جريدة الإخوان المسلمين 1352 هـ.

(53) انظر على سبيل المثال محمود صالح، «في رحاب رئيس جمعية الإخوان المسلمين»، جريدة النذير، 12 جمادى الثانية 1357 ه، ص 13.

(54) البنا 1986 (طبعة 1950 تقريبًا)، ص 48.

(55) انظر عبد الحليم 1979، ص ص 120-121، وجريدة النذير، عدد 35 (17 ذي الحجة 1357 هـ).

(56) عمر التلمساني، «بواكير النجاح»، جريدة النذير، عدد 1، 1 محرم 1358 هـ، ص ص 22-24.

(57) البنا 1986 (طبعة 1950 تقريبًا)، ص 93.

(58) المرجع نفسه، ص 95.

(59) المرجع نفسه، ص 93.

(60) المرجع السابق، ص 135. انظر أيضًا «بيان بتبرعات كرام الإسماعيلية»، مجلة الفتح، عدد 310، 15 سبتمبر 1932، ص 14.

(61) البنا 1986 (طبعة 1950 تقريبًا)، ص ص 91-92.

(62) المرجع نفسه، ص 101.

(63) انظر، على سبيل المثال، كتيبًا من إصدار الإخوان المسلمين: **رسائل الإخوان المسلمين**: **المنهج** (رجب 1357هـ أو 1938) ورسالة من حسن البنا إلى حكومة رئيس الوزراء علي ماهر باشا في **مجلة التعارف** (8 يونيو 1940).

(64) انظر وزارة الخارجية البريطانية 1942، ص 2. لم يكن هناك على ما يبدو أيّ ضغط بريطاني مباشر على حكومة حسين سري لنفي حسن البنا إلى قنا في ربيع عام 1941.

(65) وزارة الخارجية البريطانية 1942، ص 2

(66) البنا 1986 (طبعة 1950 تقريبًا)، ص 119.

(67) المرجع نفسه، ص 104.

(68) المرجع نفسه، ص 86.

(69) المرجع نفسه، ص ص 124-125.

(70) المرجع نفسه، ص ص 104-105.

(71) المرجع نفسه، ص 105.

(72) المرجع نفسه.

(73) انظر حسن البنا، «هل نحن قوم عمليون؟»، جريدة الإخوان المسلمين، عدد 16 (13 جمادى الأولى 1353 هـ)؛ جمال البنا 1990، ص 126؛ «جمعية الإخوان المسلمين»، مجلة الفتح (14 ذو القعدة 1349 هـ، مارس 1931)، ص 3.

(74) «جمعية الإخوان المسلمين» مجلة الفتح، عدد 14 (ذو القعدة 1349 هـ، مارس 1931)، ص 3.

(75) انظر ألكساندر 1952، ص 125؛ وانظر: هيوارث-دن 1950، ص ص 38-39. كان البريطانيون قد استعملوا بنجاح مثل هذا التكتيك عام 1941 ضد **الحزب الوطني القومي الإسلامي (حزب مصر الفتاة، سابقًا)** لخلق صراعات داخل الحزب والتسبب في تفككه.

(76) انظر رؤوف عباس، «الإخوان المسلمون والإنجليز»، مجلة فكر للدراسات والأبحاث (8 ديسمبر 1985)، ص ص 144-158.

(77) البنا 1986 (طبعة 1950 تقريبًا)، ص ص 120-122.

(78) مقابلة مع جمال البنا، ربيع 1995.

(79) انظر جريدة الإخوان المسلمين، عدد 36، 19 محرم 1353هـ، ص 36؛ وجريدة الإخوان المسلمين، عدد 23، 2 رجب 1353هـ، ص ص 31-32.

(80) البنا 1986 (طبعة 1950 تقريبًا)، ص 121.

(81) ميتشل 1993، ص 9.

(82) جمال البنا 1990، ص ص 104-116.

(83) البنا/السكّري/عسكرية 1929.

(84) انظر محب الدين الخطيب، «جمعية الإخوان المسلمين»، مجلة الفتح، عدد 245، 14 ذو القعدة 1349 هـ، ص 3. وانظر أيضًا أحمد السكّري، مقال «القنيصة الناجية»، مجلة الفتح، عدد 258 (23 صفر 1350 هـ/يوليو 1931)، ص ص 8-9؛ وحامد عسكرية، «جمعية الإخوان المسلمين في شبراخيت»، مجلة الفتح، عدد 255 (18 يونيو 1931)، ص 7.

(85) البنا 1986 (طبعة 1950 تقريبًا)، ص 103.

(86) انظر «بيان تبرعات...» (انظر هامش 60 أعلاه)، مجلة الفتح، عدد 310، 15 سبتمبر 1932، ص 14.

(87) نقلًا عن البنا 1986 (طبعة 1950 تقريبًا)، ص 83.

(88) انظر يوسف 1932 الذي يؤكد أن الأعضاء المؤسسين أقسموا يمين الولاء (**البيعة**) لحسن البنا.

(89) البنا 1986 (طبعة 1950 تقريبًا)، ص 25.

(90) المرجع نفسه: 36.

(91) المرجع نفسه: 70.

(92) المرجع نفسه، ص ص 49-50، ص ص 113-114، 117.

(93) المرجع نفسه، ص 126.

(94) الترجمة المستخدمة هنا لعبد الله يوسف علي (بدون تاريخ).

(95) البنا 1986 (طبعة 1950 تقريبًا)، ص 92.

(96) المرجع نفسه، ص ص 98-99.

(97) المرجع نفسه، ص ص 126-127.

(98) المرجع نفسه، ص 136.

(99) المرجع نفسه، ص 137.

(100) جمال البنا 1990، ص 126.

(101) انظر: حسن البنا، «حول جمعية الإخوان المسلمين»، مجلة الفتح، عدد 245، 21 ذو القعدة 1349 هـ (تقريبًا أبريل 1913) [بل 9 أبريل 1931، المترجم]، ص 8.

(102) يوسف 1932، ص ص 15-17.

(103) انظر على سبيل المثال أحمد (اسم مستعار) 1946، ص ص 27-28؛ وانظر: التلمساني 1985، ص 45. في أواخر الثلاثينيات خلال التنافس المتزايد بين **الإخوان المسلمين** والحزب الوطني المتطرف **مصر الفتاة** برئاسة أحمد حسين، **اتهم الأخير البنا بأن أتباعه كانوا يعبدونه ويقدسونه مثل النبي محمد. (انظر حسين 1938) ولكن مهما كان قدر الحقيقة في مزاعمه، يبدو واضحًا من جريدة الإخوان المسلمين نفسها أن سمات حسن البنا الكاريزمية أصبحت موضع اهتمام منذ منتصف الثلاثينيات فصاعدًا.**

(104) عن التواطؤ بين الإخوان ونظام صدقي، انظر ميتشل 1993، ص ص 45-53.

(105) أصبحت هذه الاتهامات أكثر انتشارًا عام 1948 وما بعده عندما وصلت دورة العنف السياسي إلى ذروتها. انظر على سبيل المثال: جريدة الإخوان المسلمين، عدد 593، 5 أبريل 1948.

(106) هيورث-دن 1950، ص 78.

(107) انظر وزارة الخارجية البريطانية، «الإخوان المسلمون» (FO 141/838)، برقية بريطانية من القاهرة تحتوي على تقرير يشرح بالتفصيل الجهود التي بذلها البريطانيون بالتعاون مع أمين عثمان لخلق نزاع بين حسن البنا وأحمد السكرى. انظر أيضًا المطعني 1979، ص ص 71-75، حيث أعيد نشر رسالة من حسن البنا إلى أحمد السكّري مؤرخة في أبريل 1940.

(108) البنا 1986 (طبعة 1950 تقريبًا)، ص 152.

(109) المرجع نفسه، ص 35.

(110) المرجع نفسه، ص ص 50-51. انظر أيضًا المرجع نفسه، ص 49 و66، للحصول على أوصاف أخرى لعلاقتهما.

(111) المرجع نفسه، ص 46.

(112) وردت إشارات مقتضبة إلى أن السكّري قد انتخب رئيسًا لجمعية خيرية في المحمودية تسمى «جمعية الحصافية الخيرية»، ثم رئيسًا لفرع الإخوان المسلمين في المحمودية. المرجع نفسه، ص 25 و69 و103.

(113) أُطلق على الرسالة اسم «مذكّرة في التعليم الديني»، ووقّع عليها حسن أحمد البنا، وأحمد السكّري، وحامد عسكريّة، وقد كُتبت على الأرجح في ربيع عام 1929. وكانت الرسالة عبارة عن مذكرة أرسلت إلى «الملك، والأمراء، ورئيس الوزراء، والوزراء، وأعيان الأزهر، إلخ»، وتناولت السياسات التعليمية، وحثت الجهات المختصة على زيادة جرعة التعليم الديني في المدارس المصرية. في الثلاثينيات من القرن الماضي، كان هذا الأمر على الأرجح أهم قضية في برنامجهم حتى اندلاع الثورة الفلسطينية عام 1936. ولتعليق موجز على هذه الرسالة، انظر يانسن 1992، ص ص 254-258.

(114) انظر على سبيل المثال: السكّري، «جهاد الإخوان المسلمين يثمر!» جريدة النذير، عدد 19 (8 جمادى الأولى 1358 هـ)، ص ص 1-2.

(115) مجلة الفتح، عدد 151 (6 محرم 1348 هـ/يونيو 1929)، ص ص 5-7، 10-11. كما نشرت مجلة الفتح مقالًا للسكري يصف فيه كيف أن الإخوان في المحمودية «أنقذوا فتاة صغيرة» من اعتناق المسيحية على يد مبشرين. ولكن لم يتم ذكر هذا الحدث في سيرة حسن البنا الذاتية بالرغم من أن مقاومة المبشرين حظيت فيها باهتمام كبير.

(116) البنا 1986 (طبعة 1950 تقريبًا)، ص 128.

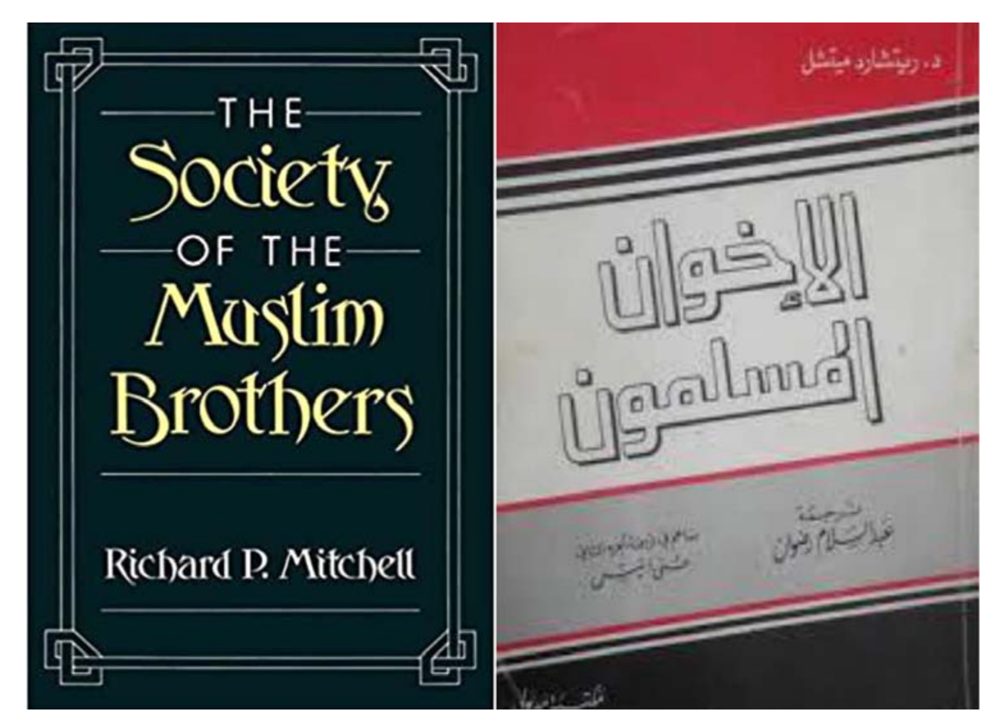
(117) المرجع السابق، ص ص 65-66.

(118) المرجع السابق، ص ص 50-51.

(119) المرجع نفسه، ص 151.
(120) المرجع نفسه، ص 152.
(121) ميتشل 1993، ص ص 54-55. وانظر أيضًا أبو النصر 1987، ص 87؛ والباقوري 1988، ص ص 72-77، لما يشير إلى أن السَنَدِي قام بأعمال باجتهاد شخصي ومن تلقاء نفسه.
(122) لمزيد من التفاصيل حول اعتقال البنا أثناء مظاهرة مؤيدة لفلسطين في الإسماعيلية عام 1938، انظر «الإخوان المسلمون يغضبون لفلسطين»، جريدة النذير، 12 جمادى الثانية 1357هـ، ص ص 21-22. لمزيد من التفاصيل حول انسحاب حسن البنا من انتخابات عام 1942 بعد ضغوط من رئيس الوزراء مصطفى النحاس والانقسام المؤقت الذي أحدثته هذه «الهزيمة» في الجماعة، انظر ليَّا 1998، ص 269.
(123) البنا 1986 (طبعة 1950 تقريبًا)، ص 152.

ملحق صور الفصل الأول

إعداد وتحرير: د. حمد العيسى

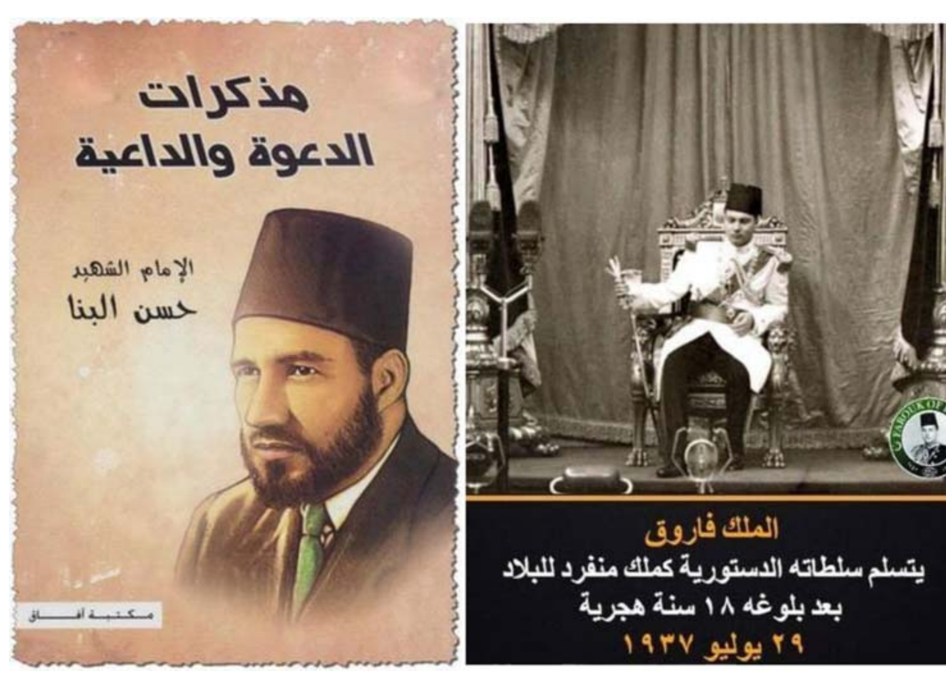


«لسوء الحظ، لا توجد مصادر نقدية، على حد علمنا، لمقارنة هذه السيرة الذاتية بها».

البروفيسور ريتشادر بول ميتشل (1925–1983)

تعد أطروحة البروفيسور الراحل ريتشادر بول ميتشل للدكتوراه (فوق، يسار)، التي صدرت عام 1969 عن قسم النشر بجامعة أوكسفورد في كتاب بعنوان «جمعية الإخوان المسلمين»، أهم مرجع بالإنكليزية عن التاريخ المبكر لجماعة الإخوان المسلمين.





تم حذف بعض الأحداث من كتاب «مذكرات الدعوة والداعية»؛ مثل احتفال الإخوان المسلمين بتتويج الملك فاروق عام 1937 (انظر ص-81)، ومسيرات الإخوان المسلمين المؤيدة للقصر، والمواجهات مع الشرطة، والاعتقالات خلال الفترة 1938-1939.


الإخوان المسلمون

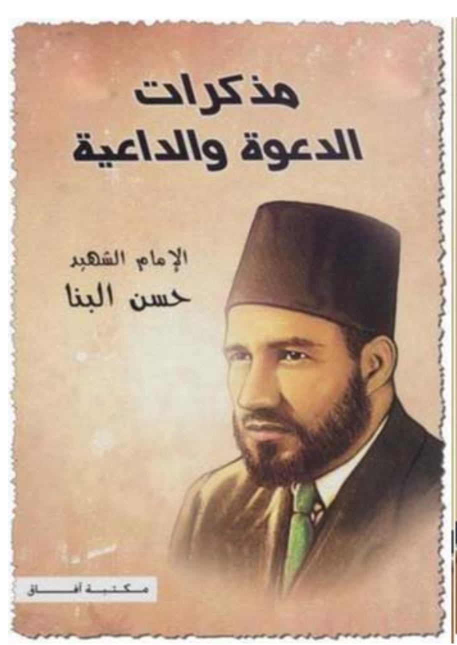
ثقافة دينية | توجيهات

سياسة إسلامية | آداب شرقية

جلالة ملك الوادى بمناسبة عيد ميلاده السعيد (١١ فبراير)

العدد ١٨٥ — السبت ٢٢ ربيع الأول ١٣٦٧ / ٧ فبراير ١٩٤٨ — السنة السادسة

احتفت جريدة الإخوان بالملك فاروق؛ ولكن تم حذف هذا الاحتفاء من سيرة البنا!!





«... وبالاعتماد على مجموعة من المصادر الأولية، التي لم تُفحص جيّدًا من قبل، تجادل وتثبت هذه الورقة أن هذه السيرة الذاتية «لم» تُكتب أبدًا بأثر رجعي كمذكرات تقليدية!! فقط من خلال التعرف إلى طبيعتها «الخيالية» واستكشاف الحدود بين السيرة الذاتية والخيال، يمكن فهم مذكرات البنا بشكل صحيح»!!

البروفيسور برينيار لِيَّا
جامعة أوسلو



الطفل حسن البنا في مسلسل «الجماعة»	الشيخ أحمد عبد الرحمن الساعاتي

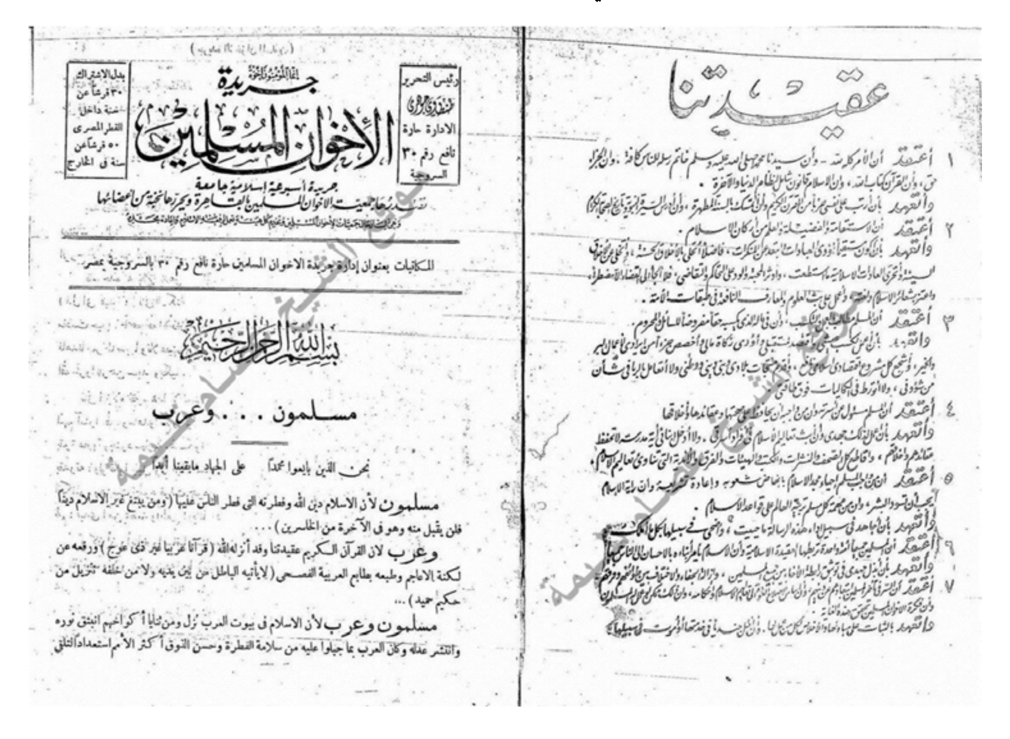
ولد حسن البنا عام **1906** في قرية المحمودية المصرية، وهو الابن الأكبر لإمام مسجد ومأذون شرعي اسمه الشيخ أحمد عبد الرحمن الساعاتي. ودرّسه والده، الذي كان ملمًّا بالسنة والعلوم الإسلامية في سن مبكرة. كما عرّفه على مجلة «المنار» لرشيد رضا، وغرس فيه حسًّا أخلاقيًا صارمًا.

(هذه الصفحة من إعداد د. حمد العيسى)



(الطفل حسن البنا في مسلسل «**الجماعة**»)

يمكن تقسيم سيرة حسن البنا الذاتية، «مذكرات الدعوة والداعية»، إلى قسمين:
الجزء الأول يروي حياته المبكرة والسنوات الأولى للحركة في الإسماعيلية (فوق) حتى انتقاله إلى القاهرة عام 1932. ويشكل هذا الجزء سيرة ذاتية «حقيقية».
والجزء الثاني هو تأريخ للحركة كُتب بشكل قصاصات من الأخبار الصحافية من مجلات وصحف الإخوان الأسبوعية (تحت) في الثلاثينيات، مصحوبة بتعليقات موجزة.



عقيدتنا

١ أعتقد أن الأمر كله لله، وأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم رسله للناس كافة، وأن الجزاء حق، وأن القرآن كتاب الله، وأن الإسلام قانون شامل لنظام الدنيا والآخرة.
وأتعهد بأن أرتب على نفسي حزباً من القرآن الكريم وأن أتمسك بالسنة المطهرة، وأن أدرس السيرة النبوية وتاريخ الصحابة الكرام.
٢ أعتقد أن الاستقامة والفضيلة والعلم من أركان الإسلام.
وأتعهد بأن أكون مستقيماً أؤدي العبادات وأبتعد عن المنكرات، فاضلاً أتحلى بالأخلاق الحسنة وأتخلى عن الأخلاق السيئة، وأتحرى العادات الإسلامية ما استطعت، وأوثر المحبة والود على التحاكم والتقاضي، فلا ألجأ إلى القضاء إلا مضطراً، وأعتز بشعائر الإسلام ولغته، وأعمل على بث العلوم والمعارف النافعة في طبقات الأمة.
٣ أعتقد أن المسلم مطالب بالعمل والتكسب، وأن في ماله الذي يكسبه حقاً مفروضاً للسائل والمحروم.
وأتعهد بأن أعمل لكسب عيشي وأقتصد لمستقبلي وأؤدي زكاة مالي وأخصص جزءاً من إيرادي لأعمال البر والخير، وأشجع كل مشروع اقتصادي إسلامي نافع، وأقدم منتجات بلادي وبني ديني ووطني، ولا أتعامل بالربا في شأن من شؤوني، ولا أتورط في الكماليات فوق طاقتي.
٤ أعتقد أن المسلم مسؤول عن أسرته، وأن من واجبه أن يحافظ على صحتها وعقائدها وأخلاقها.
وأتعهد بأن أعمل لذلك جهدي، وأن أبث تعاليم الإسلام في أفراد أسرتي، ولا أدخل أبنائي أية مدرسة لا تحفظ عقائدهم وأخلاقهم، وأقاطع كل الصحف والنشرات والكتب والهيئات والفرق والأندية التي تناوئ تعاليم الإسلام.
٥ أعتقد أن من واجب المسلم إحياء مجد الإسلام بإنهاض شعوبه وإعادة تشريعه، وأن راية الإسلام يجب أن تسود البشر، وأن من مهمة كل مسلم تربية العالم على قواعد الإسلام.
وأتعهد بأن أجاهد في سبيل أداء هذه الرسالة ما حييت، وأضحي في سبيلها بكل ما أملك.
٦ أعتقد أن المسلمين جميعاً أمة واحدة تربطها العقيدة الإسلامية، وأن الإسلام يأمر أبناءه بالإحسان إلى الناس جميعاً.
وأتعهد بأن أبذل جهدي في توثيق رابطة الإخاء بين جميع المسلمين [illegible]
٧ أعتقد أن [illegible]
وأن فكرة الإخوان المسلمين تحقق هذه الغاية.
وأتعهد بالثبات على مبادئها [illegible]

(الإخوان المسلمون [illegible])

إنما المؤمنون إخوة

جريدة
الإخوان المسلمين

رئيس التحرير
[illegible]
الإدارة حارة
نافع رقم ٣٠
السروجية

بدل الاشتراك
٣٠ قرشاً عن
سنة داخل
القطر المصري
٥٠ قرشاً عن
سنة في الخارج

جريدة أسبوعية إسلامية جامعة
تصدرها جمعية الإخوان المسلمين بالقاهرة ويحررها نخبة من أعضائها
[illegible]

المكاتبات بعنوان إدارة جريدة الإخوان المسلمين حارة نافع رقم ٣٠ بالسروجية بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

مسلمون . . . وعرب

نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

مسلمون لأن الإسلام دين الله وفطرته التي فطر الناس عليها (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) . . .
وعرب لأن القرآن الكريم عقيدتنا وقد أنزله الله (قرآناً عربياً غير ذي عوج) ورفعه عن لكنة الأعاجم وطبعه بطابع العربية الفصحى (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) . . .
مسلمون وعرب لأن الإسلام في بيوت العرب نزل ومن ثناياها أكواخهم انبثق نوره وانتشر عدله وكان العرب بما جبلوا عليه من سلامة الفطرة وحسن التوق أكثر الأمم استعداداً لتلقي







كما نشر أحمد السكّري أيضًا رسالة مفتوحة إلى حسن البنا في صحيفة «صوت الأمة» الوفدية، منتقدًا تحالفه مع إسماعيل صدقي باشا (يمين)، رئيس الوزراء المستبد، وممارسة «الديكتاتورية» في جماعة الإخوان نظرًا لعدم وجود الشورى.

١٠ مليمات

الأمة مصدر السلطات

صوت الأمة

لسان حال الوفد المصري

٦ صفحات

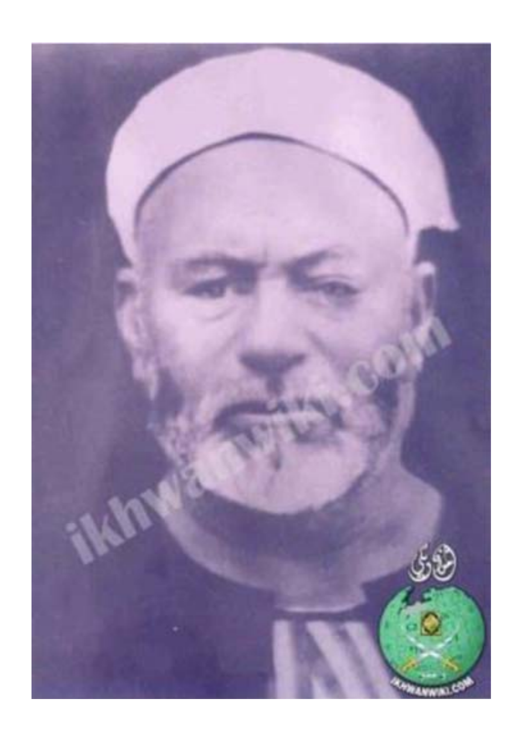
هذا فيما مضى ... أما الآن ..؟!

٢- كيف انزلق الشيخ البنا بدعوة الاخوان

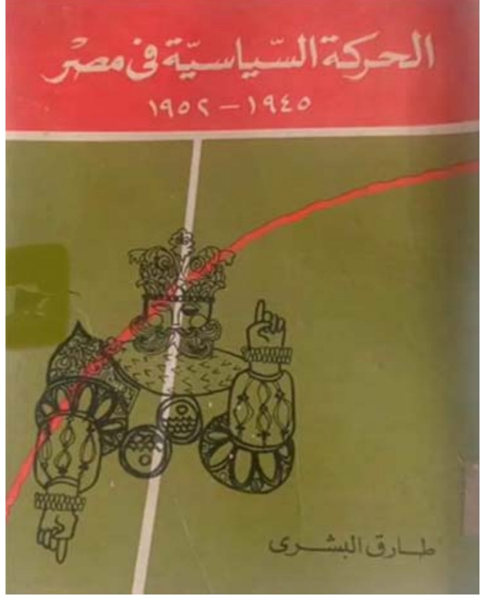
هكذا حاولت الجاسوسية الانجليزية ان ترشو الاخوان المسلمين

بعشرين ألف جنيه • تفصيلات تشيب لهولها النواصي

للأستاذ احمد السكري



وفي الأيام الأولى في القاهرة والإسماعيلية، لم يكن هناك شك في أن «الأعيان» لعبوا دورًا حاسمًا في الجماعة، ولم يقلّل البنا مطلقًا من دور راعيهم ومناصرهم المحلي الحاج حسين الزملوط (فوق)، رجل الأعمال الذي تبرّع بـ 500 جنيه مصري لبناء أول مسجد للإخوان المسلمين.





تشير الباحثة الإسبانية آنا بيلين سواج(*) (تحت)، في بحث نوعي نُشر عام 2008، إلى أن المفكر والمؤرخ والقاضي الراحل طارق البشري انتقد، في طبعة عام 1972 (يمين) من كتابه **الحركة السياسية في مصر 1945–1952، شدة التزمت والاستبداد داخل جماعة الإخوان، مؤكدًا أنها تفرض على أعضائها «كيف يتكلمون وكيف يضحكون»! وجادل بأن ذلك يهدف إلى إلغاء شخصياتهم الفردية!** تقول سواج: **لقد كتب البشري ذلك عندما كان «يساريًا»، أيْ قبل تحوّله لاحقًا إلى «الإسلاموية»**. ثم قام بتنقيح الكتاب عام 1983 لحذف تلك الإشارة النقدية وغيرها، إذ صدرت طبعة منقحة بالكامل عن دار الشروق.



(*) د. آنا بيلين سواج. مترجمة وباحثة إسبانية، وهي أستاذة العلوم السياسية ودراسات الشرق الأوسط في جامعة «سافك» الأميركية في بوسطن (حَرَم مدريد). انظر ورقة بالإنكليزية لسواج بعنوان **«حسن البنا: مؤسس الإسلاموية»**، مجلة الشرق الأوسط، هامش رقم (33)، مارس 2008. (العيسى)





ويتذكر زعيم الإخوان المسلمين، في مذكراته، أيضًا مفاوضاته مع الشيخ حافظ وهبة (يمين)، مستشار الملك ابن سعود، ليعمل في وظيفة [مدرس] في المملكة العربية السعودية عام 1928. يقول البنا: «وفي الموعد، التقينا وكان أهم شرط وضعته أمام فضيلة الشيخ حافظ ألا أعتبر موظفًا يتلقّى مجرد تعليمات لتنفيذها، بل «صاحب فكرة» يعمل على أن تجد مجالها الصالح في دولة ناشئة هي أمل من آمال الإسلام والمسلمين، شعارها العمل بكتاب الله وسنة رسوله وتحرّي سيرة السلف الصالح. وأما ما عدا ذلك من حيث المرتبات والامتيازات المادية وما إليها فلم أجعله موضع حديث فيما بيننا».

وعندما فشل المشروع في التحقق، بدا من الواضح أن حسن البنا شعر بخيبة أمل واضحة وكتب لوالده: «فيما يتعلق بموضوع الحجاز، أعطتني وزارة المعارف إجابتها اليوم: لقد رفضوا الطلب. ولذلك، فقد تخليت عن الفكرة تمامًا. لم أكن مشغولًا جدًا بهذه القضية كما كنتَ تَعتقد، ولم يكن الرفض بمثابة ضربة موجعة لي. فكل شيء بأمر الله».



«كلما زاد «الادعاء» الدراماتيكي في السيرة الذاتية... زاد احتمال كون الحكاية «خيالية» ومبالغ فيها»!

الناقد البروفيسور دانيال مندلسون (نقلًا عن الكاتب جيمس فَرَايْ)
الحاصل عام 2006 على جائزة الجمعية الأمريكية لنقاد الكتب في فرع «السيرة الذاتية» عن كتابه «المفقودون: البحث عن ستة من ستة ملايين شخص».

(هذه الصفحة من إعداد د. حمد العيسى)





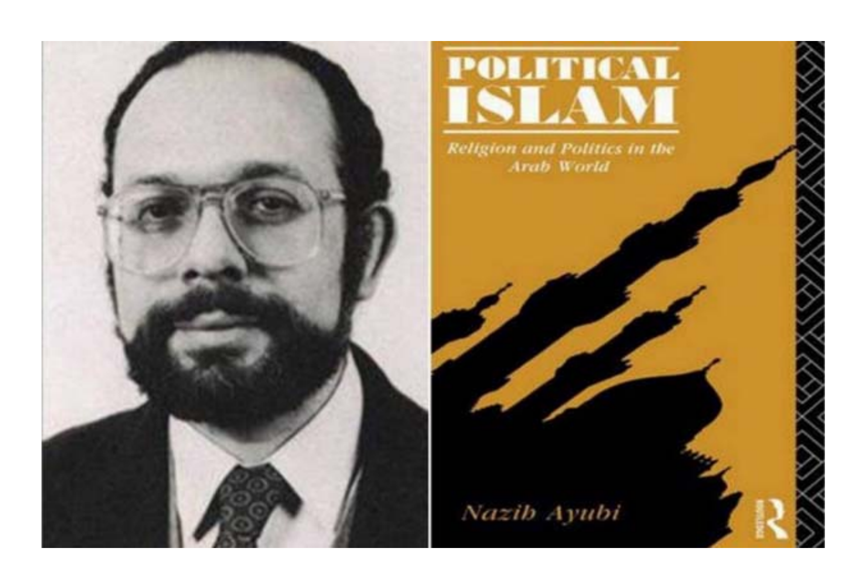
«بينما كان الأفغاني وعبده يسعيان بجد وصدق إلى «تحديث الإسلام»، فإن حسن البنا كان يسعى جاهدًا إلى «أسلمة الحداثة»!!

ملاحظة نوعية ثاقبة للمفكر

المصري الراحل البروفيسور نزيه نصيف الأيوبي(*) (تحت)

كتاب «الإسلام السياسي: الدين والسياسة في العالم العربي»

(لندن: روتليدج للنشر، 1991، ص 231)



(*) البروفيسور المصري الراحل نزيه نصيف الأيوبي. باحث مصري (1944-1995). حاصل على دكتوراه في العلوم السياسية من جامعة أوكسفورد في بريطانيا. وهو مؤلف كتاب **الإسلام السياسي: الدين والسياسة في العالم العربي**، وكتاب **تضخيم الدولة العربية**. (العيسى)

(هذه الصفحة من إعداد د. حمد العيسى)







«ينبغي أن يقتصر التعليم على ما هو ضروري للقيام بالشعائر الدينية وكسب الرزق فقط»

حجة الإسلام أبو حامد الغزالي

فقبل قبوله في دار العلوم، يتذكر البنا كيف كان مترددًا وحائرا بين الرغبة في تحصيل المعرفة من جهة، ورؤية العالم المسلم الكبير في العصور الوسطى أبي حامد الغزالي من جهة أخرى، الذي أفتى بأن التعليم ينبغي أن يقتصر على ما هو ضروري للقيام بالشعائر الدينية وكسب الرزق فقط.

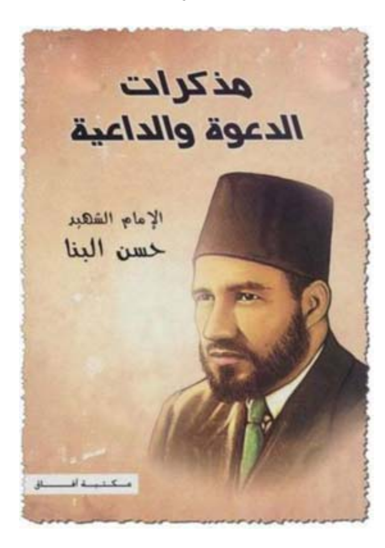
(هذه الصفحة من إعداد د. حمد العيسى)



وبعد التاسعة مساء ينتقل لادارة جريدة « الاخوان المسلمون »
حيث يناقش مدير السياسة والتحرير فى شئون الجريدة

«الشعور بطول الغيبة عن المحمودية، وفيها الصديق «الحميم والحبيب» أحمد أفندي السكّري» [!!]

الأمر الوحيد الذي كان يقلق حسن
البنا عندما انتقل إلى القاهرة للدراسة في «دار العلوم»
(وفقًا لمذكرات البنا)



أولى رسائل حسن البنا

يوهان يانسن

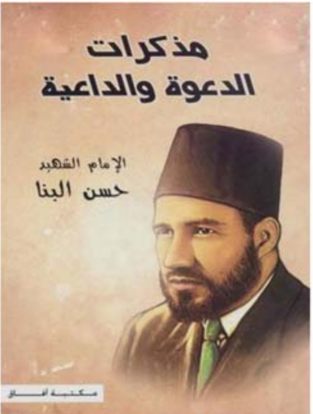
نقله إلى العربية: عبد الرحمن أبو ذكري

إبّان العام الهجري 1348، نشر حسن البنا، الأب المؤسس لجمعية[1] الإخوان المسلمين، رسالة بعنوان: "مذكرة في التعليم الديني".[2] وقد كان للرسالة مؤلفان مُشارِكان، هما: أحمد محمد السُّكَّري وحامد عبده عسكرية، وكلاهما من الرعيل الأول من مؤسسي الإخوان المسلمين.

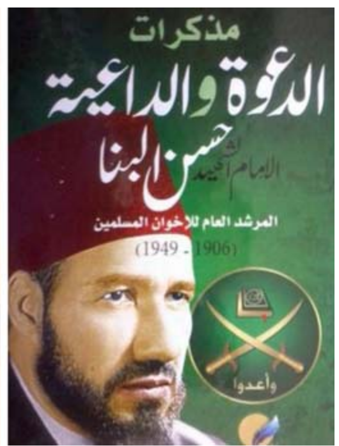
رسالة عام 1929، «مذكرة في التعليم الديني»

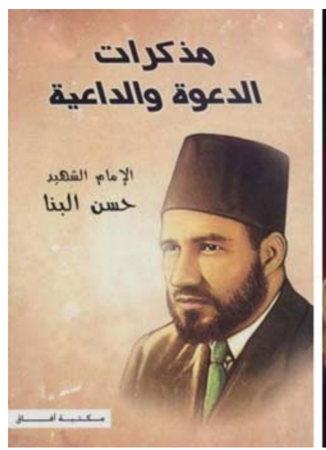
أثبت البروفيسور برينيار لِيًا، في هذه الورقة، بالأدلة وجود سلسلة «متعمدة» من حالات «السهو والإغفال» في سيرة البنا بهدف التقليل من دور أحمد السكّري، نائب المرشد في جماعة الإخوان المسلمين! فمثلاً، يقول لِيًا: وبعد تأسيس جماعة الإخوان المسلمين، لا نجد في سيرة البنا عمليًا أية إشارة إلى دور السكّري كزعيم لفرع جماعة الإخوان في المحمودية؛ بينما أشارت السيرة إلى فروع أخرى للجماعة وأعطتها بعض الاهتمام! ويضيف لِيًا: ولم يُكْرِمْ أو يجامل البنا صديقه «الحميم والحبيب» (كما وصفه في مذكراته) بذكر ولو حكاية واحدة كالحكايات التي رواها البنا بكل أريحية لتأكيد فضائل جيل الجماعة الأول! ولم يشر البنا، في سيرته، تحديدًا إلى رسالة ألّفاها معًا وصدرت عام 1929، وكانت على الأرجح «أول» مطبوعة إخوانية!



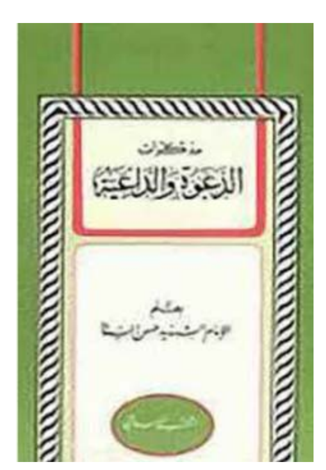


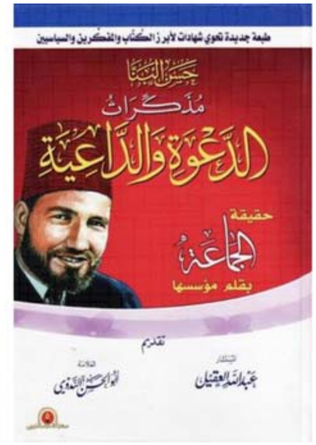




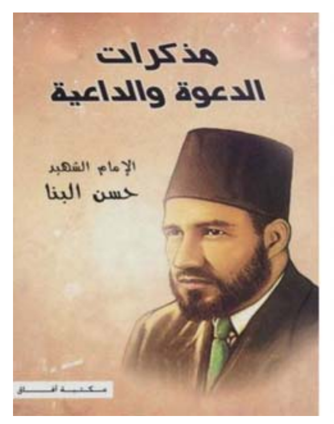


يعد كتاب «مذكرات الدعوة والداعية» أهم مرجع عربي عن تأسيس وانطلاق جماعة الإخوان المسلمين. كما يعد من أكثر كتب حسن البنا انتشارًا. وتوجد في المكتبة العربية طبعات عديدة لهذا الكتاب. وقد اكتشفنا، بالصدفة، أثناء عملية البحث المصاحبة لترجمة وتحرير هذا الكتاب وجود حذف وتنقيح في طبعة «مكتبة آفاق» بالكويت (فوق، يسار) بهدف التقليل من المساهمة المبكرة للأستاذ أحمد السكّري، نائب المرشد، في تأسيس وإدارة جماعة الإخوان قبل فصله من الجماعة... وذلك مقارنة بطبعة مصرية بالطبع!! أي أن «مكتبة آفاق» الكويتية «إخوانية أكثر من الإخوان»، كما يقول المثل!!












إن الصورة الشائعة عن جماعة الإخوان المسلمين كمنظمة تتصدى وتتحدى البريطانيين في الإسماعيلية لا تتسق حقًا مع حقيقة أن الجماعة تلقت تبرعًا من شركة قناة السويس البريطانية لبناء أول مسجد لها! لقد نجح البنا في ترسيخ هذه «الصورة»، كما سنرى لاحقًا. ووفقًا لمذكرات البنا، مرّ بـ «الصدفة» وبشكل خاطف مدير شركة قناة السويس قرب مسجدهم، وهو تحت التشييد، ثم أرسل لاحقًا موظفًا ليقول للبنا إن الشركة ترغب في التبرع بـ 500 جنيه إسترليني لصالح مشروع مسجدهم!



ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين

الفتح

صحيفة إسلامية علمية أخلاقية

تصدر يوم الخميس من كل أسبوع

العدد ٥١ | القاهرة: الخميس غرة المحرم سنة ١٣٤٦ — ٣٠ يونيو سنة ١٩٢٧ | السنة الثانية

(الاشتراكات)
في المملكة المصرية ٣٠ قرشًا
في الخارج ٥٠ قرشًا

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

(محب الدين الخطيب)

(عبد الباقي سرور نعيم)

(الفتح) في سنته الثانية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد إمام المسلمين، وقدوة الدعاة والمرشدين، وحامل لواء الحق والعدل والرحمة إلى الناس أجمعين

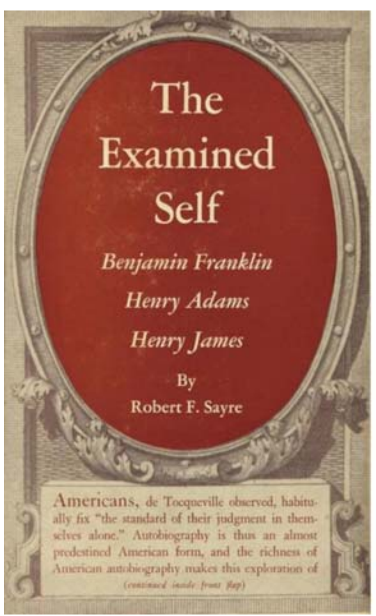
أما بعد فإن «الفتح» أتم سنته الأولى في اليوم السابع والعشرين من ذي القعدة . ولكن يحلو لنا أن نتأخر إلى هذا اليوم المبارك في الانتقال إلى سنته الثانية ...

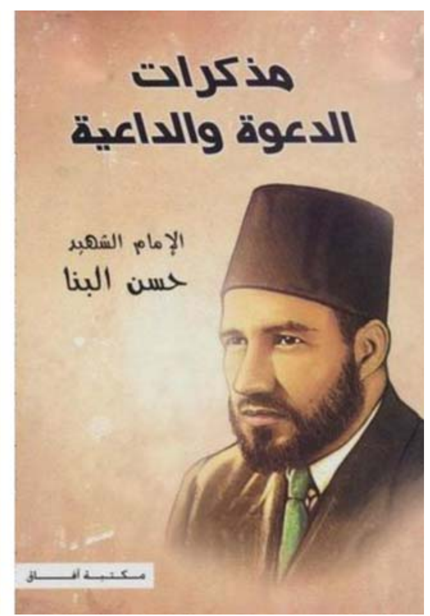
حسن البنا «أخفى» دوره الحقيقي في

«حث» شركة قناة السويس على التبرع بالمال لتشييد مسجد!!

(استنباط البروفيسور برينيار لِيَا من مقال لمحب الدين الخطيب)

ويبدو أن زعيم الإخوان قد «أغفل ذكر دوره» الحقيقي في حث شركة قناة السويس على التبرع بمبلغ من المال. فقد كتب محب الدين الخطيب، رئيس تحرير جريدة الفتح: «أود الإشادة بأخينا المجاهد في سبيل الله، الأستاذ حسن أحمد البنا، الذي تمكن من إقناع شركة قناة السويس بالتبرع بـ 500 جنيه إسترليني لتشييد مسجد»! انظر: جريدة الفتح، 14 ذي القعدة 1349 هـ (مارس 1931)، ص3.

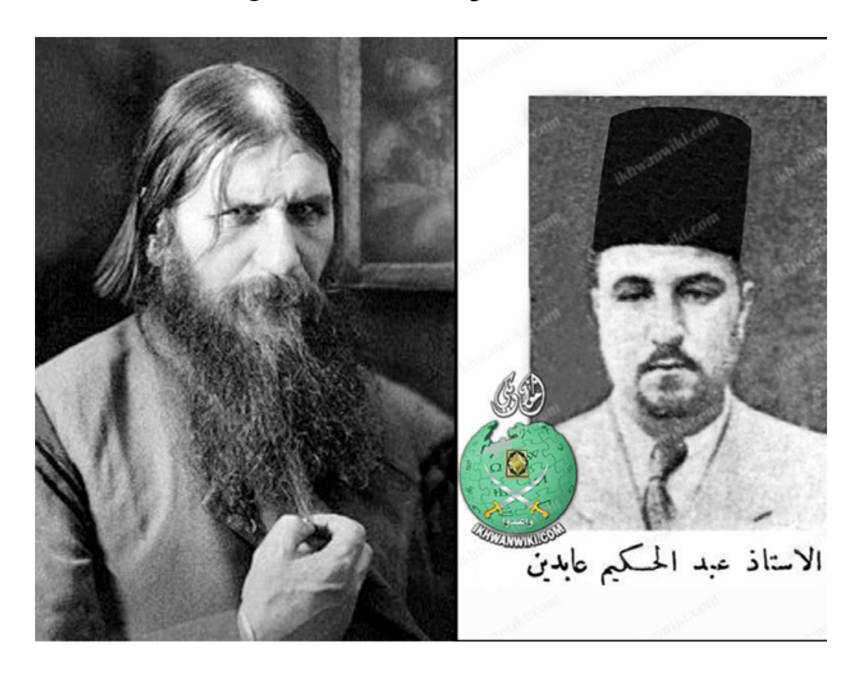




استخدم البروفيسور برينيار لِيًا الكتاب الكلاسيكي والمرجعي «الذات المفحوصة: دراسة السير الذاتية لبنجامين فرانكلين وهنري آدامز وهنري جيمس» (فوق) الصادر عام 1964 لمؤلفه روبرت ف ساير كنقطة انطلاق للقيام بتحليل نقدي لسيرة حسن البنا «مذكرات الدعوة والداعية». كتاب «الذات المفحوصة» هو في الأصل أطروحة دكتوراه نوعية وفريدة توجت مؤلفها روبرت ف. ساير (تحت، يسار) رائدًا لحقل دراسة ونقد السيرة الذاتية كنوع أدبي في الولايات المتحدة.

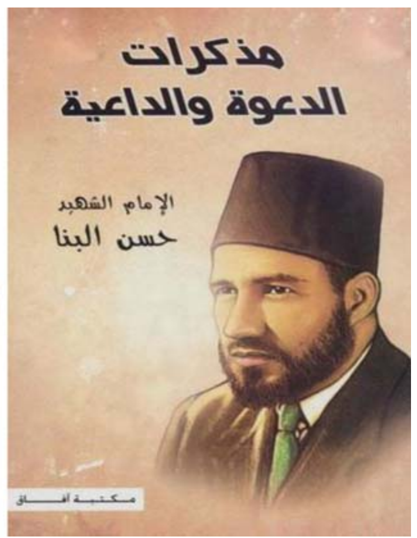


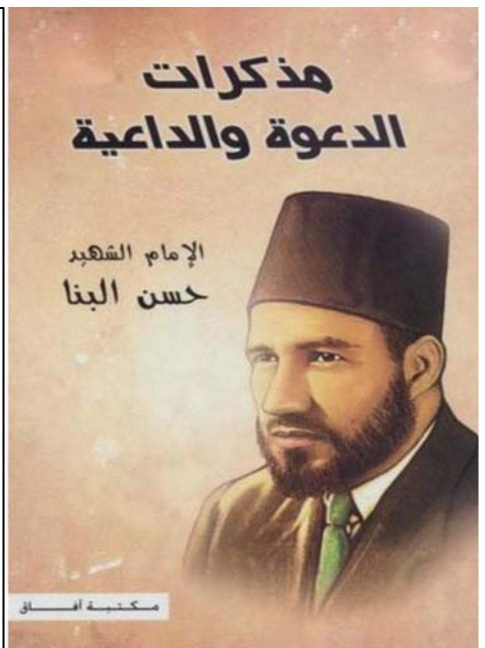


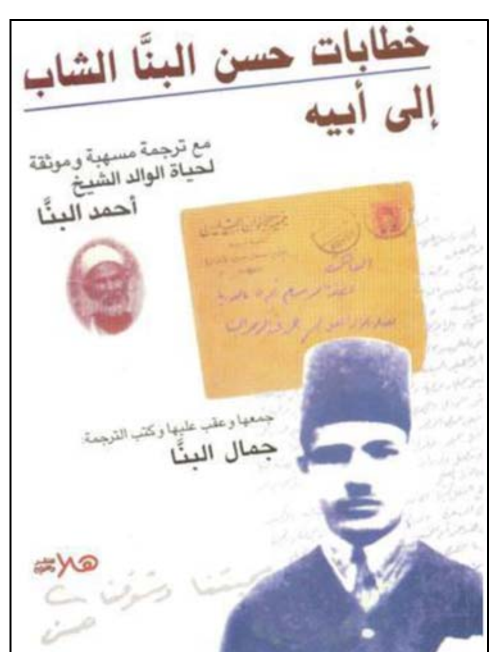


وفي 1946–1947، أصبحت مسألة القيادة أكثر إلحاحًا بسبب الفضيحة الأخلاقية التي تورّط فيها عبد الحكيم عابدين، صهر حسن البنا (زوج أخته) والأمين العام للجماعة، إذ وُجهت إليه تهمة انتهاك منازل بعض الإخوان والتحرش بنسائهم، ووصفه بعض الأعضاء الغاضبين بأنه «راسبوتين الإخوان المسلمين». وفاقمت القرابة بين البنا وعابدين من حساسية القضية، و«شككت» في نزاهة البنا بسبب عدم رغبته في فصل عابدين من الجماعة!



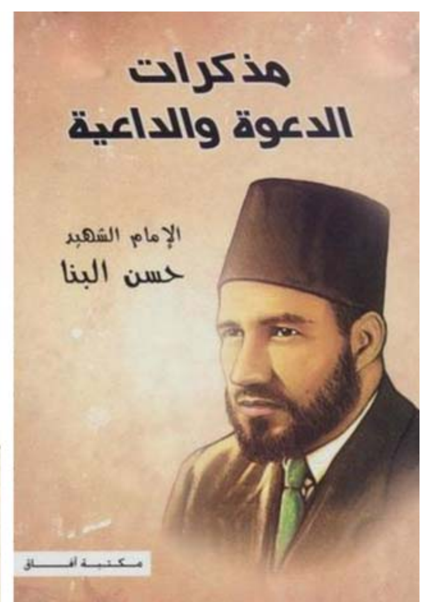






استخدم البروفيسور برينيار لِيَّا بدهاء ومكر كتاب «خطابات حسن البنا الشاب إلى أبيه»، الذي أعده وحرره جمال البنا رحمه الله (تحت، يسار) وصدر عام 1990، كمرجع لتحليل وفحص صدقية بعض الأحداث في سيرة حسن البنا الذاتية (مذكرات الدعوة والداعية). ونجح لِيَّا، بالفعل، في تفنيد بعضها، أو على الأقل التشكيك فيها!







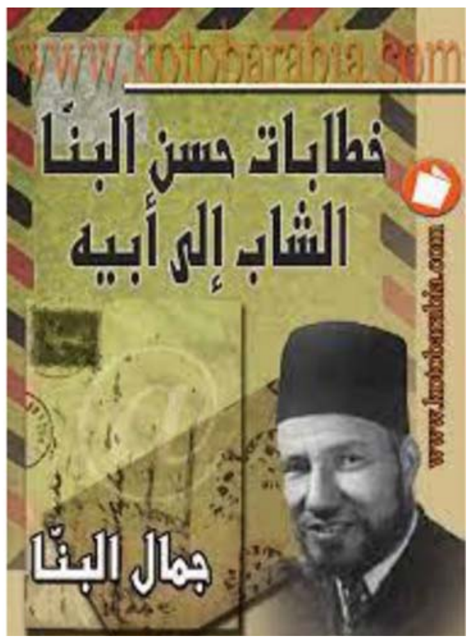
وتقدم سيرته الذاتية حكاية أخرى عن قدوم اثنين من أخلص الإخوان دخلا على البنا وهما في حالة من الألم الشديد، وقالا: «إن في البلد شائعة قوية ضدنا، إذ يقولون إنك تقول لنا في دروسك: اعبدوني من دون الله، وإن الإخوان المسلمين يعتقدون بناء على هذا أن الشيخ البنا إله يعبد وليس بشرًا ولا نبيًا ولا وليًا ولا شيخًا»!! [حرفيًا من كتاب «مذكرات الدعوة والداعية»، العيسى].

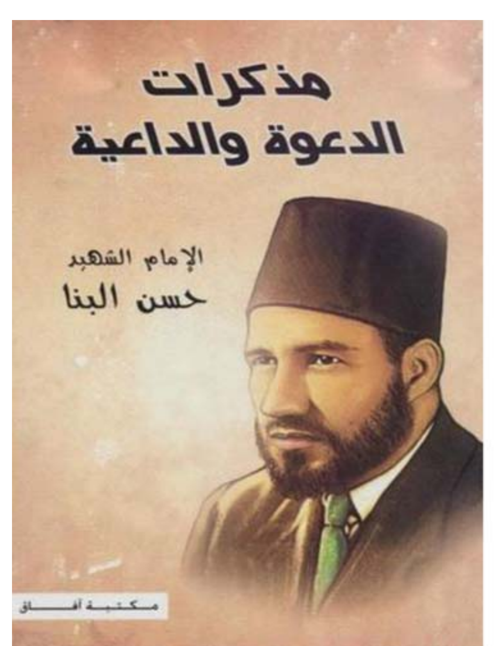


«حسن البنا يُعبد من قبل بعض أتباعه»!!

أحمد حسين، زعيم حزب مصر الفتاة (1911-1983)







ولكن يبدو بوضوح أن البنا لم يكن يُنظر إليه كقائد أو مرشد عام بدون منافس لجميع فروع الإخوان منذ البداية، على الرغم من أنه استحوذ على هذا الدور بعد سنتين، ربما عام 1932. ويدعم هذا الرأي حقيقة أن البنا أرسل، خلال الفترة من مارس إلى ديسمبر 1928، على الأقل خمس رسائل إلى والده و«لم» يَذكر حسن في تلك الرسائل أنه قد أسس أية منظمة أو أنه يسعى إلى عمل ذلك. وينطبق الشيء نفسه على مذكرة عام 1929، حيث لا توجد إشارات إلى الجماعة. وحتى عام 1931، استمر البنا في توقيع مقالاته في مجلة الفتح بأنه «معلم في مدرسة ابتدائية بالإسماعيلية»، وليس «رئيس جماعة الإخوان المسلمين»!



حسن البنا والإخوة الستة الأوائل (حافظ عبد الحميد، أحمد الحصري، فؤاد إبراهيم، عبد الرحمن حسب الله، إسماعيل عز، زكي المغربي) الذين ناشدوه قائلين:

> **«لا نستطيع أن ندرك الطريق إلى العمل كما تدرك، أو نتعرف السبيل إلى خدمة الوطن والدين والأمة كما تَعرف، وكل الذي نريده الآن أن نقدم لك ما نملك لنبرأ من التبعة بين يدي الله، وتكون أنت المسؤول بين يديه عنا وعما يجب أن نعمل»!**

وهكذا، تم تأسيس جماعة الإخوان. الصورة التي ينقلها هذا المقطع هي للبنا الذي يملك «وحده» معرفة الطريق لخلاص المسلمين، وأن «الثقة به وطاعته» سوف تؤديان إلى النجاح! واتخذت هذه الصورة شكلاً أكثر صلابة مع استِحداث فكرة البيعة، أيْ يمين الولاء، التي أصبحت جزءًا لا يتجزأ من الحركة!



لقد تأثر البنا بعمق بإيمان والتزام هؤلاء الإخوة الستة، وعندئذ قال إنه يقبل «عبء أن يكون قائدهم»، وأطلق على الجماعة اسم «الإخوان المسلمون». لقد كانت هذه الرواية «الرومانسية» عن التأسيس التاريخي لجماعة الإخوان المسلمين «مقنعة» للغاية لقراء سيرته الذاتية «مذكرات الدعوة والداعية». ونتج عن ذلك «رفض» أعضاء الجماعة، بشكل عام، رواية أحمد السكّري وأنصاره. ومن خلال سيرته الذاتية، نجح البنا في إثارة بعض تلك المشاعر القوية، التي لم تؤثر في أعضاء جماعة الإخوان المسلمين فحسب، بل أثّرت في قطاعات أكبر من جيل الشباب الذين كانوا وقتها يتذوقون الجو الوطني لمصر ما بعد الحرب.



عناصر نهضة المسلمين وفقًا لحسن البنا:
الأزهر + الطرق الصوفية + الحركات الإسلامية (كالإخوان المسلمين)!!

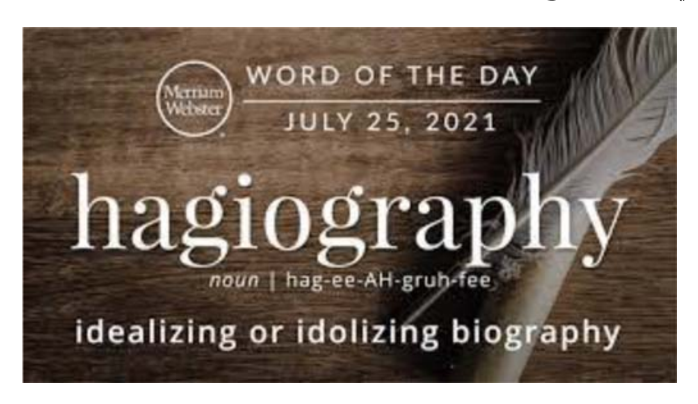
لقد رأى البنا أن الأمة الإسلامية الموحدة والقوية تتكون من ثلاثة عناصر: علماء الأزهر، والطرق الصوفية، والجمعيات الإسلامية:

> «ولو أراد الله والتقت قوة الأزهر العلمية بقوة الطرق الروحية بقوة الجماعات الإسلامية العملية، لكانت أمة لا نظير لها: توجه ولا تتوجه، وتقود ولا تنقاد، وتؤثر في غيرها ولا يؤثر شيء فيها، وترشد هذا المجتمع الضال إلى سواء السبيل».

وبهذه الطريقة، حوّل البنا الصوفية إلى عنصر من عناصر رؤيته لنهضة إسلامية وطنية: أمة قوية وموحدة قائمة على كل من المؤسسات الإسلامية التقليدية (الأزهر والصوفية) والحركيّة الإسلامية المنبثقة ممثلة في الجمعيات الإسلامية (كالإخوان المسلمين).



وإذا كانت هذه السمات «التبجيلية والتمجيدية» الموجودة في سيرة البنا شائعة وتماثل ما نجده في النوع الأدبي المعروف بـ «السِّيرة التقديسيّة» (هاغيوغرافي، Hagiography)، فإن كتاب البنا يتميز عنها باستخدام «حكايات خيالية» و«نقل وتبديل موضع الأحداث» من فترة إلى أخرى. وكما بيّنا، لا يمكن فهم هذه السيرة الذاتية دون فحص وبحث هذه الجوانب الروائية «الخيالية»، حيث تُعاد كتابة الأحداث والقضايا المتصلة بأزمة 1947. ومن ثمّ، «تغيير موضعها» عبر «غرسها في سردية تاريخ الجماعة المبكر».



الفصل الثاني

من الأفغاني إلى البنا:
الآباء المؤسسون للإسلاموية المعاصرة(*)

(ديسمبر 1997)



المستشرق البروفيسور الراحل يوهانس يانسن

(*) ورقة نوعية للمستشرق الهولندي الراحل البروفيسور يوهانس يانسن (1942–2015) نشرت عام 1997. حصل يانسن على الدكتوراه في اللغة العربية عام 1974 من جامعة لايدن الهولندية. أقام في مصر منذ عام 1966 ثم عمل، لعدة سنوات، مديرا للمعهد الهولندي في القاهرة. ومنذ عام 1983، أصبح أستاذا مشاركا للدراسات العربية والإسلامية بجامعة لايدن في هولندا. وتُرجم أول كتبه «تفسير القرآن الكريم في مصر المعاصرة» (لايدن: بريل للنشر، 1974) إلى البوسنية والتركية والعربية والإندونيسية. أصدر 13 كتابا في الدراسات الإسلامية؛ منها كتابين مهمين ومرجعيين باللغة الإنكليزية: «الفريضة الغائبة: عقيدة قتلة السادات والصحوة الإسلامية في الشرق الأوسط» (نيويورك: ماكميلان للنشر، 1986)؛ و«الطبيعة المزدوجة للأصولية الإسلامية» (لندن: هيرست وشركاه للنشر، 1997). كما أنه مؤلف ترجمة لمعاني القرآن باللغة الهولندية. (العيسى)

من الأفغاني إلى البنا:
الآباء المؤسسون للإسلاموية المعاصرة

سيطرت شخصيتان على تاريخ الإسلام في القرن العشرين: جمال الدين الأفغاني وتقي الدين أحمد بن تيمية، اللذان عاشا على التوالي في القرنين التاسع عشر والثالث عشر.

يبدأ تاريخ الحركة الأصولية الإسلامية [المعروفة حاليًا بـ «الإسلام السياسي» أو «الإسلاموية»] في الإسلام المعاصر مع أنشطة الأفغاني في القاهرة أثناء إقامته هناك بين سنتي 1871-1879[1]. وقد كانت هذه الفترة مهمّة في تاريخ مصر الحديث؛ فقد افتُتحت قناة السويس في مهرجان باذخ ومبهر في نوفمبر 1869. وفي عام 1876، شكّلت بريطانيا وفرنسا لجنة لإدارة الاقتصاد المصري حتى يتم سداد الديون التي تكبّدتها مصر بسبب هذا المشروع. وشهدت مصر عام 1882 تمرّدًا عسكريًّا فاشلًا بقيادة العقيد أحمد عرابي[2]. وأُخفي «عمدًا» معظم ما قاله وفعله جمال الدين الأفغاني (1838-1897) إبان تلك المرحلة. لذلك، تختلف التفسيرات والتبريرات؛ ولكن لا يوجد سبب للشك في أن أفكاره حينها كانت تتكوّن بالفعل من مزيج من الفلسفة الإسلامية والفكر الإصلاحي وكراهية شديدة للأجانب [زينوفوبيا، xenophobia]. ومهما كانت «كراهية الأجانب» منطقية ظاهريًا في السياق السياسي للمنطقة في ذلك الوقت، فإنها كانت أيضًا بمثابة مؤشر ونذير مبكر لانبثاق الفكر الأصولي في القرن العشرين[3].

أثبتت البروفيسور نيكي كيدي في بحثها النوعي المنشور عام 1972 أن جمال الدين الأفغاني كان شيعيًا إيرانيًا

لم تكن أفكار الأفغاني في فترة القاهرة وحدها موضع جدل، بل اختلف العلماء حول هويته العرقية والدينية: هل كان سنيًا أفغانيًا أم شيعيًّا إيرانيًّا؟

ولكن بعد البحث النوعي [الجبار] الذي نشرته البروفيسور نيكي كيدي[4](*) عام 1972، لم يعد هناك شك في أنه كان شيعيًا فارسيًا. ووفقًا لمراجع معاصرة له، كان يتحدث الفارسية مثل إيراني ويتحدث التركية مثل أذربيجاني. وتشير الأدلة الوثائقية إلى أنه ولد في شمال غربي إيران[5]. ولكن في اتصالاته مع المسلمين العرب السنة، اتخذ جمال هُوية أفغانية. و[معظم] الأفغان، كما هو معروف، هم من المسلمين السنة. وبالطبع، لا ينبغي الحكم على انتحال هوية مزيفة كهذه الحالة من وجهة نظر الأخلاق الحديثة؛ لكن، حتى من وجهة النظر هذه، يمكن المجادلة بأنه إلى جانب الصراع في نهاية القرن التاسع عشر بين الإسلام والغرب، فإن الاختلافات في ذلك الوقت بين الإسلام السني والشيعي كانت خافتة.

لقد عاش الأفغاني في وقت كان فيه الغرب في ذروة قوته، وكان الغرب يحتل جميع دول العالم الإسلامي تقريبًا؛ فمنذ غزو نابليون بونابرت مصر عام 1798، استخدمت القوى الأوروبية أراضي المسلمين لغرضين:

(أ) مسرحًا لنزاعاتها؛ و

(ب) جائزة للمنتصر في تلك النزاعات.

وخلال وجود الأفغاني في مصر، كان قد مضى قرن على اتصال العرب المسلمين المباشر بـ «أوروبا ما بعد التنوير»[6]، وكانت الضغوط لتغريب وفرنجة الشعوب العربية عنيدة ومتواصلة.

لقد كان رد الأفغاني على التحدي الغربي سياسيًّا ودينيًا. فوفقًا لمرجع معاصر[7]، حدّد الأفغاني سببين لانحطاط العالم الإسلامي:

الأول كان «**العَصَبِيّة**»، ويقصد به إساءة تفسير النصوص الدينية «عمدًا» بهدف شرعنة النظام الديني والاجتماعي القائم؛

(*) صدرت، مؤخرًا، ترجمة عربية نوعية لبحث نيكي كيدي بعنوان **جمال الدين الأفغاني: سيرة سياسية**، الدوحة، منتدى العلاقات العربية والدولية، عام 2021، 592 صفحة، ترجمة: معين الإمام ومجاب الإمام. (العيسى).

والثاني هو «**الاستبداد**»، الذي اعتقد الأفغاني أنه لا يمكن القضاء عليه إلا بإقامة نظام برلماني حديث، أي بإزالة الحكومات الموجودة في عصره. وقد اقتبست الحركات الأصولية اللاحقة من الأفغاني هذه الفكرة، بغضّ النظر عن أي اختلاف في الكلمات والعبارات وبعض التفاصيل الصغيرة هنا وهناك.

وبتأثير من نظرية «**الأهلانية**»(*)، أعاد الأفغاني خلق ماضٍ مجيد للعالم الإسلامي الذي كان تحت ضغط غربي شديد منذ بداية القرن التاسع عشر الذي أكمل خلاله البريطانيون غزو واحتلال الهند، واحتل الهولنديون إندونيسيا، واحتل الروس بلاد القوقاز وتركستان. وكذلك استقرّ البريطانيون في عدن والخليج، وتعرضت أفغانستان وبلاد فارس للغزو مرارًا وتكرارًا، واحتلّت فرنسا الجزائر عام 1830، وشرعت في إخضاع معظم دول إفريقيا المسلمة[8].

في ضوء التطوّرات اللاحقة، من المثير للاهتمام أن الأفغاني ألقى خطبة عامة في الإسكندرية في مايو 1879، ذكر فيها أمثلة عن المجد القديم الذي ينبغي استعادته؛ ولكنه لم يقتبس أمورًا من تاريخ الإسلام بل من قدماء المصريين والكلدانيين والفينيقيين «الذين علّموا اليونانيين فن الكتابة»[9]. وبعد قرن من الزمان، أصبح معظم المسلمين لا يستعملون إلا مصطلحات تحقيرية لوصف تاريخ ما قبل الإسلام، إذ أصبح أكثر المسلمين يعتقدون أن فترة ما قبل الإسلام كانت مرحلة شاع فيها الفسق والفوضى والأمية والهمجية. ولذلك، سمّيت بـ «**الجاهلية**».

مثل معظم القادة الأصوليين اللاحقين في النصف الثاني من القرن العشرين، كانت لدى الأفغاني بدون شك خطط سياسية فورية وتضمّنت على الأرجح دورًا قياديًا بارزًا له، وبالطبع لم تتحقّق، ولكنه كان قادرًا على إلهام

(*) نظرية **الأهلانية (NATIVISM)**: فكرة تقوم على حماية مصالح أهل البلاد الأصليين وتقديمها على مصالح المهاجرين إلى تلك البلاد أو الطارئين عليها. (العيسى)

المثقفين المصريين الشباب لأنه وفّر جسرًا بين ثقافتهم التقليدية والأفكار السياسية الحديثة المختلفة[10].

وهكذا، أدى مزج جمال الدين بين الفلسفة الإسلامية والتقاليد الباطنية الشيعية إلى تحقيق أهداف سياسية عملية قدّمت أفكارًا لا يمكن أن يقدمها المفكر التقليدي ولا المفكر المتشكك أو المتفرنج[11].

لاستعادة النهضة الإسلامية...
هل تجب إعادة تفسير الإسلام أم إعادة تطبيقه؟

كتب الأفغاني مع محمد عبده عددًا كبيرًا من المقالات في مجلتهما «**العروة الوثقى**»، وجادلت تلك المقالات مرارًا وتكرارًا بأن الغرب ليس قويًا كما يبدو ظاهريًا، وبأن هزيمته ممكنة. إن لغة تلك المقالات ليست صعبة، ولكن ليس من السهل دائمًا استيعاب ما يحاولان قوله! أحيانًا يكون المضمون غامضًا، على الأقل بالنسبة إلى القارئ الذي لا يعرف بالفعل ما الذي يسعى الأفغاني إلى إثباته. وتكشف هذه المقالات ضمنيًا المعضلة التي، حسب الأفغاني، تنبع بالضرورة من انحطاط العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر والتي تتمثل في الإجابة عن السؤال التالي: **هل تجب إعادة تفسير الإسلام أم إعادة تطبيقه لاستعادة النهضة الإسلامية المنشودة؟**

لقد رأى الأفغاني أن انحطاط العالم الإسلامي كان بلا شك عقابًا إلهيًا لعدم تطبيق تعاليم الإسلام في هذه الحياة. ولكن هل يجب على المسلمين المعاصرين إعادة اكتشاف المبادئ الحقيقية للإسلام من خلال إعادة تفسير النصوص المقدسة، أم يجب عليهم محاولة إعادة تطبيق وتنفيذ قواعده التقليدية بدقة وفق تلك النصوص؟

خلال القرن الذي أعقب الأفغاني، تغيّر التركيز تدريجيًا من إعادة التفسير إلى إعادة التطبيق. ويعكس هذا التغيير إلى حد ما نجاح حركات التحرّر من الاستعمار في العالم العربي والإسلامي؛ فقد كان المسلمون

المُسْتَعْمَرُونَ يميلون إلى الاعتقاد بأن عليهم «إعادة تفسير الإسلام». ومن ناحية أخرى، مال المسلمون، بعد تراجع الحكم الاستعماري، إلى الاعتقاد بأن الترتيب الإلهي للأشياء يتطلّب «تطبيقًا دقيقًا ومباشرًا» للقواعد الموجودة في **الكتب التقليدية**.

ولكن دفعت هذه **الكتب التقليدية** الشيخ محمدا عبده (تقريبًا: 1850-1905) إلى اليأس. تذكر السير الذاتية للقادة الدينيين عادة فترة من اليأس؛ ولكن، في حالة عبده، لا يوجد سبب وجيه للشك في الطابع التاريخي للأزمة، إذ قال في سيرته الذاتية عن تعليمه المبكر[12]:

«**لقد قضيت عامًا ونصف العام في الأزهر... دون أن أفهم شيئًا. فقد اعتاد الأساتذة على استخدام مصطلحات علمية في النحو والفقه لم نكن نفهمها، ولم يبذلوا أي جهد لشرح معناها لمن لا يعرفها**».

هرب عبده من الدراسة، ولكن بقي آخرون كثيرون، وأكملوا دراستهم وأصبحوا قادة وموظفين دينيين. وكانوا بتعبير عبده: «كارثة على الناس»[13].

لا يزال من السهل لأي شخص سبق له أن درس في الشرق الأوسط التعرف إلى هذا الوصف الذي يرجع تاريخه إلى 1862-1865. ويمكن سماع الشكوى نفسها اليوم من الطلاب المسلمين الذين يدرسون الإسلام أو اللغة العربية الفصحى، سواء في إندونيسيا أو المغرب. وسيكون من المفيد معرفة ما إذا كان هذا النوع من التعليم يقوي أو يضعف المجتمعات المسلمة المرتبطة به؟ وهل يمنع أصحاب العقل النقدي من أن يصبحوا قادة دينيين؟ وهل يحمي هذا النظام المجتمعات المسلمة من الثورات والإصلاحات التي يجب أن تنطلق من داخل القيادة الدينية التقليدية لكي تنجح؟ وكيف يؤثر فشل هذا النوع من التعليم على إيمان الفرد؟ وهل يؤدي النجاح فيه إلى خلق إيمان تقليدي تمامًا لا يتزعزع، ولا جدال فيه؟ وهل نجا الإسلام من الفناء ودخل القرن العشرين بالرغم من هذا النوع من التعليم أم بسببه؟

مهما كانت إجابات هذه الأسئلة، فإن عبده (الذي عاد في النهاية إلى

الأزهر وحصل على درجة العالمية عام 1877) لم يعتقد أن هذا النوع من التعليم تنتج عنه أية فائدة. ولكن لعب التعليم فيما بعد دورًا كبيرًا في فكره وأنشطته. فوفقًا لعبده، لن يعود مجد الإسلام القديم إلا بعد تحديث وإصلاح التعليم العالي والقضاء في العالم الإسلامي. ومن المحتمل أن يكون هذا التركيز العام على أهمية التعليم في كتابات عبده، في السنوات التي تلت الحرب العالمية الأولى، هو الذي ضلّل المستشرق المجري الكبير إغناز غولدتسيهر وجعله يعتقد أن عبده كان رئيسًا لجامعة الأزهر التي تمثّل قمة التعليم الإسلامي[14].

وبالرغم من أن عددًا من العلماء الأقل منزلة صحّحوا هذا الخطأ غير المهم مرارًا وتكرارًا[15]، فإنّه تكرر مرة أخرى عام 1994 في كتاب عن «**تاريخ اللاهوت الإسلامي: من محمد إلى الآن**» وهو من تأليف مستشرق ألماني بارز، ومن المفترض أنه أعاد قراءة كتابات عبده عند إعداد هذا العمل. وبالرغم مما تقوله المصادر الثانوية، فقد افترض مرة أخرى أن عبده كان موظّفًا مهمًا في جامعة الأزهر، ولا شك في أنه استند إلى غولدتسيهر ليقول إنه كان رئيسها[16]. في الواقع، كان ارتباط عبده بالأزهر غير رسمي، وتقتصر تلك الرابطة على قيام عبده بتقديم مقترحات لإصلاح الأزهر إلى الخديوي عباس، وتم تنفيذ جزء منها فقط[17]، وهذا بلا شك يعد نجاحًا. وفي مسيرتي الأفغاني وعبده كانت النجاحات نادرة، ولم يُنظر إليهما بوصفهما شخصيتين مهمتين في تاريخ الإسلام الحديث إلا بعد سنوات عديدة.

وفي حين يمكن القول بسهولة إن موقف الأفغاني الأيديولوجي كان بكل تأكيد ينذر ويبشر بانبثاق الأصولية الإسلامية الحديثة، فإن هذا الأمر يعد أقل وضوحًا مع عبده الذي تمتع بسمات لا تجعله سلفًا محتملًا للأصولية الإسلامية الحديثة؛ كعدم وجود مشاعر معادية للغرب لديه، وإصراره على الوضوح، ونفوره من الإيمان الساذج في المعجزات![18].

لكن على الرغم من ذلك يعدّ محمد عبده من الآباء المؤسسين للأصولية الإسلامية الحديثة، ولو فقط بسبب ارتباطه الوثيق بالأفغاني وانتقاده سطحيةَ رجال الدين التقليديين. ويسود في الأدبيات السياسية الإسلامية «التقليدية» افتراض راسخ أن الحكم العادل يتحقق بمعرفة وتطبيق الحاكم للشريعة وتشاوره مع العلماء. وقد قدّم عبده نسخة «متوسطية حديثة» من هذا الافتراض عندما جادل بأن «**المستبد العادل**» هو الوحيد القادر على تحديث الشرق الإسلامي[19]. أكثر من ذلك، بما أن عبده هو مؤلف [قسم من] تفسير القرآن «**المنار**» الذي يُقرأ على نطاق واسع في الوقت الحاضر، فإن سمعته وشهرته خلقتا المؤهلات والخلفية السنية لما سيصبح **أصولية إسلامية حديثة.**

إن زعم الحركة التي أسسها الأفغاني أنها مطابقة «للإسلام السني» الحقيقي كان سيكون مثيرًا للضحك والسخرية بدون اجتهادات عبده الإصلاحية. ربما لم يكن عبده مُنظِّرًا عظيمًا، ولكنه كان مفتي مصر، وهذا المنصب يجعله جديرًا بأن يكون أبًا مؤسسًا للأصولية الإسلامية الحديثة. **لقد كتب الأفغاني وعبده**[20] **في «العروة الوثقى» أن المسلمين لا يعرفون جنسية سوى دينهم وعقيدتهم. وإذا أخذنا هذا الكلام على محمل الجد، فإنه يقوّض شرعية الحكومات الوطنية العلمانية في العالم العربي الإسلامي، وبقراءة حرفية، يُنذر ببزوغ الأصولية الإسلامية الحديثة ومعركتها الدموية ضد الأنظمة الوطنية الحديثة في ذلك العالم.**

في عام 1897، سافر شخص ولد وتعلّم في سوريا اسمه محمد رشيد رضا (1865-1935)[21] إلى مصر ليرافق محمد عبده بعدما جذبته بشكل خاص محتويات مجلة «**العروة الوثقى**». وبسرعة أصبح أحد أقرب تلاميذ عبده، ومعه اقتربت حركة الأفغاني خطوةً أخرى من الاتجاه السائد للإسلام السني. ولم يكن رضا بالتأكيد مجرد متفرج، بل شارك بحماس في النقاشات المعاصرة حول كيفية عودة مجد الإسلام. وتحدثت مصادر معاصرة له عن تأثيره الكبير في عبده الذي شرع بتردّد، تحت ضغط رضا، في تأليف تفسير القرآن المعروف الآن باسم «**تفسير المنار**» الذي ألف النصف الأخير منه رضا[22].

ترتبط شهرة رضا ارتباطًا وثيقًا بدورية «**المنار**» التي أسسها كمجلة أسبوعية عام 1898 [ثم تحوّلت إلى مجلة شهرية]، واستمرت في الصدور بشكل شهري حتى وفاته عام 1935. وتعد المنار أول محاولة جادة لاستخدام وسائل الإعلام الحديثة بشكل منهجي كوسيلة لنصرة الإسلام، ونوقشت فيها مواضيع متنوّعة تعكس تاريخ الإسلام في العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين. وفي عصر رضا، أصبح من الشائع استخدام الصحافة لخدمة قضية الإسلام، وأصبحت حركة الأفغاني مرتبطة بشكل لا رجعة فيه بالإسلام السني.

نشر رضا عام 1923 كتاب «**الخلافة أو الإمامة العظمى**». ومن الصعب إنصاف النيّات الحسنة والأهداف التعليمية لهذا الكتاب. لقد دُرس على نطاق واسع[23] وترجمه إلى الفرنسية المستشرق هنري لاؤوست[24]، وكتب عنه البروفيسور مالكولم كير عام 1965: «**بالنسبة للإصلاحيين الحداثيين مثل رشيد رضا فإن الخلافة ليست سوى وسيلة لتحقيق غاية. هذه الغاية هي تطبيق الشريعة... وفي منتصف الستينيات، كان مطلب تطبيق الشريعة لا يزال يُنظر إليه على أنه حلم ديني بريء وبعيد المنال**». وفي غضون ذلك، أدى صعود الأصولية إلى خلق وضع أصبح فيه كل صحافي غربي يرى أن مطلب تطبيق الشريعة قد أصبح شعار الأصولية الإسلامية[25].

لم تكن رغبة رضا في تطبيق الشريعة هي فقط التي تربط رشيد رضا بالأصولية الإسلامية الحديثة؛ ولكنه أيضًا المفكر المسلم الذي أعاد اكتشاف ابن تيمية (1263-1328)، عندما أعاد تحرير ونشر [بعض] أعماله في عام 1925[26]. وهكذا نجح رشيد رضا في جعل ابن تيمية الشخصية المركزية في النقاش الديني والسياسي في العصر الحديث، إذ لم يعد يوجد عالم مسلم يُستشهد به بشكل متكرر وعلى نطاق واسع أكثر من ابن تيمية في الكتابات الأصولية الحديثة[27]. ومن بين جميع الآباء المؤسسين للإسلام الكلاسيكي، أصبح ابن تيمية السلطة المهيمنة في النقاش «الحديث» حول الإسلام والسياسة.

يثير هذا الوضع مشكلات عديدة، بعضها غير متوقع: أولًا، يبدو أن ابن تيمية أدان قتل المستبدين[28]، في حين أن الأصوليين المعاصرين يرون ذلك واجبًا دينيًا. وفي نهاية كتابه الشهير **السياسة الشرعية**، يقول ابن تيمية: «**ولهذا يقال إن السلطان ظل الله في الأرض، ويقال: ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان**».

من الواضح أن استعمال بادئة «يقال» لتعزيز صدقية هذا الرأي لا تعادل الجاذبية والصدقية الصلبة للاستشهاد بالقرآن أو السنة. وبالطبع، لا يمكن لسلطة «يقال» أن تساوي سلطة القرآن أو السنة. ولذلك، لا تساعد هذه العبارة في ترسيخ سمعة ابن تيمية كأبٍ روحي للحركة الأصولية الحديثة.

ثانيًا، شبّه كثير من علماء المسلمين المعاصرين، ومنهم مفتي مصر الشيخ جاد الحق علي جاد الحق[29]، الأصوليين المعاصرين بطائفة الخوارج القديمة. أبرز أوجه التشابه بين الأصوليين المعاصرين وطائفة الخوارج القديمة هو اعتقاد كلتا المجموعتين أن من لا يعيش وفق شريعة الله فهو كافر وبالتالي يجب أن يفارق المجتمع المسلم. مفارقة الأمة الإسلامية تعني الحكم بالإعدام. وحسب بعض المصادر، فإن كلا الفريقين يقتبسان نفس آيات القرآن لتسويغ تطلّعاتهما العنيفة.

المفارقة هي أن حركة الخوارج هذه في القرن السابع كانت محل غضب ابن تيمية الذي يستشهد به الأصوليون الحاليون على نطاق واسع. كتب ابن تيمية عن الخوارج في مناسبات عديدة[30]: «تخبرنا العديد من الأحاديث الموثوقة عن النبي أنه قال: «**سيخرج في آخر الزمان قوم أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم عند الله يوم القيامة**»[31]. ويواصل ابن تيمية: «خاض الخليفة علي بن أبي طالب والصحابة المؤيدون له حربًا شاملةً[32] ضد الخوارج، وكان هناك إجماع واسع بين المسلمين الأوائل على وجوب محاربة هؤلاء الخوارج. وفي الحربين الأهليتين السابقتين[33]، انقسم الصحابة إلى ثلاث مجموعات: قاتل بعضهم بجانب علي، وقاتل البعض في

الجانب الآخر، وظل بعضهم على الحياد؛ ولكن لم ينضم أيّ صحابي إلى الخوارج، ولم ينه أي صحابي عن قتالهم...».

عندما أكد ابن تيمية إدانته خوارج القرن السابع كان هدفه الواضح والحقيقي إقناع المسلمين في عصره بأن المغول (التتار) «الذين يغزون سوريا مرارًا وتكرارًا» وقتها[34] كانوا «**أسوأ من أولئك الخوارج**». وكان يُعَلِّمُ الناس أن على كل مسلم صالح أن يفهم أن دينه يفرض عليه محاربة الخوارج، ويجب بالمثل أن يقتنع كل مسلم صالح بأن دينه يفرض عليه محاربة المغول (التتار)، لأن التتار يمثلون شرًّا أكبر من شرّ الخوارج.

إن تعاليم ابن تيمية المتعلقة بالمغول تعد حالة واضحة لما يسمى بـ «لاهوت الحرب». لقد شارك في حركة مقاومة الغزو المغولي لسوريا ومصر. وقاد هذه الحركة المماليك السُنَّة الذين حكموا مصر وسوريا، مثل الملك المنصور حسام الدين لاجين (ح: 1296-1299). وخاض المماليك حربًا ضد المغول وملكهم غازان (محمود غازان بن أرغون، 1271-1304)، المنحدر من السلالة المباشرة لجنكيز خان (1155-1227) من نسل حفيده هولاكو (1215-1265) الذي احتل بغداد عام 1258 ونهبها وأسقط الخلافة العباسية. ولكن اعتنق غازان الإسلام الشيعي عام 1295. وكان جيشه يضم قبائل مسلمة وغير مسلمة، وكان بلاطه يضم المؤرخ الفارسي رشيد الدين فضل الله الهمذاني الذي كتب عن لقاء ابن تيمية وغازان: «اجتمع ابن تيمية بأعيان دمشق يوم الاثنين 3 ربيع الآخر 699هـ (الموافق 28 ديسمبر 1299)، واتفقوا على السير إلى السلطان غازان الموجود في بلدة النبك المجاورة والتحدث إليه. فلما وصلوا إلى غازان ودخلوا عليه أخذ ابن تيمية يحث السلطان بقول الله ورسوله بالعدل ويرفع صوته ويقرب منه في أثناء حديثه حتى قرب أن تلاصق ركبته ركبة السلطان، والسلطان مع ذلك مقبل عليه ومصغٍ لما يقوله. وقال ابن تيمية للترجمان: «قل لغازان إنك تزعم أنك مسلم ومعكً قاضٍ وإمام وشيخ ومؤذنون، على ما بدا لنا فغزوتنا وأبوك وجدك كانا كافرين وما عملا الذي عملت، عاهدا فوفيا وأنت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت وجرت». ثم ترك ابن تيمية غازان وشكره الأخير على حسن نيته وبذل

نفسه من أجل حماية المسلمين من إراقة الدماء. ومع أنه حصل على وثيقة أمان من غازان إلا أنهم نقضوها ونهبوا المدينة[35].

إن إشارة ابن تيمية إلى وجود المؤذنين في المعسكر المغولي لها أهمية خاصة، لأنها تتعارض مع مقولة مشهورة في إحدى فتاواه[36]: «**وقد شاهدنا عسكر القوم فرأينا جمهورهم لا يصلون، ولم نر في عسكرهم مؤذنًا ولا إمامًا، وقد أخذوا من أموال المسلمين وذراريهم وخربوا من ديارهم ما لا يعلمه إلا الله**».

إن نصّ المؤرخ الفارسي رشيد الدين فضل الله الهمذاني يتناقض على نحو صارخ مع نص أصيل وموثق جيدًا لابن تيمية. فهل يمكن اعتبار التناقض دليلًا على دقة تقرير الاجتماع بين غازان وابن تيمية؟ كما يمكن أن يكون هناك القليل من الشك أيضًا في أن المغول كان لديهم مؤذنون في معسكرهم، ولو فقط ليؤذنوا لحلفائهم المسلمين من غير المغول!

في الواقع، من الأسهل أن نتخيّل أنه في فتاواه، التي كانت تهدف إلى إعداد الناس لمحاربة التتار الغزاة، ذهب ابن تيمية إلى أبعد مما تسمح به الحقائق بشكل صحيح، وهي ظاهرة ليست نادرة في الحروب الدعائية. وكان من الممكن أن يشير مثل هذا الحماس في محادثة فعلية مع ملك مغولي إلى عدم التحضر.

وتستمر السيرة التقديسية في إخبارنا كيف ذهب ابن تيمية عام 700/ 1300 إلى القاهرة، عاصمة المماليك، حيث: حث الناس على الجهاد، وتلا عليهم آيات من القرآن وكذلك أحاديث من سنة الرسول، وأخبرهم عن الثواب العظيم لمن يحاربون الكفار.

ترى: بأية معايير يمكن اعتبار غازان كافرًا بعد إسلامه عام 1295؟ هنا تبرز عبقرية ابن تيمية الفقهية!! لقد أدت حرب المماليك-المغول إلى ضرورة تصوير الأعداء المغول على أنهم أشرار، ومن، في الشريعة الإسلامية، أكثر شرًّا من مرتد عن دين الله؟ ولتصوير المغول على أنهم مرتدون عن الإسلام، وضع ابن تيمية، ببراعة ودهاء، نظرية يمكن من خلالها تصوير المغول على أنهم مرتدّون بالرغم من اعتناقهم الإسلام. لقد أكد ابن تيمية مرارًا وتكرارًا أنهم لا يطبقون الشريعة

الإسلامية؛ ولكنهم يتبعون قانونهم العرفي المعروف باسم «الياسق»[*].

تختلف الشريعة الإسلامية عن قوانين وأعراف شعوب الشرق الأوسط. وقد دُرست هذه الاختلافات ونُوقشت على نطاق واسع؛ لكنها تتضاءل عند مقارنة الشريعة الإسلامية، على سبيل المثال، بالقانون العرفي لدولة «بابوا غينيا الجديدة» مثلًا أو القانون العرفي لمغول آسيا الوسطى في القرن الثالث عشر الميلادي. لقد كان موقف ابن تيمية آمنًا ومحسوبًا بدقة، وكان يقف على أرض صلبة. إذا تخلى التتار المسلمون حقًا عن قانونهم العرفي وطبّقوا الشريعة، فإن هذا سيؤدي إلى اضطراب تامّ في حياتهم الاجتماعية؛ وهو ما سيكون له بالتأكيد عواقب سلبية على فعاليتهم العسكرية. يدرك علماء الإسلام الأكثر تقليدية التأثير التخريبي لرفض الأعراف القائمة، وبالتالي يعاملون قريبي العهد بالإسلام بمرونة ولين. ولكن المرونة واللين لم يكونا ما كان يبحث عنه ابن تيمية. لقد أراد أن يصف المغول بأنهم أناس أعداء للمسلمين

(*) الياسق، أو «الياسا» هو «قانون عرفي» وضعه جنكيز خان في عام 1206، ويوضح بعض الأحكام التي تتعلق بالجزاء والعقاب التي تهدف لنشر الأمن في جميع أرجاء الإمبراطورية المغولية. استطاع جنكيز خان من خلال قانون «الياسق» أن يقضي على أسباب الفوضى في إمبراطوريته وينشر الأمن في كافة الأنحاء الخاضعة لحكمه والممتدة عبر هضبة منغوليا، ويكشف قانون «الياسق» كراهية جنكيز خان للسرقة والزنا وشرب الخمر والظلم. و«الياسق» في الأصل كلمة مغولية، تعني القاعدة أو القانون أو الحاكم، وقد وردت على أكثر من وجه في العربية والفارسية، فنجدها ياسا أو ياسه، وقد تظهر على الشكل التالي: يساق أو ياساق أو يسق، وهو الحكم الذي يصدر من الأمير أو الحاكم. ومن أحكام الياسق أو الياسا التي ذكرها المؤرخ والأديب القلقشندي (1355-1418): الزاني يُقْتَلُ؛ من يُساعد أحد خصمين على الآخر يُقْتَلُ؛ من بال في الماء يُقْتَلُ، من أُعطي بضاعة فخسر، ثم أُعطي ثانية فخسر، ثم أُعطي ثالثة فخسر، يُقْتَلُ! من ذَبَحَ ذَبْحَ المسلمين يُقْتَلُ. (فقد كان المغول يعمدون إلى لف قوائم الحيوان للذبح وشق جوفه، حيث يدخل أحدهم يده إلى قلبه، فيمرسه في يده حتى يموت)؛ من وجد عبداً هارباً أو أسيراً قد هرب؛ ولم يرده إلى صاحبه يُقْتَلُ؛ من أطعم أسير قوم أو كساه بغير إذنهم يُقْتَلُ؛ من وقع حمله أو قوسه أو شيء من متاعه وهو يكر أو يفر في حالة قتال وكان وراءه شخص فإنه ينزل ويناول صاحبه ما سقط منه، فإن لم ينزل ولم يناوله قُتِلَ؛ لا يختص أحد بأكل شيء وغيره يراه، بل يشركه معه في أكله ولا يتميز أحد منهم بالشبع على أصحابه؛ وإن مرّ أحدهم بقوم وهم يأكلون، فله أن ينزل ويأكل معهم وليس لأحد أن يمنعه؛ منعهم من غسل ثيابهم، بل يلبسونها حتى تبلى. منع أن يقال لشيء أنه نجس، فإن جميع الأشياء طاهرة؛ ألزمهم ألا يتعصبوا لشيء من المذاهب؛ إلزام نساء العسكر بالقيام بما على الرجال في مدة غيبتهم في القتال. (العيسى، بإيجاز وتصرف عن عدة مصادر معلوماتية)

من فئة دون البشر. يقول ابن تيمية:

«هناك إجماع على أن الشخص الذي يسمح باتباع دين آخر غير دين الإسلام، أو تطبيق قانون آخر غير شريعة محمد، يعدّ كافرًا؛ بل إن كفره مذكور صراحة في القرآن[37]: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[38].

بعبارة أخرى، فإن غازان، الذي «سمح وجعل من الممكن» لجنوده اتباع القانون العرفي المغولي، ارتكب جريمة الردة لسماحه بذلك، وأصبح من الآن فصاعدًا عدوًا لدودًا لجميع المسلمين. وهكذا، من خلال حكم شعب مسلم جزئيًا بقوانين أخرى غير الشريعة الإسلامية، أصبح غازان مرتدًّا عن الإسلام، ويواصل ابن تيمية بدون ذكر المغول:

«من القواعد الراسخة في الشريعة الإسلامية أن عقوبة المرتد أشد من عقوبة من لم يكن مسلمًا في يوم من الأيام»...[39] وتجب محاربة أي مجموعة من الأشخاص يتمردون على أي قاعدة من تعاليم الإسلام الواضحة والمنقولة بشكل موثوق، وفقًا لجميع علماء الإسلام البارزين، حتى لو نطق أعضاء هذه المجموعة علنًا وبشكل رسمي بالشهادة...[40] لطالما اتفق الأسلاف وكبار الأئمة على وجوب محاربتهم. وكان أول من فعل ذلك الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وطوال عصر الخلفاء الأمويين والعباسيين، استمر قادة الجيوش المسلمة في القيام بذلك، حتى عندما كانوا هم أنفسهم ظالمين، وليسوا مسلمين صالحين[41]. وكان الحجاج وقواده من ضمن من قاتلوهم. وأمر جميع أئمة المسلمين بقتالهم[42].

وأخيرًا تم ذكر التتار:

فالتتار وأمثالهم أكثر تمرّدًا ضد شريعة الإسلام من أولئك الخوارج. ومن

يشك في وجوب محاربتهم فهو جاهل بالإسلام. ولما كان قتالهم واجبًا فلا بد من قتالهم حتى لو كان بينهم من أُجبر على الالتحاق بصفوفهم[43].

وبالرغم من أن ابن تيمية كان يفكر في أعدائه التتار عندما كتب هذه السطور في القرن الثالث عشر، فإنّ كلماته ستبدو معتادة ومفيدة بالنسبة إلى بعض المسلمين في القرن العشرين الذين يطالبون حكامهم بتطبيق الشريعة. فعلى سبيل المثال، يعيش المسلمون المعاصرون في مصر وسوريا أيضًا تحت حكام يطبّقون قوانين مخالفة للشريعة الإسلامية.

لقد صاغ ابن تيمية فتواه المناهضة للتتار بمصطلحات عامة ونَظَرِيَّة، بحيث يمكن اعتبار الحكام الحاليين في العالم الإسلامي مرتدين بالمثل وفقًا للقواعد التي وضعها للتتار. وبالرغم من أن فتوى ابن تيمية للتتار كانت تفرضها الظروف العسكرية الخاصة بحروب المماليك-التتار في عصره، فإن العديد من المسلمين المعاصرين يفضّلون اعتبار هذه الفتوى قابلة للتطبيق بشكل عام وصالحة لكل مكان وزمان.

وقد ارتبط فقه ابن تيمية الحربي المناهض للتتار بالعالم الشهير ابن كثير (تقريبًا: 1300-1383)، كما ورد في تفسيره للآية 4 من سورة المائدة: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ (المائدة، 44).

وتُتلى هذه الآية يوميًا في القرن العشرين، من إندونيسيا إلى المغرب، للتأكيد على شجب الحكام العلمانيين الحاليين وأنظمتهم. أولئك الذين يقتبسونها يفهمون كلمة «يحكم» العربية ويربطونها برئيس الدولة أي «الحاكم»، ويفهمون تعبير «ما أنزل الله» بأنه يعني أحكام الشريعة الإسلامية، ويفهمون «الكافرون» على أنهم «المرتدون». وتصبح الترجمة الأصولية العصرية الكاملة كالتالي: «**بعض القادة السياسيين يولدون مسلمين ولكنهم لا يحكمون بالشريعة بل بقوانين وضعية. هؤلاء القادة مرتدون عن الإسلام، ويجب قتلهم**»!!

استخدم رشيد رضا هذه الآية بالفعل بهذه الطريقة[44]، إذ وجدها تنطبق على:

«... **كل من يبغض أن يُحكم وفق أحكام الشريعة العادلة التي أنزلها الله، ولا يحكم بها لأن لديه آراء مختلفة، أو لأن لديه مصالح دنيوية. والمقصود بهذه الآيات [المرتدين] الكفار، لأن الإيمان الحقيقي يتطلب الطاعة. والطاعة تقتضي أفعالاً، وهذا لا يتفق مع بغض أحكام الشريعة وعدم تطبيقها**».

ويفسر المفكر إيمانويل سيفان هذه الآية على النحو التالي:

«تنطبق آية ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ على الحكام المسلمين الذين يستحدثون ويبتدعون قوانين جديدة اليوم، ويتركون الشريعة التي أمرهم الله بتطبيقها. إنهم يلغون العقوبات التي يجدونها بغيضة مثل بتر يد السارق ورجم الزناة، ويستبدلونها بقوانين وعقوبات من صنع الإنسان. ومن يفعل ذلك يصبح كافرًا بدون شك»[45].

بالرغم من أن سيفان جعل موقف رضا واضحًا تمامًا، فإن إعادة صياغته كلام رضا ليست ترجمةً بالمعنى التقليدي؛ ولكن لغته الصريحة تنتج بشكل صحيح ما أراد رشيد رضا التأكيد عليه، وهو أن «العقوبات القرآنية» أو الحدود لا يمكن إلغاؤها من قبل الحكومات التي تشعر بأنها لا تصلح للقرن العشرين.

الحدود هو المصطلح الإسلامي لعدد من العقوبات الثابتة لخمسة أفعال. الأفعال هي (أ) المعاشرة الجنسية غير المشروعة، و(ب) الاتهام الباطل بالمعاشرة غير المشروعة، و(ج) شرب الخمر، و(د) السرقة، و(هـ) قطع الطريق، والعقوبات هي: الإعدام أو الجلد أو البتر[46]. يولي الرأي العام في العالم الإسلامي المعاصر أهمية لتطبيق هذه العقوبات القرآنية. وبالرغم من أن المحامين في جميع أنحاء العالم يكسبون رزقهم في الغالب من ممارسة القانون المدني، فإن الناس العاديين في جميع أنحاء العالم، بمن فيهم المسلمون، يميلون إلى تعريف وربط القانون بشكل عام وممارسيه بالقانون الجنائي. وعندما تُنفّذ العقوبات القرآنية، وخاصة عندما تحرص السلطات على

تنفيذها علانية في أماكن عامة، يرى العديد من المسلمين في ذلك علامة أكيدة على أن الحاكم يحترم الشريعة الإسلامية ويطبّقها. ولا يمكن لأية حكومة تسمي نفسها إسلامية ألا تستغل هذه الآلية التي ترسخ سمعتها وتعزّزها.

عندما نتأمل الماضي، يتضح أن رشيد رضا كان يحمل هذه المشاعر الشعبية نفسها حول العقوبات القرآنية. أكثر من ذلك، يبدو أن رضا يؤيد أيضًا وجهة النظر المتطرفة التي تدين رؤساء الدول في العالم العربي الحديث وتعدهم مرتدين عن الإسلام. ولذلك، نجد صعوبة بالغة اليوم في فهم المنطق الذي جعل جيلًا سابقًا من المستشرقين يعدون الأفغاني وعبده ورضا ليبراليين حداثيين ومتفرنجين. إن الرغبة في عودة مجد الإسلام التي شعر بها هؤلاء المصلحون الثلاثة بقوة، والظروف الاجتماعية-السياسية الخاصة التي عاشوا فيها، لم تجعلهم ليبراليين حداثيين؛ بل «**آباء مؤسسين للأصولية الإسلامية المعاصرة**».

في أكتوبر 1941، أوقفت الحكومة المصرية مجلة **المنار**، التي تولّى رئاسة تحريرها مؤخرا حسن البنا بطلب من أسرة الشيخ رشيد رضا[47]. ومع حسن البنا انبثقت عملية يمكن تسميتها بـ «**العنف الاحترافي**»، وأصبح هذا العنف جزءًا لا يتجزّأ من الحركة التي نسميها الآن «**الأصولية الإسلامية**» **أو** «**الإسلاموية**». ولكن لم يرتكب البنا وأتباعه «**العنف الاحترافي**» فحسب، بل عانوا منه أيضًا. وكان من أول ضحايا **العنف الاحترافي الإخواني** القاضي أحمد الخزندار، الذي اغتيل في القاهرة في مارس 1948؛ لأنه حكم على أحد أتباع البنا بالسجن. وفي 28 ديسمبر 1948، قُتل رئيس الوزراء المصري النقراشي على يد طالب طب بيطري يُدعى عبد المجيد حسن كان عضوًا في جماعة الإخوان المسلمين التي أسسها حسن البنا على الأرجح في أواخر عشرينيات القرن الماضي. وفي 12 فبراير 1949، اغتيل حسن البنا نفسه بالرصاص. كانت هذه الاغتيالات بالطبع مجرد «رأس» جبل الجليد. وفي عام 1969، نشر ريتشارد ب. ميتشل دراسته الكلاسيكية عن جماعة الإخوان المسلمين سيئة السمعة والتي كانت تمثل «جبل الجليد» نفسه[48].

ولد حسن البنا في أكتوبر 1906 في قرية صغيرة تدعى **المحمودية** تبعد 90 ميلًا شمال غربي القاهرة. وفي سن العشرين، عُيّن مدرّسًا للغة العربية في مدرسة ابتدائية حكومية في الإسماعيلية. وفي سبتمبر 1927، غادر القاهرة متوجهًا إلى منزله الجديد ووظيفته الجديدة. وفي الأسبوع الأخير من مايو 1929، قرأ تقارير صحافية عن حدث ديني-سياسي مهم وقع في إيطاليا في وقت سابق من ذلك الشهر(49). لقد صادق البرلمان الإيطالي على «**معاهدة لاتران**»(*) بين موسوليني والبابا. ولم تحظ المناقشة في البرلمان الإيطالي في الأسبوع الثاني من مايو 1929(50) التي سبقت هذه المصادقة باهتمام كبير في الصحافة المصرية. ولكن ألقى موسوليني خطبة مهمة في 13 مايو حول هذا الموضوع نُشرت تفاصيلها على نطاق واسع في مصر. فعلى سبيل المثال، نشرت جريدة **المقطم** المصرية في 16 مايو تقريرًا عن هذا الموضوع تحت عنوان «**خطبة موسوليني الكبرى**».

لقد أثّرت أجزاء من خطبة **موسوليني** وأجزاء من معاهدة لاتران على نحو كبير في حسن البنا وصديقين له(51). ألم تُعد هذه المعاهدة للمسيحية الكثير من مجدها القديم وقوتها؟ أكثر من ذلك، ألم تضع المعاهدة النظام التعليمي الإيطالي بأكمله في خدمة الدين الكاثوليكي؟ لقد عُزّزت مكانة رجال الدين الإيطاليين على نحو كبير، أو هكذا بدا الأمر للبنا الذي رأى أن الإسلام كان بالتأكيد بحاجة إلى الدواء نفسه!!

وحسب سيرة البنا الذاتية، فإن جماعة الإخوان المسلمين تأسست إما في **مارس 1928** أو في **ذي القعدة 1347**(52)، وهو الشهر الذي انتهى في 10 مايو 1929، أي قبل أيام قليلة من **خطبة موسوليني الكبرى** في البرلمان بشأن معاهدة لاتران. ونشرت رسالة ألّفها البنا واثنان من أصدقائه بعنوان «**مذكرة**

(*) **معاهدة لاتران (Lateran Treaty)**: هي واحدة من ثلاثة اتفاقيات أبرمت عام 1929، بين مملكة إيطاليا والكرسي الرسولي. اعترفت المعاهدة بمدينة الفاتيكان كدولة مستقلة تحت سيادة الكرسي الرسولي. كما وافقت الحكومة الإيطالية على منح الكنيسة الرومانية الكاثوليكية تعويضات مالية عن خسارة الولايات البابوية. وفي عام 1948، تم الاعتراف بمعاهدة لاتران في دستور إيطاليا بأنها تنظم العلاقات بين الدولة والكنيسة الكاثوليكية. (العيسى)

في التعليم الديني» نقلت واقتبست بالفعل من «**خطبة موسوليني**»، ما يعني بالتأكيد أن تاريخ صدورها يعود إلى ما بعد 16 مايو 1929. ولكن العجيب أنها لا تحتوي على أية إشارة إلى وجود شيء يسمى «**جمعية الإخوان المسلمين**». تُرى: ألم يكن ينبغي أن تشير إلى ذلك لو كانت جماعة الإخوان موجودة منذ أكثر من عام عندما كُتبت الرسالة؟ وهذا يجعل من مارس 1928 موعدًا أقل احتمالية لتأسيس الإخوان من التاريخ البديل، مايو 1929. ولكن من ناحية أخرى، إذا كان تاريخ **ذي القعدة 1347** (المنتهي في 10 مايو 1929) الذي أشار إليه حسن البنا باعتباره الشهر الذي تأسست فيه جماعة الإخوان المسلمين «**صحيحًا**»، فإن هذا الحدث قد تزامن تقريبًا مع **خطبة موسوليني الكبرى** حول معاهدة لاتران (13 مايو).

وتحتوي «المذكرة» على إشارة ثانية للشؤون الجارية، ما يجعل تاريخ «مايو 1929» أكثر احتمالًا من «مارس 1928» كتاريخ تأسيس جماعة الإخوان المسلمين. تبدأ المذكرة هكذا:

«بقلق بالغ انتظرنا خطة الحكومة الجديدة للتعليم... وقد نشرت الصحف الآن هذه الخطة الجديدة، ووجدنا فيها كل ما كنا نخشاه...».

ذكرت صحيفة المقطم يوم الجمعة 3 مايو 1929 باختصار الخطة لأول مرة، واستخدمت أُسلوبًا في التَّعبير يدلّ على أن الصحافة المصرية لم تكن على علم بالخطة التعليمية الجديدة أو تذكرها قبل ذلك التاريخ. ففي الخامس من مايو، حملت الصفحة الأولى من جريدة المقطم مقالًا طويلًا بعنوان «**الخطة الجديدة للتعليم الإلزامي**». يقع كلا التاريخين في الأسبوع الأخير من شهر ذي القعدة 1347هـ، وهو تاريخ تأسيس جماعة الإخوان المسلمين المذكور في سيرة البنا الذاتية.

وبالنسبة إلى البنا وصديقيْه، بدا من السخف أنه في الأسبوع نفسه الذي وافق فيه البرلمان الإيطالي المسيحي على نظام لإعطاء مساحة ووقت ومال أكبر للتعليم الديني، قررت السلطات في مصر المسلمة إعطاء مساحة ووقت ومال أقل لهذا الهدف النبيل. وفور علمهم بتفاصيل الخطة المصرية الجديدة،

لا بد أن البنا وصديقيه في الإسماعيلية قرروا القيام بشيء حيال ذلك، أي كتابة رسالة، وربما تأسيس حركة ضد الخطة المصرية. **تُرى: هل كانت هذه هي الطريقة التي انبثقت بها جماعة الإخوان المسلمين؟**

نشر عدد 14 مايو من المقطم (ص 5) النص الكامل للمرسوم الجديد. ولذلك، يمكن الآن لحسن البنا وصديقيه أن يبدؤوا العمل على تأليف الرسالة التي وجهوها ليس فقط إلى كل من يلي أمر طفل مسلم؛ ولكن أيضًا إلى الملك، والوزراء، وأعضاء البرلمان، وعلماء الأزهر، ومسؤولي وزارة المعارف، وغيرهم. وزعموا أن مشروع القانون الذي قدّمته هذه الوزارة لا يحتوي على أي شيء سوى «تغييرات غير مجدية وغير فعالة».

من المؤكد أن كلمات هذه الشكوى تبدو مألوفة لأيّ شخص يمارس مهنة التدريس اليوم؛ ولكن، في عشرينيات القرن المنصرم ربما، لم يصل موظفو الخدمة المدنية في وزارة المعارف المصرية إلى مستويات الوقار التي يتمتع بها المعلمون الآن والتي أصبحت من المسلمات، وقد يمقتون هذه الكلمات، خاصةً إذا صدرت من مدرس ريفي يبلغ من العمر 22 عامًا ولا تزيد خبرته التعليمية عن عامين.

كتاب حسن البنا «مذكرات الدعوة والداعية»
ليس سيرة ذاتية (Autobiography)... بل سيرة تقديسية (Hagiography)!!

يبدو من المعقول جدًّا أن نفترض أن إصدار هذه الرسالة (المذكرة) هو سبب التحقيق الغامض الذي أجرته معه وزارة المعارف وفقًا لسيرة البنا الذاتية (**مذكرات الدعوة والداعية**) عام 1930. لقد كانت **مذكرات** البنا غامضة بشأن الاتهامات التي تسببت في التحقيق[53]. **ووفقًا للمذكرات، فقد سخر المحققون من كل هذه الاحتمالات، بل قيل لنا إن أحد المحققين انضم إلى جماعة الإخوان المسلمين وأصبح عضوًا فيها[*] بعد أن فهم الطبيعة الحقيقية**

(*) يقول الناقد البروفيسور دانيال مندلسون (نقلًا عن الكاتب جيمس فَرَايْ): « ...**كلما زاد «الادعاء»** =

لأنشطة حسن البنا. وللأسف، لا تحدّد المذكرات اسم هذا المحقق الذي انضم إلى الجماعة، والذي سيفتخر به نسله بالتأكيد. أم أنها في الواقع ليست سيرة ذاتية (Autobiography)، بل سيرة تقديسية (Hagiography) جُمعت ونُقحت من شظايا سيرته الذاتية التي نشرها في الصحافة خلال حياته القصيرة؟

مهما كانت حقيقة الأمر، فمن الغريب أن رواية حسن البنا عن تحقيق عام 1930 لم تذكر رسالة (مذكرة) مايو 1929، التي تناولت مشروع قانون صادرًا عن وزارة المعارف، الوزارة ذاتها التي حفزت تحقيق عام 1930. وإذا كان التحقيق يتعلق ببساطة بعمل البنا السياسي، فلماذا طلبت وزارة المعارف ذلك؟ لا شك في أنّ العديد من فروع أجهزة الأمن المصرية ربما لاحظت وقررت التحقيق في أنشطة البنا في الإسماعيلية عامي 1929 و1930. الرواية الواردة في السيرة الذاتية تؤكد أن هذه الأنشطة كانت محلية تمامًا.

وحتى لو حلّت رسالة (مذكرة) مايو 1929 لغز تحقيق 1930 في سلوك حسن البنا، فإنها تخلق لغزًا آخر: لماذا لم ترد الرسالة (المذكرة) في سيرته الذاتية «**مذكرات الدعوة والداعية**»؟ بالطبع، قد تكون - ببساطة - ضاعت؛ لكن هناك تفسيرات أخرى محتملة.

لقد حدث نزاع وصدام في ربيع 1947 بين حسن البنا ونائبه أحمد محمد السكّري وهو أيضًا أحد المؤلفين الثلاثة لرسالة 1929، وتم فصل السكّري من جماعة الإخوان المسلمين(54). لقد أدى السكّري دورًا مبكرًا مهمًا في جماعة الإخوان. وبصفته نائبًا لحسن البنا، عقد اجتماعات سرية مع أحزاب وسياسيين مصريين ممثلًا لجماعة الإخوان المسلمين(55). وفي 1946-1947، وجد السكّري نفسه أحق من البنا بمنصب الزعيم السياسي للإخوان المسلمين مع استمرار حسن البنا مرشدًا روحيًا. وفي ذلك الوقت، بتعبير ميتشل، قرر تحدي دور البنا كزعيم وحيد للإخوان(56).

= الدراماتيكي في السيرة الذاتية، زاد احتمال كون الحكاية «خيالية» ومبالغ فيها»!! انظر الفصل الثالث: **عرض لكتاب «تاريخ كتب السيرة الذاتية»**، بقلم البروفيسور دانيال مندلسون، ص-183. **(العيسى)**

تمثل رسالة (مذكرة) 1929 مرحلة «مبكرة» في تفكير البنا «تسبق» رفضه للقيم الغربية الذي تجسد في مؤلفاته «اللاحقة»... كما أن محتواها لا يتوافق مع أساليب وأفكار وآراء جماعة الإخوان المسلمين

كان صراع البنا مع السكّري لا يزال حديثًا عام 1948 عندما قام أحد المتعاطفين السوريين بتجميع سيرة حسن البنا التي نشرها متسلسلة في حلقات على صفحات جريدة الجماعة[57]. ولكن من الحتمي حدوث أخطاء وإغفالات قد لا تكون مقصودة أثناء مثل هذه العملية التي قد تتطلب الاختصار والإيجاز. وربما حُذفت رسالة (مذكرة) مايو 1929 ودور السكّري في التاريخ المبكر للإخوان المسلمين عن طريق الصدفة**!!!** ثانيًا، بعكس رسائل حسن البنا التي جُمعت ثم نشرت رسميًا لاحقًا ضمن مؤلفاته[58]، فإن رسالة (مذكرة) مايو 1929 لا تقتبس وتنقل من القرآن والسنة؛ ولكنها تشير حصريًا إلى مصادر وأمثلة غربية مختلفة بمن فيهم [المربي الألماني] فريدريك فروبيل و[الأديب الفرنسي] فيكتور هوغو و[ملك بروسيا المحارب] فريدرش الكبير و[رئيس إيطاليا الفاشي] موسوليني. كما حثت القارئ على اتباع هذه الأمثلة غير الإسلامية في التعليم الابتدائي الديني. ولكن عند تأمل جميع مؤلفات البنا، نجد موقفًا مختلفًا بشكل جذري تجاه مثل تلك الأمثلة الغربية؛ لأن رسائل البنا اللاحقة تصور الغرب كمصدر لكل الشرور[59]. **ولذلك، يبدو أن رسالة (مذكرة) 1929 تمثل مرحلة «مبكرة» في تفكير البنا تسبق رفضه للقيم الغربية الذي تجسد في مؤلفاته اللاحقة. كما أن محتواها - ببساطة - لا يتوافق مع أساليب وأفكار وآراء جماعة الإخوان اللاحقة.**

وكانت صحيفة الأهرام اليومية قد نشرت بالفعل في يناير 1929 خبرًا وصورة لـ12 «مؤسسًا» لجمعية دينية مكرّسة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأشارت إليها باسم «الإخوان المسلمون». ولكن اعتُبرت الجمعية واحدة من ضمن العديد من الجمعيات الدينية التي لطالما انتشرت في مصر. ومن الناحية الرسمية بدا أنها فرع من الطريقة الحصافية، وهي واحدة من

العديد من الطرق الصوفية الإسلامية النشطة في مصر. وفي فبراير 1929، أفادت الأنباء بأنّ جماعة الإخوان المسلمين أسست فروعًا في القاهرة ونجع حمادي وأسيوط وبنها[60]. وذكرت تقارير أنها نمت بسرعة خلال عامي 1932 و1933. ومن المغري أن نفترض أن أحداث مايو-يونيو 1929 كانت نقطة فاصلة بين الإخوان كفرع إقليمي صغير للطريقة الحصافية الصوفية من جهة، والحركة الجماهيرية المنظمة التي انبثقت فيما بعد من جهة أخرى.

وفي هذه الأثناء، كانت أوروبا تمرّ بمرحلة مضطربة بسبب أنشطة الحركات الجماهيرية المنضبطة في ألمانيا وإيطاليا. وعندما اندلعت الحرب العالمية الثانية، أصبح العالم العربي بسرعة، وخاصة مصر، منطقة ذات أهمية إستراتيجية استثنائية. لم يستخفّ ممثلو دول الحلفاء التي قاتلت دول المحور بالأمر عندما اعتبر المصريون وغيرهم في المنطقة أنهم بحاجة إلى إعادة تطمين وتأمين في حالة خسارة الحلفاء للحرب. أكثر من ذلك، اتبعت الحركة المصرية الجماهيرية المنضبطة، **جماعة الإخوان المسلمين**، مبدأ «عدو عدوي صديقي». ولذلك، أبدت تعاطفًا كبيرًا مع الألمان والإيطاليين الذين كان من المتوقع أن يحرروهم من الاحتلال الأجنبي، أي البريطاني. وبالطبع، لم تكن جماعة الإخوان الوحيدة في تعاطفها مع المحور؛ فهناك مثالان بارزان هما الملك فاروق (حكم: 1936-1952) وأنور السادات، الذي أصبح رئيسًا من عام 1970 حتى اغتياله عام 1981. وتشير بعض أنشطتهما إلى تعاطف كبير مع المحور[61]. لقد غادرا المشهد بالطبع، ولكن الحركة الإسلامية الراديكالية ما زالت موجودة.

وفي ربيع 1941، اعتُبر البنا شخصًا خطيرًا إلى درجة كبيرة ونفي لبضعة أسابيع من العاصمة إلى قنا في صعيد مصر[62]، بعدما اكتشفت المخابرات العسكرية البريطانية أنه كان يستعد لتنفيذ أعمال تخريب[63]. وفي أكتوبر 1941، اعتُقل مرة أخرى مع عدد من أتباعه بعد اجتماع جماهيري، وبهذه المناسبة أوقفت الحكومة مجلة **المنار** ودوريات الإخوان المسلمين الأخرى. وبالرغم من خروج البنا من السجن بسرعة، فلا بد من أنه كان من الواضح له

أن الأمور لا يمكن أن تستمر على هذا النحو في المستقبل[64]. ولذلك، ينبغي جعل مقاومة البريطانيين أكثر احترافية. وبناء عليه، أسست الجماعة، في أواخر عام 1942 أو أوائل عام 1943، جهازًا سريًّا للقيام بعمليات خارجة على القانون ضد النظام الحالي[65]. وفي عام 1943، قامت هذه المنظمة (الجهاز السري أو النظام الخاص) بدور «**المدافع**» عن جماعة الإخوان المسلمين ضد الشرطة والحكومات المصرية المتعاقبة. وفي الوقت نفسه تقريبًا، أُعيد تنظيم هيكل جماعة الإخوان المسلمين لتصبح بشكل «أُسَر»، أي خلايا كان عدد أعضائها محددًا بخمسة أفراد فقط. وحافظ الإخوان على هذا الهيكل حتى حُلّت رسميًا من قبل حكومة عبد الناصر[66]. وفي ضوء ما سبق ذكره، ليس من المستغرب أن البنا والسكّري كانا من بين المشتبه فيهم المعتادين عند اغتيال رئيس الوزراء المصري أحمد ماهر باشا في 24 فبراير 1945، أثناء تلاوته إعلان الحرب ضد دول المحور في مجلس النواب[67].

وحتى لو بالغ بعض المراقبين والأعضاء في سرعة نمو **جماعة الإخوان المسلمين**، فلا يمكن إنكار أن عدد أعضائها زاد بسرعة مذهلة. هل كان بالإمكان أن يكون عدد أعضاء الإخوان نصف مليون عضو عام 1945؟[68]. في تاريخ الأديان، تحدث نسب نمو عالية ولكنها نادرة. فقد حققت كنيسة التوحيد في الولايات المتحدة، المعروفة شعبيًا باسم المونيز (Moonies)، معدل نمو سنويًا قدره 40٪ في الولايات المتحدة على مدى حوالي سبعة عشر عامًا منذ عام 1962، عندما رُصد نموها لأول مرة، حتى عام 1980[69]. وبغض النظر عن طريقة رؤية مثل هذه الحسابات، فإنها لا يمكن أن تعني سوى أن عدد المنضمين إلى جماعة الإخوان المسلمين يجب، لأسباب متنوعة، أن يكون مرتفعًا. إن استعداد المسلمين المصريين في هذه الفترة للانضمام إلى جماعة الإخوان يعني بالتأكيد أن دينهم في شكله الحالي يخدمهم بشكل غير كافٍ[70].

أكثر من ذلك، فإن أية «**فرقة تمرّ بأزمة**» في مجتمع مستقر ومزدهر[71]،

إذا كان هذا الوصف ينطبق على جماعة الإخوان المسلمين في أوائل الأربعينيات، تجد نفسها أمام احتمالات محدودة جدًا للتحرك؛ ولكن رأى المصريون المسلمون أن وجود أعداد كبيرة من الأجانب غير المسلمين في بلادهم في ذلك الوقت هو سبب عدم الاستقرار والفقر اللذين يعانون منهما. ومن الواضح أن أعضاء جماعة الإخوان المسلمين كانوا يعرفون ما يفعلونه عندما كانوا يلقّنون الأعضاء الجدد ويفهمونهم أن الوجود البريطاني هو سبب نقص الغذاء والوقود(72). لا شك في أنّ سمات مثيرة، مثل النمو السريع وكراهية الأجانب والسرية والأنشطة الخارجة عن القانون والاغتيالات والاجتماعات السياسية الجماهيرية، كانت جميعها سمات «**حماسية**» تميّزت بها جماعة الإخوان المسلمين عن غيرها من الحركات. ولذلك، ربما أصبحت العضوية في الجماعة أمرًا مشوّقًا وساحرًا وحيويًّا وملهمًا في الأربعينيات من القرن الماضي لمن يملكون روح المغامرة. ولكن بعد اغتيال البنا، بدأ الإخوان يتراجعون. فهل فقدت القيادة سيطرتها على أقسام الجماعة التي كانت عرضة لاستخدام العنف ومؤهلة له؟ وبالتأكيد، بعد قمع نظام ناصر للإخوان عام 1954، لم تسر الأمور على ما يرام. ففي 26 أكتوبر 1954، حاول عامل سمكرة إخواني اسمه محمود عبد اللطيف اغتيال ناصر، ولكنه لم ينجح. وفي 9 ديسمبر، شُنق ستة من قادة الإخوان المسلمين بسبب محاولة الاغتيال هذه. ولكن روّج الإخوان وأشاعوا على نطاق واسع أن الحكومة المصرية فبركت محاولة الاغتيال لتبرير قمع الجماعة بقسوة(73). وعُرفت تلك المحاولة بحادثة المنشية، نسبة إلى ميدان المنشية بالإسكندرية حيث وقعت. وأثبتت المحاكمة العسكرية الثورية التي أعقبت ذلك أن جماعة الإخوان المسلمين اهتزّت بسبب انعدام الثقة والولاء داخلها(74). وفي هذه الفترة، بدا أن جماعة الإخوان المسلمين قد فقدت الكثير من جاذبيتها، وكان هناك تشكك حول إمكانية منافستها على السلطة ومدى شعبيتها. وبدون كاريزما حسن البنا تغيّرت جماعة الإخوان، ولم تعد حركة جماهيرية منضبطة يمكنها التباهي بفروع وأنشطة سرية. وسخر البعض من الجماعة قائلين إن:

الانتماء إلى جماعة الإخوان المسلمين أصبح مجرد «**حالة ذهنية**».

ابتكر سيد قطب «الأيديولوجية الإسلاموية»

بتأثير من «حركة الأفغاني» و«لاهوت ابن تيمية الحربي».. وألهمت الكثير من الناس لكي «يواجهوا الموت بهدوء» و«يقتلوا خصومهم» في سبيل «الإسلاموية»!!

في محاكمات المنشية عام 1955، حُكم على رجل يدعى **سيد قطب** بالسجن 15 عامًا. وكان سيد قد اعتقل لأول مرة في أوائل عام 1954، مع جميع قيادات جماعة الإخوان المسلمين. وقبل إلقاء القبض عليه مباشرة، كان قد أصبح رئيس تحرير صحيفة الإخوان، وهو منصب مهم ومسؤول في منظمة سرعان ما فقدت تماسكها، وبدا أنها تتطور لتصبح ما يمكن تسميته «**فرقة يعبدها جمهورها**»[75]، لتعلن أن كل الأشياء ممكنة، ولكنها غير قادرة على أكثر من مجرد نشر الأمل لتحقيق عالم أفضل وأكثر تمسكًا بالإسلام.

ثم أصبح سيد قطب المنظّر الرئيس للأصولية الإسلامية الحديثة (الإسلاموية). وبتأثير من حركة الأفغاني وبمساعدة لاهوت ابن تيمية الحربي، ابتكر سيد قطب «الأيديولوجية الإسلاموية» التي أثبتت أنها قادرة على إلهام الكثير من الناس لكي «يواجهوا الموت بهدوء» و«يقتلوا خصومهم» في سبيل «الإسلاموية»!!!

هوامش المؤلف:

(1) كيدي، **الأفغاني**، خاصة ص ص 81-127.

(2) راجع ملخص بليغ للكاتبة أرتيمس كوبر عن تاريخ تلك الفترة، **القاهرة في الحرب 1939-1945**، ص ص 10-11.

(3) كيدي، مرجع سابق، ص 129.

(4) المرجع نفسه، ص ص 427-433.

(5) المرجع نفسه، ص 432. ووفقًا لرشيد رضا، كان الأفغاني يتحدث العربية بلهجة إيرانية. آدامز، **الإسلام والحداثة**، ص 4.

(6) انظر، على سبيل المثال، مورتيمر، **الإيمان**، ص 84.

(7) تقرير في **مصر**، 24 مايو 1879؛ كيدي، ص 108.

(8) انظر، على سبيل المثال: المسح في مورتيمر، **الإسلام والسلطة**، ص ص 82-86؛ أو الخريطة التي تصور الهجمات الغربية العديدة على العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر في لويس، **العرب في التاريخ**، ص 169،

(9) كيدي، مرجع سابق، ص 109.

(10) المرجع نفسه، ص ص 124-125.

(11) المرجع نفسه، ص 87.

(12) آدمز، **الإسلام والحداثة**، ص 22.

(13) المرجع نفسه.

(14) آدمز، **الإسلام والحداثة**، ص 81.

(15) إغناس غولدتسيهر، **اتجاهات تفسير القرآن**، ص 321؛ آدامز، **الإسلام والحداثة**، ص 72.

(16) تيلمان ناجل، **تاريخ اللاهوت الإسلامي. من محمد إلى الوقت الحاضر**، ميونخ، سي إتش بيك، 1994، ص 253.

(17) آدمز، **الإسلام والحداثة**، 70-8.

(18) انظر على سبيل المثال. يانسن، **تفسير**، ص ص 26-27.

(19) مالكولم هـ. كير، **الإصلاح الإسلامي**، ص 135.

(20) مصطفى عبد الرازق، تحرير، **العروة الوثقى**، ص 85.

(21) كارل بروكلمان، **تاريخ الأدب العربي**، ص ص 321-323.

(22) جومير، منار، ص 50.

(23) انظر: إي إي شاهين، «رشيد رضا»، ص 410.

(24) هنري لاؤوست، **الخلافة في عقيدة رشيد رضا**، ص 121.

(25) كير، **الإصلاح الإسلامي**، ص 55.

(26) المرجع نفسه، 208.

(27) انظر على سبيل المثال، إيمانويل سيفان، **الإسلام الراديكالي**، ص ص 94-113.

(28) ابن تيمية، **السياسة الشرعية**، ص 185.

(29) انظر على سبيل المثال كتابه **مجموعة الفتاوى**، 3742. وانظر: ميتشل، **جمعية الإخوان المسلمون**، ص 320.

(30) ابن تيمية، **مجموعة الفتاوى**، الجزء 28، **السياسة الشرعية**، ص ص 146-148.

(31) القرآن، سورة التوبة، آية 5: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(32) معركة النهروان، عام 658.

(33) معركة الجمل عام 656 بين علي وخصومه طلحة والزبير ومعهما السيدة عائشة أرملة محمد. ومعركة صفين عام 657 بين علي والخليفة الأموي (لاحقًا) معاوية.

(34) ابن تيمية، **مجموعة الفتاوى (أو مجموع الفتاوى)**، الجزء 28، ص 509.

(35) مرعي الكرمي، **الكواكب الدرية في مناقب المجتهد ابن تيمية**، ص 162.

(36) ابن تيمية، **مجموعة الفتاوى**، الجزء 28، ص 520.

(37) القرآن، سورة البقرة، آية 85: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

(38) ابن تيمية، **مجموعة الفتاوى**، الجزء 4، ص 288.

(39) المرجع نفسه، ص 293.

(40) المرجع نفسه، ص 281.

(41) قد تكون هذه العبارة إشارة عفيفة إلى الطريقة التي طبق بها حكام المماليك الشريعة.

(42) ابن تيمية، **مجموعة الفتاوى**، جزء 4، ص 299.

(43) المرجع نفسه.

(44) رضا، **تفسير المنار**، مجلد 6، ص 330.

(45) سيفان، **الإسلام الراديكالي**، ص 101.

(46) انظر على سبيل المثال جوزف شاخت، **مدخل إلى الفقه الإسلامي**.

(47) ميتشل، **جمعية الإخوان المسلمين**، ص 23.

(48) ميتشل، مرجع سابق، ص 6.

(49) يانسن، «أولى رسائل حسن البنا»، ص ص 254-255.

(50) بينشي، **الكنيسة والدولة**، ص 428؛ ويبستر، **الصليب والفاشية**، 110.

(51) البنا، **مذكرات الدعوة**، ص 13.

(52) ميتشل، مرجع سابق، ص 8.

(53) البنا، مرجع سابق، ص 89؛ «ضد النظام القائم».

(54) ميتشل، مرجع سابق، ص 54.

(55) المرجع نفسه، ص 49.

(56) المرجع نفسه، ص 9 و54.

(57) المرجع نفسه، ص 1.

(58) **مجموعة رسائل** الإمام الشهيد حسن البنا، بيروت، بدون تاريخ، 382 ص.

(59) البنا، **مجموعة رسائل**، ص ص 136-140.

(60) كاريه، **الإخوان المسلمون**، ص 17.

(61) مثل أرتيمس كوبر، **القاهرة في الحرب 1939-1945**، ص ص 103-105 (عن السادات)، ص 134 (عن فاروق).

(62) كوبر، مرجع سابق، ص 161؛ ميتشل، مرجع سابق، ص ص 22-23.

(63) كوبر، ص 161.

(64) ميتشل، مرجع سابق، ص 22؛ كوبر، مرجع سابق، ص 161.

(65) ميتشل، مرجع سابق، ص ص 30-31.

(66) المرجع نفسه، ص 32.

(67) نفذ الاغتيال عضو في **الحزب الوطني** وليس جماعة الإخوان. انظر: ميتشل، مرجع سابق، ص 33.

(68) كاريه، **الإخوان المسلمون**، ص 21. تدل الأرقام على معدل نمو سنوي قدره 100٪.

(69) ستارك وبينبريدج، **الدين**، ص ص 346-365، خاصة ص 352.

(70) المرجع نفسه، ص 360.

(71) المرجع نفسه، ص 177.

(72) انظر على سبيل المثال كوبر، مرجع سابق، ص 163.

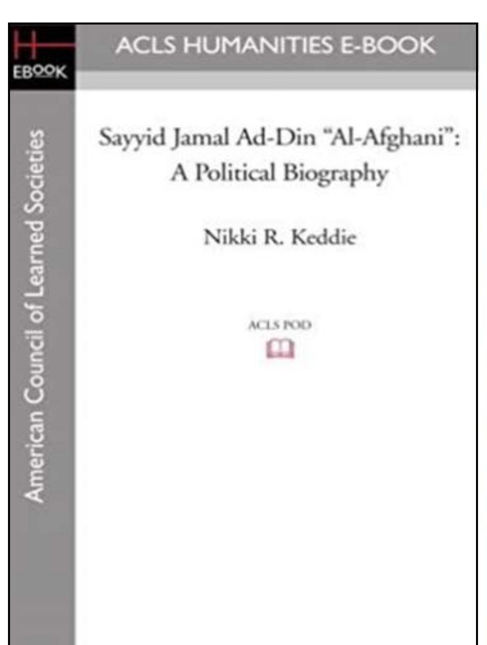
(73) ميتشل، مرجع سابق، ص 151.

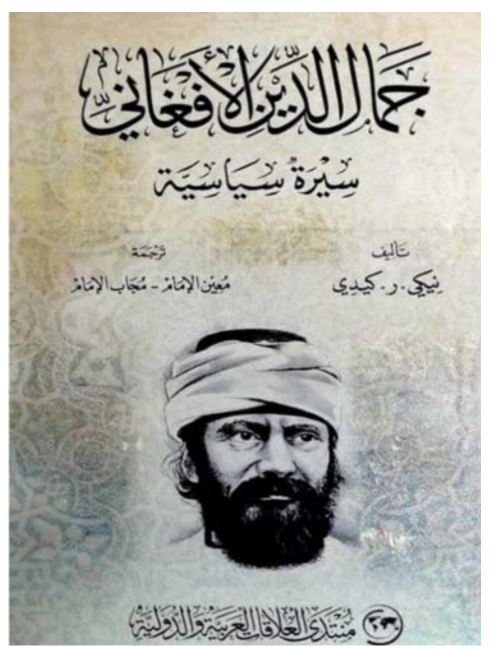
(74) المرجع نفسه، ص 156.

(75) ستارك وبينبريدج، مرجع سابق، ص ص 208-233.

ملحق صور الفصل الثاني

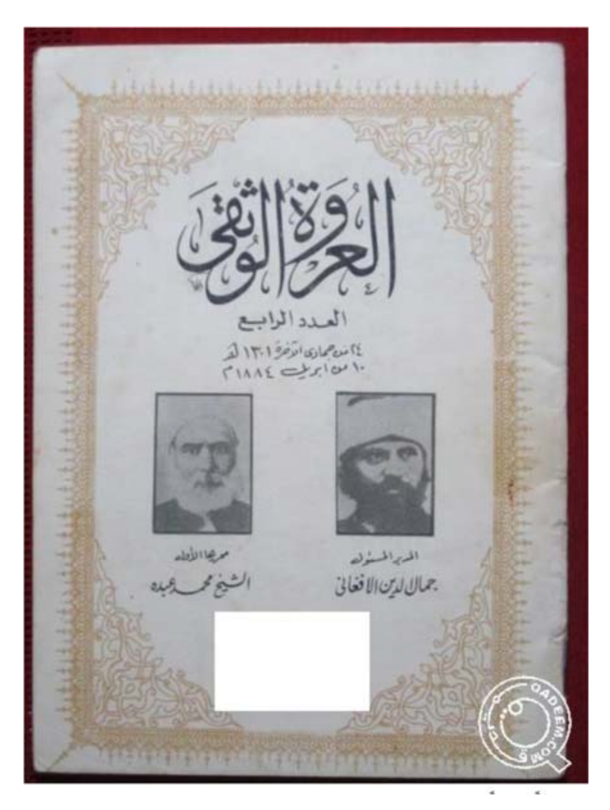
إعداد وتحرير: د. حمد العيسى





لم تكن أفكار الأفغاني في فترة القاهرة وحدها موضع جدل، بل اختلف العلماء حول هويته العرقية والدينية: هل كان سنيًا أفغانيًا أم شيعيًا إيرانيًا؟! ولكن بعد البحث النوعي الجبار (فوق، يسار) الذي قامت به البروفيسور نيكي ر. كيدي (تحت) (**Nikki Keddie**) ونشرته عام **1972**، لم يعد هناك شك في أنه كان «شيعيًا فارسيًا»!! نيكي آر. كيدي (م. **1930**) أستاذة فخرية للتاريخ متقاعدة من جامعة كاليفورنيا-لوس أنجلوس، وهي متخصصة في التاريخ الشرقي والإيراني وتاريخ المرأة. ولحسن الحظ، صدرت مؤخرًا ترجمة عربية نوعية ممتازة لبحث كيدي المرجعي بعنوان «جمال الدين الأفغاني: سيرة سياسية» (فوق، يمين) عن «منتدى العلاقات العربية والدولية» بالدوحة، عام **2021**، **592** صفحة، ترجمة: معين الإمام ومجاب الإمام. (العيسى)





كتب الأفغاني مع محمد عبده عددًا كبيرًا من المقالات في مجلتهما «العروة الوثقى»، وجادلت تلك المقالات مرارًا وتكرارًا بأن الغرب ليس قويًا كما يبدو ظاهريًا، وبأن هزيمته ممكنة. إن لغة تلك المقالات ليست صعبة، ولكن ليس من السهل دائمًا استيعاب ما يحاولان قوله! أحيانًا يكون المضمون غامضًا، على الأقل بالنسبة إلى القارئ الذي لا يعرف بالفعل ما الذي يسعى الأفغاني إلى إثباته. وتكشف هذه المقالات ضمنيًا المعضلة التي، بحسب الأفغاني، تنبع بالضرورة من انحطاط العالم الإسلامي في القرن التاسع عشر والتي تتمثل في الإجابة عن السؤال التالي: ما هو الحل المطلوب فعله لاستعادة النهضة الإسلامية... أي هل تجب:

إعادة تفسير الإسلام... أم إعادة تطبيقه؟!

أو بعبارة أخرى: هل يجب على المسلمين المعاصرين إعادة اكتشاف المبادئ والتعاليم الحقيقية للإسلام من خلال إعادة تفسير النصوص المقدسة؟ أم يجب عليهم إعادة تطبيق وتنفيذ قواعده التقليدية بدقة وفق تلك النصوص؟



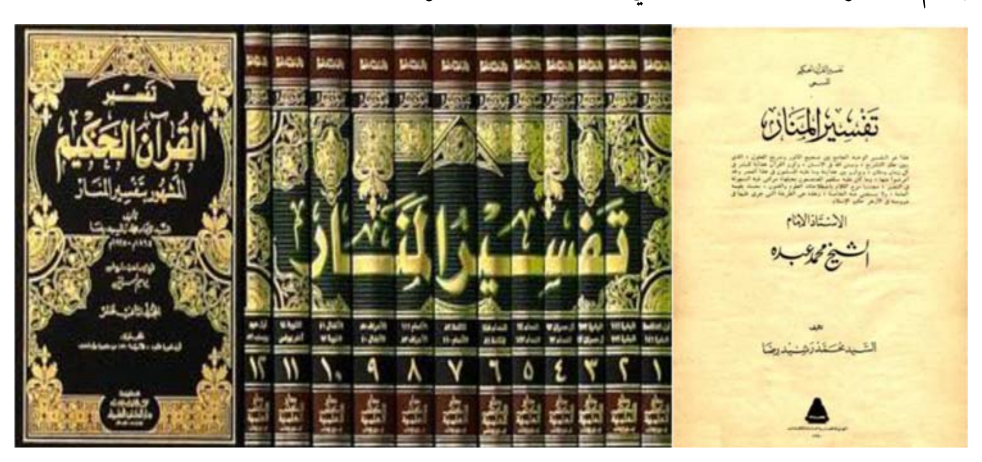
«لقد قضيت عامًا ونصف العام في الأزهر دون أن أفهم شيئًا فقد اعتاد الأساتذة على استخدام مصطلحات علمية في النحو والفقه لم نكن نفهمها، ولم يبذلوا أي جهد لشرح معناها لمن لا يعرفها»

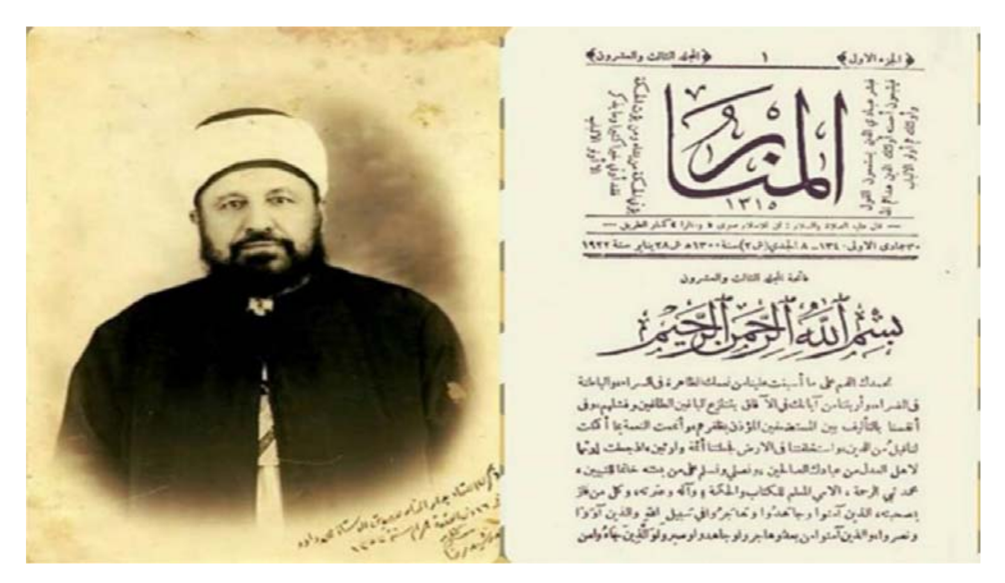
محمد عبده

[عاد محمد عبده لاحقًا إلى الأزهر وحصل على درجة العالِمية (الدكتوراه) عام 1877]



وسافر في عام 1897 شخص ولد وتعلّم في سوريا اسمه محمد رشيد رضا (فوق، يسار) (1865–1935) إلى مصر ليرافق محمد عبده بعدما جذبته بشكل خاص محتويات مجلة «العروة الوثقى». وبسرعة أصبح أحد أقرب تلاميذ عبده، ومعه اقتربت حركة الأفغاني خطوةً أخرى من الاتجاه السائد للإسلام السني. ولم يكن رضا بالتأكيد مجرد متفرج، بل شارك بحماس في النقاشات المعاصرة حول كيفية عودة مجد الإسلام. وتحدثت مصادر معاصرة له عن تأثيره الكبير في عبده الذي شرع بتردّد، تحت ضغط رضا، في تأليف تفسير القرآن المعروف الآن باسم «تفسير المنار» (تحت) الذي ألّف النصف الأخير منه رضا.





ترتبط شهرة رضا ارتباطًا وثيقًا بدورية «المنار» التي أسسها كمجلة أسبوعية عام 1898 [ثم تحولت إلى مجلة شهرية]، واستمرت في الصدور بشكل شهري حتى وفاته عام 1935. وتعدّ المنار أول محاولة جادة لاستخدام وسائل الإعلام الحديثة بشكل منهجي وسيلةً لنصرة الإسلام.


(الجزء الحادي عشر) ذي القعدة ١٣٣١ (المجلد السادس عشر)

المنار

١٣١٥

(قيمة الاشتراك)

(تنبيه)

(مجلة شهرية تبحث في فلسفة الدين وشؤون الاجتماع والعمران)

(منشئها) السيد محمد رشيد رضا | (مدير الادارة والمطبعة) السيد صالح مخلص رضا

عنوانها (مصر — ادارة مجلة المنار) والتلغرافي «المنار بمصر»

(فهرس الجزء الحادي عشر)

صفحة		صفحة	
٨٠١	التفسير . وفيه بحث وجوب النية بتقويم جميع الاعمال والاخلاص فيها والشهادة بالقسط والعدل في الامور كلها ومع الاعداء كغيرهم . والوعد والوعيد . ومنة الله بحفظ النبي واصحابه من كيد الكفار ٨٠٥ والتوكل والاسباب ٨٠٧ وتحريف كتب اليهود والنصارى ونقصها وكونها لا استغنا	٨٤٠	الجهمية والمعتزلة — دولتهم في عهد المأمون والفتنة
٨٣٢	الزكاة الاعانة على التعليم	٨٤٩	بيان حزب اللامركزية . ومظاهرة العرب السلمية
٨٣٣	كتب العهد الجديد وعقائد النصرانية وورد مايستدلون به من القرآن عليها	٨٦٠	الجنسية واللغة
		٨٦٨	اليمس الافريقية ومجلة الشرق
		٨٦٩	الشيخ علي يوسف . وفاته وترجمته
		٨٧٥	الازهر ودعاة النصرانية
		٨٧٧	الاصلاح في البلاد العربية
		٨٨٠	عناية نظارة المعارف باللغة العربية

محمد رضا

(وكيل مجلة المنار)



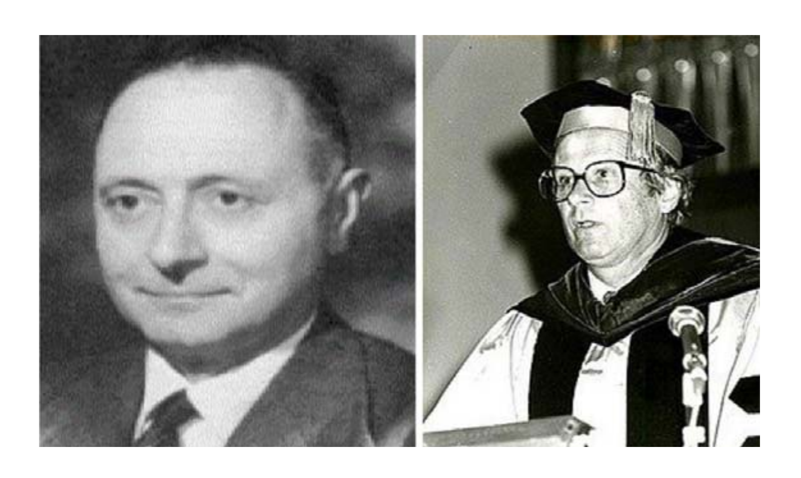
لقد كتب الأفغاني وعبده في «العروة الوثقى» أن المسلمين لا يعرفون جنسية سوى دينهم وعقيدتهم. وإذا أخذنا هذا الكلام على محمل الجد، فإنه «يقوّض» شرعية الحكومات الوطنية العلمانية في العالم العربي الإسلامي، وبقراءة حرفية «يُنذر ببزوغ الأصولية الإسلامية الحديثة (الإسلاموية) ومعركتها الدموية ضد الأنظمة الوطنية الحديثة في ذلك العالم» (تحت).



(هذه الصفحة من إعداد د. حمد العيسى)



نشر رضا عام **1923** كتاب «الخلافة أو الإمامة العظمى». ومن الصعب إنصاف النيّات الحسنة والأهداف التعليمية لهذا الكتاب. لقد دُرس على نطاق واسع وترجمه إلى الفرنسية المستشرق هنري لاؤوست (تحت، يسار)، وكتب عنه البروفيسور مالكولم كير (تحت، يمين) عام **1965**: «بالنسبة للإصلاحيين الحداثيين مثل رشيد رضا فإن الخلافة ليست سوى وسيلة لتحقيق غاية هذه الغاية هي تطبيق الشريعة. وفي منتصف الستينيات، كان مطلب تطبيق الشريعة لا يزال يُنظر إليه على أنه حلم ديني بريء وبعيد المنال». وفي غضون ذلك، أدى صعود الأصولية إلى خلق وضع أصبح فيه كل صحافي غربي يرى أن مطلب تطبيق الشريعة قد أصبح شعار الأصولية الإسلامية!!



(هذه الصفحة من إعداد د. حمد العيسى)



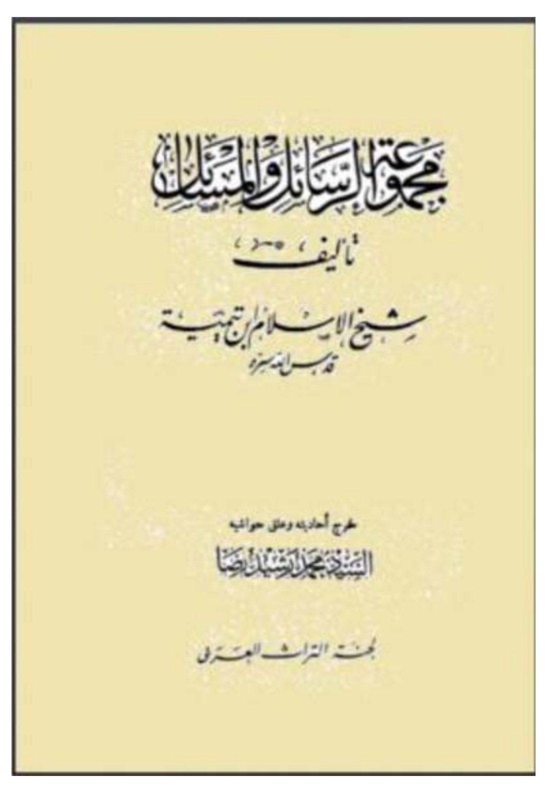
«بالنسبة إلى الإصلاحيين الحداثيين مثل رشيد رضا فإن الخلافة ليست سوى وسيلة لتحقيق غاية. هذه الغاية هي تطبيق الشريعة... وفي منتصف الستينيات، كان مطلب تطبيق الشريعة لا يزال يُنظر إليه على أنه حلم ديني بريء وبعيد المنال».

البروفيسور مالكولم هوبر كير

عرض لكتاب رشيد رضا «الخلافة أو الإمامة العظمى» (عام 1965)



البروفيسور (أ. د.) مالكولم هوبر كير (1931-1984) أستاذ علوم سياسية متخصص في السياسة العربية. حصل على الدكتوراه في العلوم السياسية في جامعة جونز هوبكنز عام 1958 تحت إشراف المستشرق البريطاني الشهير البروفيسور هاملتون غب. عمل أستاذًا في جامعة كاليفورنيا-لوس أنجلوس وجامعات عديدة، بما في ذلك الجامعة الأمريكية في القاهرة ثم الجامعة الأمريكية في بيروت. ولد في بيروت عام 1931، إذ كان والداه يُدَرِّسَان في الجامعة الأمريكية في بيروت. عيّن رئيسًا للجامعة الأمريكية في بيروت عام 1982، واستمر في منصبه حتى اغتياله في بيروت في 18 يناير 1984. ووفقًا لصحيفة نيويورك تايمز، فقد كان يغادر المصعد متجهًا إلى مكتبه عندما أُصيب برصاصتين في مؤخرة رأسه باستخدام مسدس كاتم للصوت. ولا تزال هوية منفذي الاغتيال غير معروفة أو مؤكدة، ولكن تبنّت مجموعة مجهولة باسم «الجهاد الإسلامي» المسؤولية في وقت لاحق من ذلك اليوم. وكان البروفيسور كير يعد في زمنه من أبرز الخبراء في السياسة العربية، ومن أهم مؤلفاته «**الحرب العربية الباردة: جمال عبد الناصر وخصومه**».



لم تكن رغبة رضا في تطبيق الشريعة هي فقط ما يربط رشيد رضا بالأصولية الإسلامية الحديثة؛ ولكنه أيضًا المفكر المسلم الذي أعاد اكتشاف ابن تيمية (تحت) (1263–1328)، عندما أعاد تحرير ونشر بعض أعماله (فوق)، كما قام بنشر فكره وترويجه في مجلة المنار. وهكذا، نجح رشيد رضا في جعل ابن تيمية الشخصية المركزية في النقاش الديني والسياسي في العصر الحديث، إذ لم يعد يوجد عالم مسلم يُستشهد به بشكل متكرر وعلى نطاق واسع أكثر من ابن تيمية في الكتابات الأصولية الحديثة! ومن بين جميع الآباء المؤسسين للإسلام الكلاسيكي، أصبح ابن تيمية السلطة المهيمنة في النقاش الحديث حول الإسلام والسياسة!!



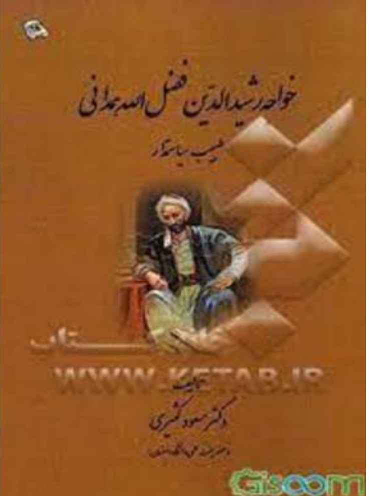






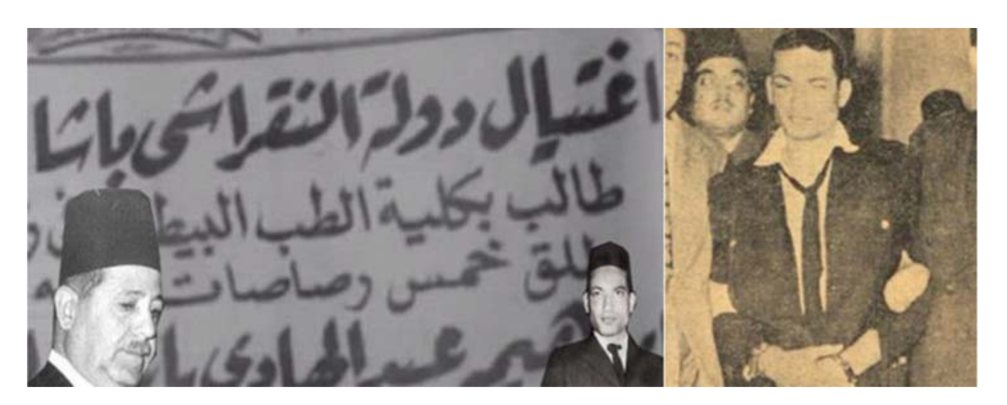
كتب المؤرخ الفارسي رشيد الدين فضل الله الهمذاني في تاريخه (تحت) عن لقاء ابن تيمية (فوق، يمين) مع السلطان المغولي المسلم محمود غازان (فوق، يسار):

> «اجتمع ابن تيمية بأعيان دمشق يوم الاثنين 3 ربيع الآخر 699 هـ (الموافق 28 ديسمبر 1299)، واتفقوا على السير إلى السلطان غازان الموجود في بلدة النبك المجاورة والتحدث إليه. فلما وصلوا إلى غازان ودخلوا عليه أخذ ابن تيمية يحث السلطان بقول الله ورسوله بالعدل ويرفع صوته ويقرب منه في أثناء حديثه حتى قرب أن تلاصق ركبته ركبة السلطان، والسلطان مع ذلك مقبل عليه ومصغٍ لما يقوله. وقال ابن تيمية للترجمان: «قل لغازان إنك تزعم أنك مسلم ومعكَ قاضٍ وإمام وشيخ ومؤذنون، على ما بدا لنا فغزوتنا وأبوك وجدك كانا كافرين وماً عملا الذي عملت، عاهدا فوفيا وأنت عاهدت فغدرت وقلت فما وفيت وجرت».



وكان من أول ضحايا «العنف الاحترافي» الإخواني القاضي أحمد الخزندار (فوق، يمين)، الذي اغتيل في القاهرة في مارس 1948؛ لأنه حكم على أحد أتباع البنا بالسجن. وفي 28 ديسمبر 1948، قُتل رئيس الوزراء المصري النقراشي (فوق، يسار) على يد طالب طب بيطري يُدعى عبد المجيد حسن (تحت) كان عضوًا في جماعة الإخوان المسلمين.



(هذه الصفحة من إعداد د. حمد العيسى)



جمال الدين الأفغاني



محمد عبده



رشيد رضا



حسن البنا



هؤلاء هم الآباء المؤسسون

للـ «أصولية الإسلامية» المعاصرة أي «الإسلام السياسي» أو «الإسلاموية»

المستشرق الهولندي البروفيسور يوهانس هانسن (تحت)



أولى رسائل حسن البنا

يوهان يانسن

نقله إلى العربية: عبد الرحمن أبو ذكري

إبّان العام الهجري 1348، نشر حسن البنا، الأب المؤسس لجمعية[1] الإخوان المسلمين، رسالة بعنوان: "مذكرة في التعليم الديني".[2] وقد كان للرسالة مؤلفان مُشارِكان، هما: أحمد محمد السُكَّري وحامد عبده عسكرية، وكلاهما من الرعيل الأول من مؤسسي الإخوان المسلمين.

يبدو من المعقول جدًّا أن نفترض أن إصدار هذه الرسالة أو المذكرة عام 1929 هو سبب التحقيق الغامض الذي أجرته معه وزارة المعارف وفقًا لسيرة البنا الذاتية عام 1930. لقد كانت سيرة البنا الذاتية غامضة بشأن الاتهامات التي تسببت في التحقيق.





(فوق) أطراف معاهدة لاتران؛ الزعيم بنيتو موسوليني (وسط) وفيكتور إيمانويل ملك إيطاليا (يسار) والبابا بيوس الحادي عشر. لقد أثّرت أجزاء من **خطبة موسوليني** وأجزاء من معاهدة لاتران على نحو كبير في حسن البنا وصديقين له (أحمد السكّري وحامد عسكرية): ألم تُعد هذه المعاهدة للمسيحية الكثير من مجدها القديم وقوتها؟**!** أكثر من ذلك، ألم تضع المعاهدة النظام التعليمي الإيطالي بأكمله في خدمة الدين الكاثوليكي؟**!** لقد عُزّزت مكانة رجال الدين الإيطاليين على نحو كبير، أو هكذا بدا الأمر للبنا الذي رأى أن الإسلام كان بالتأكيد بحاجة إلى الدواء نفسه**!!**



أحمد السكّري



حسن البنا





حامد عسكرية




لقد حدث نزاع وصدام في ربيع 1947 بين حسن البنا ونائبه أحمد محمد السكّري (يمين) وهو أيضًا أحد المؤلفين الثلاثة لرسالة 1929، وفُصل السكّري من جماعة الإخوان المسلمين. لقد أدى السكّري دورًا مبكرًا مهمًا في جماعة الإخوان. وبصفته نائبًا لحسن البنا، عقد اجتماعات سرية مع أحزاب وسياسيين مصريين ممثلًا لجماعة الإخوان المسلمين. وفي 1945-1947، وجد السكّري نفسه أحق من البنا بمنصب الزعيم السياسي للإخوان المسلمين مع استمرار حسن البنا مرشدًا روحيًّا. وفي ذلك الوقت، بتعبير ميتشل، قرر تحدي دور البنا كزعيم وحيد للإخوان.



اتبعت **جماعة الإخوان المسلمين** مبدأ «عدو عدوي صديقي»، ولذلك أبدت تعاطفًا كبيرًا مع الألمان والإيطاليين.



محاولة أثيمة لاغتيال الرئيس عبد الناصر

عامل من الإخوان يطلق عليه ٨ رصاصات في ميدان المنشية

الرئيس ينجو من الاعتداء ويقول انه يهب دمه وروحه في سبيل عزة الوطن وحريته

القبض على الجاني بعد انقاذه من ثورة الجماهير واعتقال ٣ آخرين من الاخوان

اراد الله العزة لمصر ولن يحرمها

٨ رصاصات طائشة

يطلقها إخواني على الرئيس في الاسكندرية ولا يصيبه

الجمهورية

جمال يستمر في خطابه ويقول للشعب

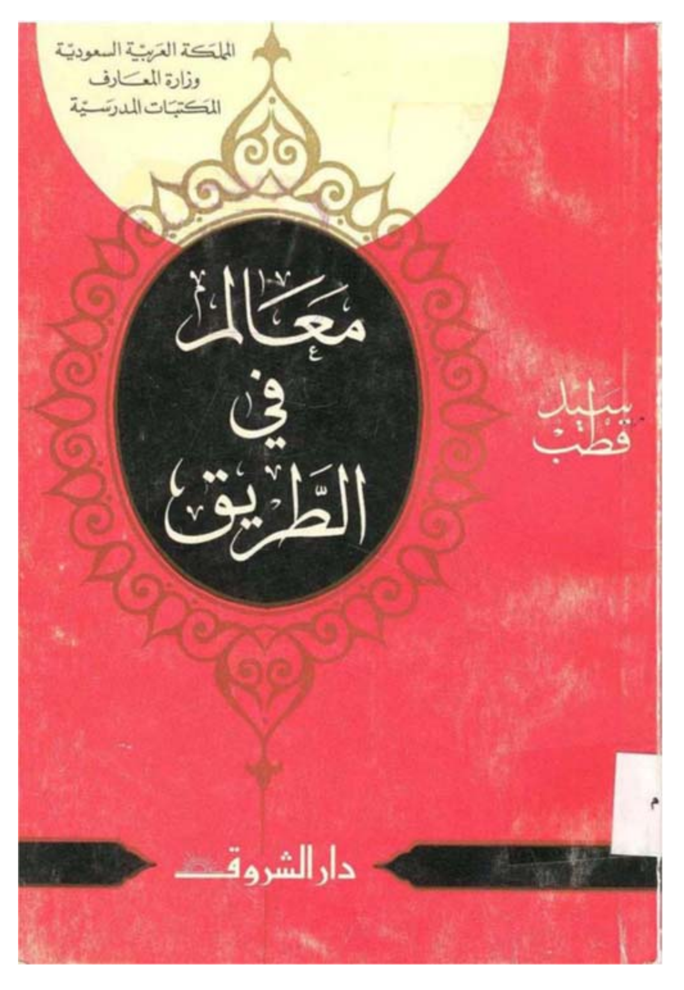
ففي 26 أكتوبر 1954، حاول عامل سمكرة اسمه محمود عبد اللطيف (تحت) اغتيال ناصر؛ ولكنه لم ينجح. وفي 9 ديسمبر، شُنق ستة من قادة الإخوان المسلمين بسبب محاولة الاغتيال هذه. ولكن روّج الإخوان وأشاعوا على نطاق واسع أن الحكومة المصرية فبركت محاولة الاغتيال لتسويغ قمع الجماعة بقسوة.



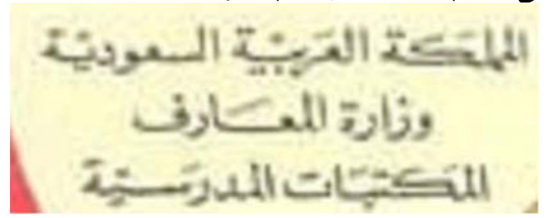


في محاكمات المنشية عام 1955 حُكم على رجل يُدعى سيد قطب بالسجن 15 عامًا. وكان سيد قد اعتقل لأول مرة في أوائل عام 1954، مع جميع قيادات جماعة الإخوان المسلمين. وقبل إلقاء القبض عليه مباشرة، كان قد أصبح رئيس تحرير صحيفة الإخوان، وهو منصب مهم ومسؤول في منظمة سرعان ما فقدت تماسكها.

(هذه الصفحة من إعداد د. حمد العيسى)



ثم أصبح سيد قطب المنظّر الرئيس للأصولية الإسلامية الحديثة (الإسلاموية). وبتأثير من حركة الأفغاني وبمساعدة «لاهوت ابن تيمية الحربي»، ابتكر سيد قطب «الأيديولوجية الإسلاموية» التي أثبتت أنها قادرة على إلهام الكثير من الناس لكي «يواجهوا الموت بهدوء» و«يقتلوا خصومهم» في سبيل «الإسلاموية»!!! وكما يتضح من المعلومات المطبوعة في الركن العلوي الأيسر (انظر التكبير تحت) فإن هذا الكتاب التكفيري الخطير كانت توزعه، للأسف، وزارة المعارف السعودية على المكتبات المدرسية التابعة لها!!!



(هذه الصفحة من إعداد د. حمد العيسى)



يرى معظم المراقبين والباحثين العرب والغربيين
أنّ سيد قطب هو مؤسس الأيديولوجية «الإسلاموية» المعاصرة.

الفصل الثالث

عرض لكتاب «تاريخ كتب السيرة الذاتية»

(25 يناير 2010)



الناقد البروفيسور دانيال مندلسون

«كلما زاد «الادعاء» الدراماتيكي في السيرة الذاتية، زاد احتمال كون الحكاية «خيالية» ومبالغًا فيها!!!».

الكاتب الأمريكي جيمس فَرَايْ

تقديم المترجم: يقدم البروفيسور دانيال مندلسون، كاتب هذه المقالة، مراجعة شاملة وعميقة لكتاب حديث بعنوان «**تاريخ كتب السيرة الذاتية**» لمؤلفه البروفيسور بن ياغودا. يلخص مندلسون أهم محتويات الكتاب، مع نقد وتحليل عميق وذكي. كما يقدم كذلك - وهذه من مزايا نقاد الكتب في الغرب - إضافات مهمة لبعض ما جاء فيه من استنتاجات. ومنعًا للتكرار الممل في النص المترجم، استعمل مندلسون مصطلحات عديدة لتعبر عن مصطلح **مذكرات** (Memoir) الإنكليزي مثل: «ذكريات» و«سيرة ذاتية» و«سردية ذاتية» و«سردية شخصية»، واستخدم أحيانًا «قصة شخصية» و«حكاية ذاتية»؛ على الرغم من وجود اختلافات في تعريفها الدقيق الذي ليس هو موضوع المقالة، بل الموضوع هو النوع الأدبي المعروف عربيًا بـ «المذكرات» أو «السيرة الذاتية». ونشرت المقالة في مجلة **نيويوركر** الأميركية بتاريخ 25 يناير 2010.

تعريف بكاتب المقالة دانيال مندلسون: ناقد أميركي ولد في نيويورك عام 1960. حصل على الدكتوراه عام 1994 في «لغات وأدب الإغريق والرومان» (Classics) من جامعة برينستون العريقة التي أصبح يدرس فيها؛ ولكنه اشتهر بصورة أكبر كناقد عميق للكتب والسينما والمسرح في كبريات الصحف والمجلات الأميركية مثل: **نيويورك تايمز**، و**نيويورك ريفيو أوف بوكس**، و**نيويوركر**، و**إسكواير**، و**باريس ريفيو**، و**لوس أنجلوس تايمز**، و**نيو ريببلك** وغيرها من المطبوعات. حصل على جوائز وطنية عديدة في الكتابة الصحافية والنقد، وأصدر ستة كتب. حصل كتابه «**المفقودون: البحث عن ستة أشخاص من ستة ملايين شخص**» على جائزة **جمعية نقاد الكتب الوطنية** لأفضل كتاب أميركي في فئة السيرة الذاتية عام 2006.

تعريف بمؤلف الكتاب بن ياغودا: ولد عام 1954، في نيويورك. حصل على الدكتوراه في اللغة الإنكليزية من جامعة ييل (Yale) العريقة. يُدرس الصحافة والكتابة الإبداعية في قسم اللغة الإنكليزية بجامعة ديلاوير. كما يمارس كتابة النقد الأدبي والفني في كبريات المطبوعات الأميركية بصورة غير متفرغة ككاتب مستقل. ويعيش مع زوجته وابنتيه في ولاية بنسلفينيا.

عرض لكتاب «تاريخ كتب السيرة الذاتية»

في أغسطس 1929، سخر سيغموند فرويد من فكرة أنه قد يفعل شيئًا سخيفًا للغاية مثل أن يكتب سيرته الذاتية قائلًا: «**هذا، بالطبع، اقتراح مستحيل الحدوث تمامًا**»، كما كتب لابن أخيه الذي كان قد نقل إليه اقتراح وعرض ناشر أميركي بأنه من الواجب أن يكتب هذا الرجل العظيم قصة حياته. ثم واصل فرويد رده قائلًا ربما بتواضع ماكر:

> **«ظاهريًا.. حياتي مرّت بهدوء، ويمكن تغطية أحداثها بتواريخ قليلة؛ ولكن داخليًا - ولمن عرفوني بشكل أفضل - كانت الأمور أكثر تعقيدًا قليلاً.. فمن ناحية، الاعتراف المعبر والكامل والأمين عن الحياة يتطلب الكثير من التهور الطائش للبوح الفضائحي عن شخصي فضلاً عن الآخرين من الأسرة والأصدقاء والأعداء، ومعظمهم لا يزال حيًا. وهذا أمر، ببساطة، غير وارد بالنسبة إليّ. ومن ناحية أخرى، الشيء الذي يجعل كل كتب السيرة الذاتية لا قيمة لها عندي، على أية حال، هو الكذب والزيف والخداع، وليس عندي رغبة في القيام بهذا!!!».**

ثم ختم فرويد رده على الاقتراح قائلًا بصراحة إن: **مقدم الخمسة آلاف دولار المعروض يعتبر أقل من واحد في المائة من المبلغ اللازم لإغرائه بدخول مثل هذه المغامرة الفضائحية الطائشة.**

إن خصائص كتب السيرة الذاتية في تاريخها الحديث، مثل الكشف غير اللائق والمنحط لخفايا النفس وعن الخيانات غير المستساغة وممارسة الكذب الذي لا مفر منه ولمسات الخداع، جعلت هذا النوع الأدبي (Genre) في معظم تاريخه «الحديث» سَيِّئ الصيت وبمثابة عار على الأنواع الأدبية الأخرى (الفلسفة والتاريخ والرواية والشعر.. إلخ)، أيْ كأنه ضيف مخمور وثمل في حفل زفاف لأنه يحرج باستمرار أقرانه من الضيوف الآخرين

المهذبين والجادين؛ فرغبة كاتب السيرة في الحصول على الانتباه والاهتمام تغويه بفضح أسرار الأسرة، وإحراج أصدقاء قدامى.

حتى عندما تحوّل معظم الكتّاب والمفكرين المرموقين إلى كتابة السيرة الذاتية، فإنهم يجدون أنفسهم متهمين بـ «**الاستعراض الأدبي**» بقصد جلب الانتباه، خاصة عندما لم يعد ممكنًا لمعظمهم صنع بروز أو إنجازات جديدة في تخصصاتهم الأصلية على الإطلاق. عندما ظهر كتاب جان جاك روسو **اعترافات**[1]، وصدم صالونات باريس في القرن الثامن عشر بما احتواه من حقائق وأوصاف لممارسات المؤلف الجنسية المنحرفة، تأسف السياسي الأيرلندي المحافظ إدموند بيرك[2] وحزن على بروز هذا «النوع الجديد من المجد للفيلسوف البارز عندما كشف عن ذنوبه ورذائله التي نعلم أنها تأتي كضريبة حتمية للعبقرية». وتبدو هذه الشكوى - للأسف - اليوم مألوفة بشكل مخيف.

وعندما بدأت الكاتبة فيرجينيا وولف[3]، بتردد ومضض، باقتراح من شقيقتها، بكتابة خطوط عريضة لتأليف سيرتها الذاتية وجدت نفسها، لسبب قالت إنه غامض في البداية، تتخيل أنها تنظر في مرآة موضوعة في ممر. وبعد محاولة تأمل عميقة، تذكرت وولف منظرًا يكشف عن محاولة اعتداء جنسي عليها من أخيها غير الشقيق جيرالد؛ وهو الحدث الذي كبتته ذاكرتها، والذي بسببه لم تكن قادرة على مواصلة كتابة سيرتها الذاتية.

---

(1) جان جاك روسو (1712-1778) فيلسوف سويسري، كان أهم كاتب في **عصر التنوير**؛ وهو فترة من التاريخ الأوروبي، امتدت من أواخر القرن السابع عشر حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين. ساعدت فلسفة روسو في تشكيل الأحداث السياسية التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية، إذ أثّرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة. واشتهرت سيرته الذاتية «**اعترافات**» بعنوان «**اعترافات روسو**»، تمييزا لها عن كتاب «**اعترافات**» للقديس أوريليوس أوغسطينوس. (العيسى)

(2) إدموند بيرك (1729-1797) (Edmund Burke) مفكر سياسي أيرلندي، من رواد الفكر المحافظ الحديث. من أشهر أعماله **تأمّلات حول الثورة في فرنسا** في التحذير من تبعات الثورة الفرنسية التي حدثت في عهده، إلا أنه كان من المؤيدين للثورة الأميركية. (العيسى)

(3) فيرجينيا وولف (Virginia Woolf) (1882-1941): روائيةٌ وناقدةٌ إنكليزيةٌ رائدةٌ. تعد من أبرز ممثلي أدب الحداثة في القرن العشرين. أصيبت باكتئابٍ حادٍ وانتحرت غرقًا. (العيسى)

وبالمصادفة، قابلت وولف التي حاولت كتابة مذكراتها فرويد، الذي لا يخطط لكتابة سيرته الذاتية عندما اقتربت نهاية حياتهما. ذكر كوينتين، ابن شقيق وولف، أن المحلل النفسي قدم للروائية زهرة نرجس Narcissus. **أيًا كان مقصد فرويد من هذه اللفتة، فإنها ترمز بلطف إلى الصلة والعلاقة المقلقة بين الإبداع والنرجسية**. وهي علاقة لا تتضح بقوة كما في مسألة كتابة «سيرة ذاتية»؛ وهو نوع أو شكل أدبي يكشف حياة المؤلف الحقيقية من دون الأقنعة الواقية لاستعمال فكرة الخيال (Fiction) كما في القصة والرواية.

مثل هذه التعرية الذاتية الفاضحة، كما يؤكد بن ياغودا في كتابه الصادر حديثًا بعنوان **تاريخ كتب السيرة الذاتية** (Memoir: A History) وهو كتاب جامع شامل مليء بالحقائق المذهلة ومبني على بحث عميق وجاد غير مسبوق[(4)]. نعم، هذه التعرية الذاتية الفاضحة هي مجرد واحدة من التهم التي وجهت ضد كتب السيرة الذاتية ومؤلفيها على مر القرون، والتهم الأخرى هي تلك التي كان فرويد مرتابًا وحذرًا منها؛ مثل: التباهي والخداع والتزوير السافر. ولكن تهمة «النرجسية الظاهرة/المزعومة» هي التي أزعجت نقاد وخصوم «ظاهرة كتب السيرة الذاتية» أكثر من غيرها. منذ حوالي 15 سنة، شنّ الناقد الأميركي المرموق وليام غاس (William Gass) هجومًا ضاريًا ضد هذا النوع الأدبي برمته، في مقالة لاذعة نشرها في مجلة **هاربرس** الأميركية العريقة. وتساءل غاس في هذه المقالة - بحق - وببلاغة خطابية مذهلة: «عما إذا كانت هناك أية دوافع لـ «تجارة كتب السيرة الذاتية» ليست ملطخة بـ«الخداع» أو «الرغبة في الانتقام» أو محاولة «تبرير الأخطاء»؟ أو ربما «لنصفح ونغفر» عن خطايا المؤلفين المذنبين؟ أو حتى لنفخ «الأنا» المتضخمة التي تكاد تنفجر سلفًا لكبر حجمها؟» وجاء هذا الهيجان النقدي المبرر من وليام غاس في لحظة عندما خرجت موجات متواصلة هائلة من كتب السيرة الذاتية لا تكاد تتوقف كانت قد بدأت في أواخر الثمانينيات؛ ما جعل ياغودا يلقبها -

---

(4) **تاريخ كتب السير الذاتية (Memoir: A History)** كتاب صدر عن دار «ريفر هيد» عام 2009، في 340 صفحة. (العيسى)

بحق - بـ «**طوفان من كتب السيرة الذاتية**». وفي نهاية التسعينيات، كتب ناقد في مجلة **نيويورك ريفيو أوف بوكس** مراجعة لكتاب حديث، وكانت المفارقة أنه أول إصدار للمؤلف وكان بالفعل تحت مسمى **سيرة ذاتية**. نعم، كتب ذلك الناقد «**إنه عصر الاعترافات الذي أصبحت فيه كتب السيرة الذاتية والتعريات الشخصية تتشقلب كبهلوانات في وفرة غير مسبوقة وغير مرغوبة». وللمعلومة، كان ذلك المؤلف البهلوان المتشقلب هو أنا كاتب هذه السطور.**

والآن، يبدو كأن ذلك «الطوفان» قد تحوّل إلى «تسونامي» بالفعل؛ فالأمور تطورت حتى وصلت إلى نقطة، حيث أصبح «أفضل هجاء» يستطيع ناقد قوله عن سردية شخصية: «حسنًا، إنها ليست «سيرة ذاتية مفجعة» بسبب كثرة الزيف والخداع من النوع الأدبي الذي أصبح ظاهرة هذه الأيام». كما كتب ناقد الكتب في الـ **واشنطن بوست**، مؤخرًا، في مراجعة إيجابية عن كتاب كاتي مارتون «**أعداء الشعب**»؛ وهي سردية ذاتية عن معاناة عائلة سيدة كانت تعمل صحافية في ظل الحكم الشيوعي في المجر. ولكن، كما يوضح جيدًا ياغودا، فإن **المذكرات الاعترافية** أصبحت «ذات شعبية» لا تقاوم لكل من الكتّاب والقراء لفترة طويلة جدًّا. وإلى حد كبير ومنذ البداية، اشتكى الناس من الضحالة والانتهازية والكذب والخيانة والنرجسية في هذه الكتب. **وهذا يطرح السؤال المهم التالي: لماذا أصبحت الموجة الحالية من كتب السيرة الذاتية «مختلفة» إلى حد ما، وبطريقة أو أخرى «أسوأ» من أيّ وقت مضى، وتحديدًا أكثر «نرجسية» وأكثر مدعاة للقلق في تلميحاتها؟** وقد يكون من الجائز أن الجواب لا يكمن في النوع الأدبي نفسه، الذي في الواقع لا يزال مستمرًّا بنفس الهدف والمكونات طوال الألفية والنصف الماضية أو نحو ذلك؛ ولكن الجواب قد يكمن في شيء قد تغير، عميقًا، في الطريقة التي نفكر بها عن أنفسنا وعلاقتنا بالعالم من حولنا كما سنحاول شرحه بالتفصيل لاحقًا.

كانت البداية الأولى المدونة والمعروفة لهذا النوع الأدبي في وقت متأخر ذات ليلة في سنة 371 ميلادية في بلدة أفريقية مغبرة لا يزورها أحد،

حيث قام فتى (وليد زواج بين دينين) في السادسة عشرة من عمره، وله تاريخ من المشاغبات، بسرقة بعض الكمثرى من شجرة الجيران. وعلى أية حالة تم النظر إلى تلك الحادثة فلم تكن سوى جنحة حمقاء من مراهق. اللص، كما اعترف بأسى بعد ثلاثين عامًا في وقت لاحق، لم يكن فقيرًا ولا جائعًا، والكمثرى لم تكن جذابة مطلقًا. **لقد سرقها، كما أدرك لاحقًا فقط، ليكون سيئًا: «لقد كانت خطأً وأحببت ارتكابه، ومن ثم التراجع عنه» كما كتب.**

ومهما كانت هذه السرقة سخيفة ودوافعها غريبة، فإن تلك الجريمة الصغيرة والثانوية كانت لها عواقب هائلة على مستقبل ذلك المراهق، وعلى تاريخ المسيحية والفلسفة الغربية، والأهم ربما على تخطيط مواقع سلسلة مكتبات «بارنز آند نوبل» التجارية الضخمة داخل أمريكا؛ لأنه على الرغم من أن الصبي قوّم نفسه في النهاية، وتحول من الديانة المانوية التي اعتنقها إلى المسيحية، وأصبح أسقفًا، فإن شخصيته كرجل تعذبت بسبب التفكير في تلك الهفوة والزلة عندما كان مراهقًا. وفي النهاية، قادته رغبته إلى البحث عن معنى أكبر في ماضيه المضطرب إلى كتابة سردية شخصية لحياته عن سنواته الأولى الفاسقة (وكان فاتنًا بصراحته الكبيرة حول حياته الجنسية الحافلة بالمغامرات) ومسيرته المتعثرة نحو السمو الروحي - حتى لحظة الذروة عندما، عبر النظر إلى داخل روحه من خلال ما يسميه «عين الروح» (Soul's Eye)، قال إنه «رأى فوق تلك العين نورًا يقينيًا أعلى من ذهنه». كان اسمه أوريليوس أوغستينوس (Aurelius Augustinus) المشهور بـ «**القديس أوغستينوس**»[5]، وكتابه سمّي بـ «**اعترافات**».

(5) أوريليوس أوغستينوس المشهور بالقديس أوغستينوس (354 - 430) هو إحدى أهم الشخصيات المؤثرة في المسيحية الغربية. تعتبره الكنيستان الكاثوليكية والأنغليكانية قديسًا وأحد آباء الكنيسة البارزين وشفيع المسلك الرهباني الأوغستيني. يعتبره العديد من البروتستانت، وخاصة الكالفنيين، أحد المنابع اللاهوتية لتعاليم الإصلاح البروتستانتي حول النعمة والخلاص. وتعتبره بعض الكنائس الأرثوذكسية، مثل الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، قديسًا، بينما يعتبره البعض هرطقيًا بسبب آرائه حول مسألة الانبثاق. ولد في تغاست (أي «سوق أهراس» في الجزائر حاليًا) عام 354 أيْ قبل مجيء الإسلام. كانت أمه مونيكا مسيحية، وكان والده وثنيًا. من أهم مؤلفاته

ولأن أوغستينوس، وهو مدرس خطابة، كان يعرف مسبقًا وبشكل جيد أن هناك منذ فترة تقليدا/تراثا راسخا لكتابة السير الذاتية للرجال أصحاب الإنجازات – مثل السير التي كتبها المؤرخ الإغريقي بلوتارخ[6] (Plutarch) في نهاية القرن الأول الميلادي عن أباطرة الرومان والإغريق؛ وهي حكايات سير ذاتية للمغامرين والقادة العسكريين وما شابه ذلك. (مثلًا كتاب التاريخ المعنون **أناباسيس** للمؤرخ زينوفون[7] (Xenophon's Anabasis) الذي كتب في أوائل القرن الثالث قبل الميلاد، والذي روى فيه كيف نجح مع قواته في الانسحاب من المعركة والخروج سليمًا إلى بر الأمان بعد محاصرتهم وراء خطوط العدو في داخل ما يسمى الآن العراق)؛ **ولكن أوغستينوس كان أول مؤلف غربي يجعل إنجازه في السيرة الذاتية شيئًا روحيًا غير مرئي، أيْ عما يختلج داخل نفسه وهي أشياء داخلية معنوية، كما عبّر عن رحلة «خلاصه» الروحية. التحول من البوح الاعترافي المهين إلى رحلة خلاص مفاجئة**، وهو تحوّل عاد إليه كتّاب هذا النوع الأدبي، وأشبع نهم القراء منذ ذلك الحين.

اعترافات، التي تعتبر أول سيرة ذاتية كتبت في العالم ولا تزال مقروءة في شتى أنحاء العالم. على الرغم من نشأته المسيحية، فإن أوغستينوس ترك الكنيسة ليتبع الديانة المانوية خاذلًا أمه؛ ولكنه عاد واعتنق المسيحية في ميلانو عام 387 وأصبح من كبار وعّاظها، ثم عاد إلى مسقط رأسه في الجزائر. وفي عام 391، تمت تسميته كاهنًا في إقليم هيبو (أي «عنابة» في الجزائر اليوم). أصبح واعظًا شهيرًا (وقد تم حفظ أكثر من 350 موعظة تنسب إليه يعتقد أنها أصيلة) وقد عُرِفت عنه محاربته المانوية التي كان قد اعتنقها في الماضي. وفي عام 396، تم تعيينه أسقفًا مساعدًا في هيبو وبقي أسقفًا لـ هيبو حتى وفاته عام 430. وعلى الرغم من تركه الدير، فإنه تابع حياته الزاهدة في بيت الأسقفية. (العيسى)

(6) بلوتارخ (Plutarch) – مؤرخ إغريقي (46–120) وكاتب سير ذاتية ومقالات. أثرت كتابات بلوتارخ في الكثير من الكتاب في الأدب الإنكليزي والفرنسي، ومن أبرز الكتاب الذين تأثروا به شكسبير، الذي أخذ عن كتاباته واعتمد عليها في مسرحياته الرومانية القديمة مثل يوليوس قيصر وكوريولانوس وغيرها. كما تأثر به الكثير من الكتاب الآخرين مثل بن جونسون وجون ميلتون وغيرهما. (العيسى)

(7) زينوفون (Xenophon): (نحو 430–354 ق.م) جندي ومؤرخ وكاتب فلسفي يوناني. كان أحد تلاميذ سقراط واشترك مع الفرس في حروبهم وله كتاب تاريخ يدعى **الأناباسيس** والذي اشتهر به، إذ يؤرخ لتقهقره مع جنود جيش قورش الأصغر في بلاد فارس لآلاف الكيلومترات. (العيسى)

ولهذا، يمكننا القول، حاليًا، إن أوغستينوس، أسقف مدينة هيبو (Hippo) الجزائرية (اليوم عنابة في الجزائر)، أورث «أوغسطن زون بوروز»[8] أكثر من مجرد اسم (تعليق المترجم: أيْ أورثه كتابة مذكراته، وهذا ما فعله الأخير).

ومما لا شك فيه أن كتب السيرة الذاتية كرواية ممتعة عن ذكريات «الشَعر الطويل» أو مجرد خربشات بذيئة أثبتت مرونتها عبر التاريخ، من سيرة بنفينوتو تشيلليني الماجنة «**سيرة ذاتية**»[9] إلى سيرة الممثل الأسترالي/ الأميركي إيرول فلين المتهورة «**حياتي الشريرة الشريرة**»[10] التي تذكر فيها الممثل الشهير مراهقته في أستراليا قائلًا: «لقد عبثت جنسيًا بشكل منتظم أو غير منتظم، مع طفلة جيراني الصغيرة نيرديا». ولكن الجوهر النووي «الديني» (مثل الحمض النووي DNA) لكتابة المذكرات بقي مسيطرًا على هذا النوع الأدبي، بسبب توجه وموقف أوغستينوس من ضرورة تسجيل شهادة مكتوبة عن التحولات الروحية الداخلية. وهو توجه بقي مهيمنًا خلال ستة عشر قرنًا من صدور «**اعترافات**» لأوغستينوس حتى سيرة أوغسطن زون بوروز المزيفة «**الجري مع مقص**». ومن ضمن أوائل السير الذاتية الشعبية في العصر ما بعد الكلاسيكي كانت ذكريات ما سمي بـ «السير الذاتية الروحية»، حيث ألفت القديسة تريزا من أفيلا واحدة باللغة الإسبانية، كما فعل بالمثل القديس أغناطيوس لويولا. وفي القرن الخامس عشر، أعطتنا ذكريات امرأة تدعى مارجيري كيمب كتبت سيرتها[11] التي احتوت على أمر أقل سموًا وتباهيًا

(8) أوغسطن زون بوروز: كاتب أميركي معاصر وشهير ولد عام 1965. ومؤلف سيرة ذاتية أصبحت بست سيلر رائجة جدًا بعنوان «**الجري مع مقص**» ثبت لاحقًا أنها مزيفة وخيالية، واضطر الناشر إلى دفع مليوني دولار كأضرار نفسية لإحدى العائلات التي كتب عنها المؤلف. (العيسى)

(9) بنفينوتو تشيلليني (1500–1571) جندي ورسام نحات وموسيقي إيطالي شهير. (العيسى)

(10) إيرول ليزلي فلين (1909–1959): ممثل أسترالي/أميركي اشتهر بتأدية الأدوار الرومانسية في هوليوود، وعاش حياة ماجنة وصاخبة، وزعم أن له علاقات غرامية مع عشرات الفنانات. (العيسى)

(11) مارجيري كيمب (1373–1438) سيدة من نورفولك في إنكلترا، اشتهرت لكونها كتبت أول سيرة ذاتية في اللغة الإنجليزية بعنوان **كتاب مارجيري كيمب**، الذي يؤرخ أحداث حياتها البسيطة وأسفارها في أوروبا وآسيا. وتكمن أهمية الكتاب في أسلوب سرده الذاتي =

عمن سبقها (ليس أقله، كيف أنها تفاوضت على زواج «بدون جنس» مع زوج متحمس) ما يعتبر أول سيرة ذاتية باللغة الإنكليزية.

بعد الإصلاح، استعمل واقتبس البروتستانت هذا الشكل الأدبي، جزئيًا استجابة لدعوة بيوريتانية «لإجراء مراجعة دقيقة للنفس ومسيرة الحياة»، كما شرح ويليام بيركنز؛ وهو عالم لاهوت في القرن السادس عشر. «السيرة الذاتية» بوصفها فحصًا سلبيًا للذات، أو كما قال جون كالفين[12]: شكل يشرح أسباب كوننا «مستائين من أنفسنا» رسخ للأبد تقليد السير الذاتية الناطقة بالإنكليزية بعد ذلك تمامًا. كما بزغت ظاهرة «التباهي والخيلاء» عن مدى تمرد وعصيان كتابها. عنوان ذكريات جون بنيان «**النعمة الإلهية الفائضة لزعيم المذنبين**» (عام 1666)، وهي تحفة سردية رائعة عن التحول الديني أو الإيماني، وهي إشارة إلى رسالة بولس الرسول[13]: «يسوع المسيح جاء إلى العالم ليخلص الخطاة الذين أتزعمهم أنا». ولّدت ذكريات بنيان السالفة اتجاه بوح فضائحي لكتاب السيرة الذاتية بلغت ذروتها في الذكريات المنحطة الهابطة التي تحيط بنا اليوم: مثل سيرة الكاتب الأميركي جيمس فَرَايْ (James Frey) المزيفة المعنونة بـ «مليون شظية صغيرة»[14]، مع تصوير براق ومثير

= لأحداث حياة المؤلفة وتعبيره عن معاناة حقيقية لامرأة من الطبقة الوسطى ما لم يسبقها فيه أحد. (العيسى)

(12) جون كالفين (John Calvin): (1509-1564) لاهوتي فرنسي نشر راية الإصلاح البروتستانتي في فرنسا ثم سويسرا. مؤسس المذهب الكالفيني المسيحي المنتشر في سويسرا وفرنسا، **وهو القائل إن قدر الإنسان مرسوم قبل ولادته**. (العيسى)

(13) بولس الرسول: (5-67) أحد أهم رجال الكنيسة المسيحية القدامى. اضطهد النصارى في بادئ الأمر ثم تنصّر وانصرف إلى التبشير بالمسيحية. يعرف بالقديس بولس. (العيسى)

(14) جيمس فَرَايْ (James Frey): كاتب ومخرج وسيناريست ومنتج وروائي أميركي معاصر، ولد عام 1969 في مدينة لوس أنجلوس. نشر عام 2003 سيرته الذاتية بعنوان «**مليون شظية صغيرة**» التي كان محورها إدمان المخدرات والكحول ثم الشفاء منهما. راجت تلك السيرة جدًا خاصة بعد ظهور فَرَايْ في برنامج أوبرا وينفري ومصادقتها على اختيار كتابه في «نادي أوبرا للكتب» الذي يحظى بشعبية ضخمة. وهكذا أصبحت هذه السيرة من أكثر الكتب مبيعًا، حيث فاقت مبيعاتها خمسة ملايين نسخة. ولكن في يناير 2006، نشر موقع «ذا سموكنغ غن» على النيت (The Smoking Gun) تقريرًا استقصائيًا بعنوان «مليون كذبة صغيرة»، كشف كاتبه أن سيرة =

لخطورة الإدمان على المخدرات والكحول والكفاح البطولي الرائع للشفاء منهما؛ وسيرة الروائية الأميركية كاثرين هاريسون «**القبلة**»، التي تتذكر فيها علاقتها الجنسية المحرمة مع والدها وهي في العشرين ولمدة 4 سنوات؛ وسيرة راقصة الباليه الأميركية توني بنتلي «**استسلام**» حول ولعها الهوسي بالجنس. والقائمة، كما نعلم، تمضي إلى ما لا نهاية.

= فَرَايْ مزورة وغير صادقة وتحتوي على مبالغات خيالية (Fictional) ضخمة لتصوير بطولة فَرَايْ، ولكن فَرَايْ نفى هذه التهمة تمامًا وصرح بأنه استخدم بعض الخيال الضروري لصياغة أحداث حقيقية. ساند الناشر «دبلداي» فَرَايْ بعد نشر هذا التقرير في البداية؛ ولكنه قام بالتحقيق مع فَرَايْ بصورة سرية ثم نشر بيانًا جاء فيه: «عندما نُشر تقرير سموكنغ غن، كان رد فعلنا الأولي مساندة المؤلف فَرَايْ لعدم وجود أدلة لدينا. ومنذ ذلك الحين، وجهنا أسئلة للمؤلف، وأدركنا للأسف بأنه بالفعل هناك بعض الأحداث التي تم تبديلها وفبركتها وتضخيمها. ولهذا، قررنا وضع تنويه واعتذار من المؤلف والناشر في تمهيد هذا الكتاب بهذا الخصوص في الطبعات المستقبلية». وفي 11 كانون الثاني/يناير 2006، ظهر فَرَايْ مع أمه في برنامج **لاري كينغ لايف** الشهير، ودافع عن كتابه قائلًا: «جميع المذكرات تغير بعض التفاصيل لضرورات السرد والصياغة الأدبية، وأصر على كون جوهر الكتاب صادقًا وحقيقيًا، أيْ عن كونه مدمن مخدرات وكحول سابقًا واستطاع الشفاء من الإدمان». واتصلت أوبرا وينفري بالبرنامج لتدافع عن جوهر كتاب فَرَايْ، ولا سيما أنه ظهر في برنامجها الشهير وروجت لكتابه. وأكدت وينفري أن الكتاب ألهم الكثير من المدمنين على وجود أمل للنجاة من الإدمان، ودافعت عن نفسها لكونها روجت لكتاب مزيف وألقت باللوم على الناشر الذي لم يتأكد من صدق المؤلف. وفي 2 تشرين الثاني/نوفمبر 2007، نشرت وكالة **أسوشيتيد برس** خبرًا عن صدور حكم قضائي لصالح القراء الذين ادعوا أن فَرَايْ والناشر خدعاهم. وقام الناشر بإعادة قيمة الكتاب لكل قارئ طالب بتعويضه عن قيمة الكتاب إذا كان شراء الكتاب قبل اعتراف فَرَايْ العلني عن وجود خيال في الكتاب. وبلغ مجموع التعويضات مليونين دولار تقريبًا، ثم قام الناشر بالتبرع بمبلغ نصف مليون دولار للجمعيات الخيرية ومؤسسات مقاومة الإدمان. كما بادر الناشر بحماية نفسه؛ وذلك بوضع تنويه واضح في تمهيد الكتاب في المستقبل، لتوضيح أن أحداث الكتاب تحتوي على أحداث خيالية غير حقيقية. (العيسى)

انحطت كتب السيرة عن المعاناة/ الخلاص
من أصولها الدينية إلى درك الانحطاط والتدنيس كما
نشهد اليوم، عندما تراجع عصر الإيمان لصالح عصر العقل...
وأدت «اعترافات روسو» إلى تحول «علماني» حاسم لهذا النوع والشكل الأدبي!!

اللحظة الحاسمة في تطور كتب السيرة المتعلقة بالمعاناة والخلاص من أصولها الدينية إلى درك الانحطاط والتدنيس كما نشهد اليوم، وقعت عندما تراجع عصر الإيمان لصالح عصر العقل. يشدد ياغودا- بحق - على أهمية «**اعترافات روسو**» التي نشرت عام 1782، بعد أربع سنوات من وفاة الفيلسوف روسو **لتؤدي إلى تحول** «**علماني**» **حاسم لهذا النوع والشكل (Genre)** الأدبي. (كتاب «**اعترافات روسو**» دشن بداية طفرة في كتابة المذكرات وجدها البعض مؤسفة ويرثى لها. وبحلول عام 1827، تذمر جون لوكهارت، كاتب سيرة السير والتر سكوت[15]، ضد «هذا الهوس بكتابة قمامة من الاعترافات والذكريات والمذكرات والسير الذاتية».) لكن مركزية وريادة كتاب روسو لهذا النوع الأدبي لم تعد الآن بسبب صراحته الفجة وبوحه المنحط؛ بل **بسبب الطريقة التي مهّد كتابه فيها السبيل لكتب السيرة الحالية من حيث تحوّلت كتابة السيرة إلى نوع من العلاج التطهيري المُخَلِّص من الخطايا**. واحد من أهم مقاطع كتاب «**اعترافات روسو**» هو عندما يحاكي «**اعترافات**» أوغستينوس عندما حكى بتباهٍ قصة جريمة بسيطة شبابية ارتكبها. في حالة روسو، كانت الجريمة عبارة عن سرقة قطعة قماش من منزل عائلة كان يعمل عندها. جريمة

(15) جون لوكهارت (1794-1854)، كاتب ومؤرخ وصحافي إسكتلندي اشتهر بكتابته لقصة حياة الروائي والمؤرخ والشاعر الإسكتلندي الأعظم السير والتر سكوت (1771-1822)، الذي يعتبر أكثر الكتّاب شعبية في زمانه وكان الجمهور يتهافت بحماس على رواياته التاريخية بمجرد خروجها من المطبعة. ولم تقتصر شهرة سكوت على بلد واحد فحسب، بل تعدتها إلى أوروبا كلها. وقد قيل مرة إن كل ألماني في برلين كان يؤوي إلى سريره وهو يقرأ قصة سكوت الشهيرة **ويفرلي**، ويتناول قهوته الصباحية متصفحًا روايته الأخرى **روب روي**. وقد عرف سكوت بأبي الرواية التاريخية الحديثة. وبفضل السير والتر سكوت، دخلت الرواية التاريخية في الأدب. كما كان سكوت يحب التنقيب في زوايا التاريخ واقتناء الكتب النادرة. (العيسى)

روسو كانت لها تبعات فورية أكثر جدية من جريمة أوغستينوس عندما أُكتشفت السرقة، لأنه أنحى باللائمة على امرأة شابة تعمل طباخة في المنزل نفسه. وبعد أربعين عامًا، كانت الوسيلة الوحيدة لتخفيف شعوره بالذنب هي عبر الاعتراف عندما كتب عنه قائلًا: «**هذا العبء ظل راقدًا من دون خفوت في ضميري حتى يومنا هذا، وبإمكاني القول بثقة إن الرغبة في التحرر منه ساهمت إلى حد كبير في قراري تأليف كتاب «اعترافات»**».

أعطى روسو، شئنا أم أبينا، زخمًا وحافزًا عظيمًا لعملية تحول «الاعتراف» إلى طبيعة علمانية وعامة وأدبية بحتة. لقد كان يدرك جيّدًا أن علمنة سيرته الذاتية لم يكن لها سابقة كما كتب في بداية «**اعترافات روسو**». وبالتأكيد على يد مفكر كبير كروسو يمكن لهذا النوع الأدبي أن يسفر عن أفكار وحكم عظيمة؛ ولكن قليلين منا يمكن اعتبارهم مثل روسو! **وعندما تحولت طبيعة كتابة السيرة الذاتية من كونها عن الله إلى أن تكون عن الإنسان، وعندما أصبح الاعتراف لا يعني شيئًا أكثر من إخراج سر مخجل من صدرك - وربما الأسوأ مما سبق، عندما أصبح «الخلاص» يعني لا شيء أكثر من القبول الحميم من قبل أشخاص آخرين ومعظمهم بل أكثرهم يشتركون معك في السر المخجل نفسه** - لم يكن كل ذلك سوى خطوة سريعة نحو ما وصفته ميتشيكو كاكوتاني، ناقدة الكتب في **نيويورك تايمز**، مؤخرًا، بأنه القوة الدافعة وراء بعض المنتجات الفكرية «**التجارية**» في الآونة الأخيرة سمتها بحق «**جنون المذكرات**» أو كما قالت بحق: «**أي الاعتقاد بأن الاعتراف هو علاج والعلاج له طابع خلاصي ويعتبر بطريقة ما نوعًا من الفن**».

وتقريبًا في الوقت الذي كان فيه روسو يكتب «**اعترافات روسو**»، كان مفهوم الخلاص الديني يعاد تعريفه على هذا الجانب من المحيط الأطلسي أيضًا (أي في أمريكا). منذ البداية، كان هناك استلطاف قوي في المستعمرات الأميركية للحكايات والمغامرات العسكرية- أو التجسيد المحلي لتلك المغامرات القديمة الكبرى في سير السالفين. لقد شهد القرن السابع عشر عددًا من أفضل كتب الحكايات للمستعمرين والمستوطنين الذين اعتقلهم

السكان الأصليون المتوحشون وهربوا في وقت لاحق. (وهذه الحكايات كما يعتقد ياغودا، وفّرت الأساس لفئة فرعية من كتابة المذكرات الأميركية المعاصرة التي تضم حكاية باتي هيرست عام 1982، عن اختطافها من قبل عصابة مسلحة). ولكن بعد مائة سنة، بزغ نوع جديد من حكايات المغامرات العسكرية، وهو نوع يجمع بين الجهود السابقة - أيْ ذكريات التغلب على الأخطار والصعوبات والتحديات وأيضًا كخريطة طريق للتجديد الروحي - وفي الوقت نفسه تعطيهم صدى قوة سياسية جديدة: «**ذكريات العبيد والرقيق**» التي دشنتها ذكريات العبد فريدريك دوغلاس[16]، التي راجعها ونشرها دوغلاس مرات عديدة بين عامي 1845 و1892، ومن ثم عام 1849، قصة حياة العبد المدعو هنري (بوكس) براون[17] Henry (Box) Brown، الذي هرب إلى الحرية عن طريق إرسال نفسه كطرد عبر البريد من ولاية فرجينيا إلى فيلادلفيا. هذه السير الذاتية من العبيد والعبيد السابقين جديرة بالملاحظة وتلفت النظر لكونها من المذكرات الأولى التي من المفترض أن تكون بمثابة شهادة سياسية ذات مغزى لجرائم منهجية ضد عرق أو شعب بأكمله. وعلى

---

(16) فريدريك دوغلاس (1818-1895) رجل أسود ولد عبدًا في ولاية ميريلاند؛ ولكنه هرب وهو في العشرين من عمره إلى نيويورك، حيث وجد حريته. عمل صحافيًا في جريدة **المُحرِّر** التي يملكها وليام لويد غاريسون وتعاونا في مناهضة العبودية. برع في الصحافة واكتسب شهرة كبيرة كخطيب بليغ ضد العبودية. تعرف إلى أبراهام لينكولن وساهم في إقناعه على إصدار إعلان تحرير العبيد. يوصف بأنه مؤسس حركة الحقوق المدنية الأميركية. (العيسى)

(17) هنري (بوكس) براون Henry (Box) Brown (1815-1879): رجل أميركي أسود كان عبدًا عند إقطاعي أميركي في ولاية فيرجينيا. ساعده رجل أبيض متعاطف مع العبيد في شحنه داخل صندوق عبر البريد إلى السيد جيمس ميلر في ولاية فيلادلفيا، وهو رجل أبيض يدعو لتحرير العبيد، على أساس كونه صندوق بضائع جافة. دفع براون 86 دولارًا من مدخراته التي تبلغ 166 دولارًا فقط، ليغطي تكلفة الشحن والرشى اللازمة. استمر شحن الصندوق 27 ساعة خلال وسائط عديدة: قارب بخاري وعربة خيول وقطار وعبارة نهر. قام عمال البريد بقلب الصندوق في جميع الاتجاهات مرات عديدة حتى وصل براون فيلادلفيا وتسلمه جيمس ميلر بنجاح، ثم أصبح حرًّا وانضم لجمعية تناهض العبودية ليصبح خطيبًا مشهورًا. لم يستطع تحرير زوجته وأطفاله من العبودية في ولاية فيرجينيا. وضع لقب صندوق (بوكس Box) ضمن اسمه ليصبح هنري (بوكس) براون. نشر سيرته الذاتية بعنوان **حكاية العبد هنري بوكس براون** في بوسطن عام 1849، ثم في مانشستر في بريطانيا عام 1851. (العيسى)

هذا النحو، فإن كتب المذكرات هذه قامت بتمهيد الطريق من حيث الشكل الأدبي والمحتوى والهدف المقصود لينتج منها لاحقًا العديد من السير الذاتية للناجين من الهولوكوست وجرائم دولية أخرى في القرن العشرين. وفي الواقع، كانت بدايات حكايات وسير العبيد معاصرة لمجموعة واسعة من كتب المذكرات السياسية التي لا يذكرها ياغودا، لكونه يركز بشكل خاص على الكتابات الإنكليزية. فهناك مثلًا: مذكرات أولئك الذين فروا من الثورة الفرنسية، ولجؤوا غالبا إلى شواطئ بعيدة وغريبة؛ مثل إحدى وصيفات ماري أنطوانيت التي هربت إلى بريطانيا وعملت في حلب البقر في مدينة ألباني، وروت ذكرياتها للناس، قبل أن تعود في نهاية المطاف إلى فرنسا. في هذه السير الشخصية عناصر لكل من «أدب الشهادة» على الأحداث Witness Literature، وملحمة النجاة من كارثة مجتمعين معًا.

الأمور المشتركة في سرديات العبيد الذاتية وذكريات المهجر وحكايات الهولوكوست هو كون عنصر «الخلاص» فيها أعلى بكثير من أيّ وقت مضى؛ فالآن تحولت «عين الروح» التي تحدث عنها أوغستينوس كما أسلفنا، للنظر نحو «الخارج» مثل النظر نحو «الداخل»، لتوثيق معاناة الذات وأيضًا، بالضرورة، تسجيل عذاب أرواح أخرى. يمكن التعبير عن العالمية الضمنية والمشروطة في معاناة و«خلاص» أوغستينوس السردي بكلمات واضحة قليلة كالتالي: «**لقد حدث هذا لي، ويمكن أن يحدث لك، إذا فعلت ما فعلته**»، والتي أصبحت صريحة وواضحة في الذكريات ذات الطبيعة السياسية مثل الهولوكوست وغيره من جرائم الإبادة أو بعبارة تقريرية مباشرة: «ما حدث لي حدث لكثيرين آخرين». إن كل واحدة من هذه «المذكرات الشاهدة» أو «مذكرات الشهادة» قد تحمل عبئًا باهظًا كبديل لآلاف من المذكرات التي لن تكتب. وعندما تحولت «أنا» إلى «نحن»، تحولت رحلة السيرة الشخصية التي كانت قد بدأت في القرن الرابع، بحلول نهاية القرن الثامن عشر، إلى سيرة سياسية بامتياز. وأصبحت المحادثة بين «ذات الشخص» والله محادثة مع، وحول، العالم بأسره.

وعندما ازدادت أهمية المعلومات الضمنية في المذكرات، زادت كذلك جدية وعواقب شكوى أخرى عن ذلك النوع الأدبي: أيْ ما سماه فرويد بـ «**الكذب والخداع والادعاء الزائف**». إن الحاجة إلى أن تكون أنواع معينة من المذكرات صحيحة وصادقة جدًّا تعود إلى «**اعترافات**» أوغستينوس التي قال فيها: «**إذا كان الألم والمعاناة ليسا حقيقيين، فلا يوجد شيء يتوجب الخلاص منه، وتصبح العملية برمتها لا معنى لها**». إنها بالضبط مكانة «مذكرات الخلاص» كشاهدة (أو كشهادة) على وضع الحياة الحقيقي الذي يسبب غضبًا عنيفًا وصاخبًا عندما تزوّر المذكرات وتمتلئ بالكذب. وبالعكس، إذا كان الممثل إيرول فلين Errol Flynn قد نام مع نجمات أكثر بعشرة أو أقل بعشرة مما يدعي في سيرته الذاتية، فلن تشعر بأنك خدعت**!!!** وهذا الغضب يتفاقم عندما يدعي كاتب المذكرات أنه كان شاهدًا على الظلم الاجتماعي أو السياسي. ياغودا، المبدع بصورة خاصة عندما يناقش المذكرات الكاذبة والمزيفة، يكشف بسعادة بالغة كيف أن مذكرات بعنوان «**الدم يجري كنهر في أحلامي**»، وهي واحد من ثلاثة كتب سيرة ذاتية لمؤلف أميركي ادعى كذبًا أن أصله من الهنود الحمر ويدعى ناسديج، قدم فيه المؤلف «كاتالوغا مزيفًا» ضخمًا منوعًا لجميع أنواع المعاناة (طفل مشوه بسبب إدمان أمه الكحول أثناء الحمل، وحياة المهاجرين، والتشرد، والإيدز) والتي ادعى أنها غذّت رفضه وكراهيته لحضارة الرجل الأبيض؛ ولكن تبيّن، بعد التحري، في النهاية، أن مؤلفها الحقيقي رجل أميركي أبيض من وسط أمريكا مطلق مرتين وله كتابات سردية إبداعية سابقة. كانت البداية عندما نشر ناسديج عام 1999 مقالة طويلة يلخّص فيها تلك السيرة بالعنوان نفسه «**الدم يجري كنهر في أحلامي**» في مجلة **إسكواير** الشهيرة ليفوز بجائزة الصحافة الوطنية، ثم نشر السيرة الذاتية في كتاب بعدما وسّعها كثيرًا، وتمت مراجعتها واستعراضها بسرور بالغ وبهجة في الصحافة الأميركية الخاصة بالسكان الأصليين (الهنود الحمر) حيث وصف ذلك الكتاب في تلك الصحافة بـ «**الأصيل والمؤثر والرومانسي والمؤلم**»**!!!**

الإسراف في المديح والثناء عند استقبال الكتاب يفسر، إلى حد ما، عنف ردود الفعل عندما يتم اكتشاف تزوير تلك المذكرات؛ مثل قولهم لاحقًا: «**يخفي تحته، بوضوح، أكوامًا من الكذب**»، و«**تزوير واضح جدًّا**»، و«**يا له من عار... عار للسهولة التي أغوانا بها، وعار لشهوتنا الهوسية لأنواع معينة من السرد مهما كانت غير محتملة التصديق أو متحيزة أو مريحة، لتكون معقولة وصادقة**»!!

حقًّا وفي الواقع، تخبرنا ردود الفعل على المذكرات الزائفة دومًا المزيد عن القضايا المعقدة للصدقية والزيف والتاريخ والسياسة أكثر مما تقوم به الكتب نفسها. كان هذا صحيحًا بالتأكيد في مذكرات عبيد القرن التاسع عشر وكيفية استغلالها في بعض الأحيان. واحدة من أكثر القضايا المعقدة تتعلق بنشر كتاب «**العبد**»، أو مذكرات **آرشي موور** عام 1836، وهي حكاية مروعة عن سوء معاملة العبيد، وسفاح المحارم والانتقام، توهم القراء أن مؤلفها عبد أفرو-أميركي ذو بشرة فاتحة قليلًا. ولكن تم اكتشاف زيف هذه المذكرات سريعًا وأنها كانت في الأصل عبارة عن «رواية» Novel لرجل أبيض تخرج في جامعة هارفارد يدعى ريتشارد هيلدرث من منطقة «نيو انغلاند» شمال شرق أمريكا والذي زار الجنوب الأمريكي وصدم بقوة جرّاء سوء معاملة العبيد السود. ولكن كون تلك المذكرات مفبركة لم يزعج بعض النقاد الأدبيين المؤيدين لإلغاء العبودية؛ لأن المهم بالنسبة إليهم كان هو ما سموه «**الحقائق الرهيبة**» التي استند إليها «**خيال**» موور لصنع تلك السردية الذاتية الخيالية المرعبة. وزعمت ليديا ماريا تشايلد، الناشطة الحقوقية السوداء الشهيرة، في رسالة كتبتها إلى جريدة «**ذا بوسطن ليبيراتور**»، أن «رواية» هيلدرث أكثر قوة وصدقية من «مذكرات» حقيقية ومؤثرة لعبد اسمه تشارلز بال حيث قالت بجرأة حرفيًا: «المقتطفات التي قرأتها من مذكرات «تشارلز بال» هي بالتأكيد مثيرة جدًّا للاهتمام»، وأضافت: «وتثير اهتمامًا حقيقيًا لأنها لرجل حقيقي يخبرنا عما شاهده وجربه بنفسه، بينما عمل آرشي موور عبارة عن «**تجميع خيالي**» عبقري لكل الحوادث المروعة التي نعرف

باستمرار ودائمًا أنها تحدث للعبيد؛ ولكن «**ذكريات**» **تشارلز بال، بالرغم من «صدقها وكونها حقيقية»، لا يمكن أن تكون في مستوى روعة «خيال» آرشي موور»!!!**

مذكرات آرشي موور المزعومة السالفة تمهد السبيل لفهم «**الاستعداد المعاصر**» عند الجمهور لقبولها باعتبارها شهادة حقيقية عن حكايات اجتماعية أو سياسية، على الرغم من اكتشاف كونها عملًا روائيًّا خياليًّا في الأصل. **ولهذا، اضطرّ فَرَايْ، بضغط من الناشر، إلى الاعتراف، في التمهيد الجديد لمذكراته المزيفة السالفة «مليون شظية صغيرة»، بكمية الخيال (Fiction) التي في الكتاب ليحدث بذلك ضجة كبرى: «آمل في أن هذه الاعترافات (أي استعمال الخيال في سيرته الذاتية) لن تغير إيمان القراء في رسالة الكتاب المركزية، وهي أن إدمان المخدرات والكحول يمكن التغلب عليه، وهناك دائمًا طريق إلى الخلاص إذا كافحت بقوة لتجده»!**

وبعد نشر مذكرات ريغوبرتا منشو[(18)] عام 1983، التي وصفت فيها فظائع ارتكبتها حكومة غواتيمالا ضد السكان الأصليين، كشفت تحقيقات من قبل بروفيسور متخصص في الأنثروبولوجيا يدعى ديفيد ستول من كلية ميدلبيري ومعه مراسل لصحيفة **نيويورك تايمز**، أن بعض الحوادث في الكتاب

(18) ريغوبرتا منشو: ناشطة حقوقية سياسية من سكان غواتيمالا الأصليين. ولدت عام 1959 في قبيلة كيشي مايا. هربت إلى المكسيك بعد إنهاء دراسة المرحلة الثانوية وعملت في مجال حقوق الإنسان وكرست حياتها للدفاع عن سكان غواتيمالا الأصليين الذين يتعرضون للإبادة، خاصة بعد صدور سيرتها الذاتية **اسمي ريغوبرتا منشو وهكذا تكون ضميري** عام 1983، ولاقت ترحيبًا عالميًا بعد ترجمتها إلى الإنكليزية والفرنسية، وأصبحت رمزًا للدفاع عن حقوق الإنسان في بلدها. وفي عام 1991، نشر العالم الأنثروبولوجي الأميركي البروفيسور ديفيد ستول تقريرًا استقصائيًا تضمّن زيارة ميدانية لقرية مينشو ومقابلة جيرانها وأصدقائها، وذكر ستول أنه وجد العديد من مزاعم مينشو في مذكراتها غير صادقة ومفبركة، وكشف أنها لفقت الكثير من الأحداث عن حياتها الشخصية والعائلية، وعن أحداث سياسية في غواتيمالا. ثم نشر نتائج دراسته في كتاب بعنوان **ريغوبرتا منشو وقصة سكان غواتيمالا المضطهدين**. وذكر ستول أنه قابل أخاها نيكولاس بينما زعمت منشو أنه مات بسبب المجاعة. وقيل إن بحث البروفيسور ستول كان له هدف سياسي غير موضوعي لكون منشو كانت تؤيد الثوار اليساريين سابقًا. وفازت منشو بجائزة نوبل للسلام عام 1992. (العيسى)

لم تحدث مطلقًا بالطريقة التي وصفتها المؤلفة (حيث ثبت من بين أمور عديدة مختلقة: أن أخاها نيكولاس حي ولم يمت بسبب المجاعة، كما ادعت!!). ثم اعترفت منشو، التي فازت بجائزة نوبل للسلام عام 1992، في حوار صحافي في إسبانيا بعد الفضيحة، أن كتابها عبّر عن «الحقيقة الكبرى» لمعاناة شعبها. ذكر ياغودا أن بروفيسورا للغة الإسبانية في كلية يسلي صرّح - وهو تصريح يعادل تصريح ودفاع ليديا ماريا تشايلد السالف ذكرها، في جريدة «**ذا كرونيكل أوف هاير إيديوكيشن**»: «سواء كانت الأحداث في مذكرات منشو صحيحة أم لا، فهذا لا يهمني»! (أي أنها مقنعة له رغم زيفها وكذبها).

واحد من أكثر الدفاعات المهمة والمثيرة عن كتب المذكرات التي يتم اكتشاف كذبها وزيفها هو الاعتقاد المؤسف بأنها تعكس بدقة وقائع وحقائق موجودة في «خيال المؤلف» وليس في العالم نفسه؛ مثل مذكرات آرشي موور وريغوبيرتا منشو السالفة. يثير مثل هذا الأسلوب الدفاعي الجدلي مسألة مهمة في عمق فهمنا المفترض للأدب، وعن الفرق بين السرد الروائي Fiction والسرد غير الروائي Nonfiction وكذلك عن معاني كل من الحقيقة Truth والخيال والواقع Reality نفسه!

في بداية عام 2008، بلغ غضب النقاد والجمهور من كتب المذكرات ذروة جديدة؛ وذلك خلال موجة مذهلة ومحيرة كشف فيها مؤلفون عن زيف مذكراتهم، التي نشرت مؤخرًا مع فاصل أسابيع بين صدورها من واحدة إلى أخرى. كان هناك كتاب «**حب وعواقب**»؛ وهي مذكرات عن حياة أعضاء عصابات داخل مدن لمؤلفة ادعت أنها ولدت هجينة لزواج مختلط عرقيًّا (أب أبيض وأمّ من الهنود الحمر)، وتعيش مع أفراد عصابة سوداء، وكشف لاحقًا كذبها وأنها مؤلفة بيضاء ثرية درست في مدرسة داخلية راقية للنخبة!

وكان هناك كتاب «ميشا: ذكريات عن سنوات الهولوكوست»، لمؤلفته ميشا ديفونسيكا، وهي امرأة بلجيكية كتبت عن نجاتها من الهولوكوست ثم

هروبها داخل أوروبا، وادعت أنها «نامت مع مجموعة من الذئاب الصديقة في الغابة» ؛ ولكن تم الكشف أن المؤلفة لم تغادر بلجيكا مطلقًا، وأنها أيضًا ليست يهودية كما ادعت! وفي بيان نشر في أعقاب الفضيحة، أعلنت ديفونسيكا بوقاحة: «القصة التي في الكتاب هي لي، وبالرغم أنها «ليست من الواقع الفعلي» ؛ فإنها كانت حقيقتي الخاصة في «ذهني» وطريقتي للنجاة». وأضافت: «والحقيقة هي أنني شعرت دائمًا بأني يهودية».

هذا التبرير للغش الأدبي على أساس أنه، بالرغم من ذلك، يبقى صحيحًا في خيال المؤلف داخل عقله - وهو عالم كما يدعون يساعد الكاتب على «المواجهة» و«النجاة» - يردد بصدى لافت نفس فكرة دفاع جيمس فَرَايْ سالف الذكر عن نفسه عندما كشف عن استعمال الخيال في سيرته الذاتية قائلًا: «**الناس يصبرون على المحن بطرق مختلفة وكثيرة**». **كما أضاف أن خطأه كان «في الكتابة عن شخص خلقته في ذهني لمساعدتي على الصبر والنجاة في معارك الحياة، وليس عن الشخص الحقيقي الذي خاض تلك التجربة»!!** تقع وراء مثل هذا التبرير الذاتي المؤلم للنفس نظرة جمالية مألوفة لدى أيّ شخص مارس صيد السمك فعليًا: «التجربة الواقعية للصيد ليست جذابة كما كانت القصة التي كتب عنها متخيلًا عملية الصيد في ذهنه من دون تجربتها في الواقع». **ويؤكد فَرَايْ: «لقد أردت للحكايات الذاتية التي في الكتاب أن يكون فيها جزر ومد، وأن تكون فيها تحولات دراماتيكية، وأن يكون فيها ذلك التوتر المطلوب في جميع الحكايات الشخصية العظيمة».**

ومثل هذه الادعاءات تتكتل لتمثل معًا دفاعًا صالحًا تمامًا لنوع أدبي معين؛ ولكن هذا النوع المدافع عنه هنا ليس السيرة الذاتية، بل «الرواية». إن الروائي، على كل حال، هو كاتب يملك واقعًا داخليًا حيًّا يحتاج إلى التعبير عنه، ويملك كذلك القدرة على اختراع قصص مثيرة مع مسارات وتوترات مشوقة توجه القارئ إلى رسالة معينة، وهو الكاتبة أو الكاتب الذي يتخيل نفسه يخوض تجارب الآخرين لكي يستطيع خلق شخصيات واقعية سيكولوجيًا.

إن فشل كل من المؤلفين والقراء معًا الواضح والمستمر للتفرقة بين «حقيقة» في عقل المؤلف و«الحقيقة» الواقعية الموضوعية ليس أمرًا جديدًا في تاريخ الأدب الحديث. إنها إشكالية ترجع إلى قضايا لم تحسم عندما بدأت السيرة الذاتية والرواية في البزوغ بأشكالها المعاصرة في مطلع القرن الثامن عشر. يشير ياغودا إلى حقيقة مثيرة للاهتمام؛ وهي أنّ دانييل ديفو[19] **Daniel Defoe، أقدم روائي كتب باللغة الإنكليزية في التاريخ، ألّف الكثير من رواياته على شكل مذكرات؛ ما عقّد «العلاقة» بين النوعين بصورة ظلت مربكة حتى وقتنا الحالي.** ونشر في عام 1719، كاتب غير معروف يدعى تشارلز غيلدون كراسًا أثبت فيه أن الكتاب الشعبي الرائج المسمى «**الحياة والمغامرات المفاجئة الغريبة**» **(والذي كتب الناشر على غلافه «مذكرات حقيقية ولا خيال فيها مطلقًا») هو في الحقيقة لبحار إنكليزي مزيف وأنه مجموعة ملفقة من الأكاذيب التي لم تحدث مطلقًا. البحار المقصود كان روبنسون كروزو، وكان غيلدون بالطبع محقًا، فمثل كل الروايات كانت بمعنى من المعاني مجموعة متخيّلة من الأكاذيب.**

ولكن الحقيقة التي نطلبها ونسعى إليها من قراءة الروايات مختلفة عن الحقيقة التي نسعى إليها من قراءة المذكرات؛ فالروايات، يمكننا القول، تمثل «**حقيقة**» عن الحياة، في حين أن كتب المذكرات والسرديات الشخصية الأخرى تمثل «**الحقيقة**» عن أشياء محددة حدثت بالفعل. **وبعد جيل من ديفو، وقبل روسو بجيل، كان الفيلسوف ديفيد هيوم**[20] قد تأمل الفرق بين

(19) دانييل ديفو (Daniel Defoe): (1660-1731) صحافي وكاتب روائي بريطاني ولد في لندن. وترجع شهرته إلى أنه يعد من أوائل كتّاب الرواية بالإنكليزية. هو ابن جزار وتلقى تعليمًا قليلًا جدًّا. كان كثير السفر إلى حد كبير وهو شاب، فقد سافر دانييل إلى جميع أنحاء أوروبا. وحين عاد إلى بلاده، أصبح رجل أعمال لكنه فشل في هذا المجال وفقد كل أمواله. أصبح مهتّمًا بالسياسة، وكتب عددًا كبيرًا من المقالات عن الأحزاب التي دعمها في حياته، وغيّر انتماءاته السياسية في مناسبات كثيرة. وقد سجن مرات عديدة. أصدر أولى رواياته عام 1719، وهي **حياة ومغامرات روبنسون كروزو الغريبة المدهشة**. وتبعت هذا الكتاب كتب أخرى، بما فيها **قبطان سنجلتون ومول فلاندرز**. كان غزير الإنتاج، إذ أصدر أكثر من 500 كتاب. (العيسى)

(20) ديفيد هيوم (1711-1776) (David Hume): فيلسوف واقتصادي ومؤرخ إسكتلندي، ويعتبر بدون جدال من أهم الشخصيات في الفلسفة الغربية وتاريخ التنوير الإسكتلندي. (العيسى)

المذكرات والخيال - وهو فرق في نهاية المطاف، له علاقة بالقراء بمثل المؤلفين. يستشهد ياغودا بمقطع من «رسالة في الطبيعة البشرية» لهيوم المنشورة عام 1740، التي قارن فيها هيوم تجربة قارئ لسردية «رومانسية»، أيْ رواية مع تجربة قارئ لسردية «**تاريخ حقيقي**» **أيْ سيرة ذاتية.**

لقد كان لدى الأخير (قارئ سردية عن سيرة ذاتية أو تاريخ حقيقي) تصور أكثر حيوية لكل الحوادث. إنه يتعمق في هموم الشخصيات: يوضح لنفسه أعمالهم، هوياتهم، صداقاتهم، وعداواتهم: حتى إنه يذهب إلى درجة تشكيل مفهوم لهيئاتهم وبيئاتهم وشخصياتهم؛ بينما السابق (قارئ سردية رومانسية أو رواية) لا يعطي أهمية لشهادة المؤلف، ولديه تصور أكثر وهنًا وضعفًا لكل هذه التفاصيل، وباستثناء الاعتماد على الأسلوب ومهارة السرد التعبيري، لا يمكنه الحصول إلا على «استمتاع» قليل منها.

إن القصد بـ «المتعة» عند هيوم هو التنشيط والإشراق/التنوير الفكري - أيْ ما كنا نسعى إليه من قراءة المذكرات، بطريقة أو بأخرى، منذ القديس أوغسطينوس. إنه نوع أدبي تكون «**قيمة الحقيقة**» فيه بالضرورة ذات أهمية أكبر من «القيم الجمالية».

سيرة بنيامين ويلكوميريسكي «شظايا» (عام 1995) عن تجارب المؤلف المرعبة في الهولوكوست كطفل يهودي... اكتُشف «زيفها» عام 1998 وأن مؤلفها الحقيقي كان رجلاً سويسريًا مسيحيًا!!

وبعد قرنين ونصف القرن من استنتاج هيوم، وفي رد فعل للكشف عن أن سيرة بنيامين ويلكوميريسكي «**شظايا**»[21] كانت مزيفة وهي سيرة نشرت

(21) بنيامين ويلكوميريسكي: اسم مستعار لمواطن سويسري مسيحي اسمه برونو من مواليد عام 1941. اسمه الحقيقي برونو غروجان. نشر عام 1995 سيرته الذاتية بعنوان: **شظايا: ذكريات عن الطفولة زمن الحرب**، مدعيًا فيها أنه من ضحايا الهولوكوست. حصل الكتاب على مديح النقاد وحصد جوائز عديدة بعد ترجمته من الألمانية إلى الإنكليزية والفرنسية. وفي آب/أغسطس 1998، نشر الصحافي السويسري دانييل غانزفريد تقريرًا استقصائيًا مهمًا شكك في =

عام 1995، لتجارب المؤلف المرعبة في الهولوكوست كطفل يهودي من لاتفيا (في الحقيقة، اكتُشف المؤلف الحقيقي الذي كان رجلًا سويسريًّا مسيحيًّا اسمه الحقيقي برونو غروجان)، ذكرتنا ناجية من الهولوكوست تدعى البروفيسور روث كلوغر (Ruth Klüger) وهي أستاذة فخرية للغة الألمانية بجامعة كاليفورنيا-إيرفين، أن كتابة مذكرات مزيفة - خاصة سردية ذاتية مزيفة عن رعب الهولوكوست، ولا سيما الصدمة المؤلمة والمحنة العنيفة لليهود - لا يمكنها، بكل تأكيد، أن تقدم أكثر من تجربة جمالية فاسدة، أو متعة هابطة في مستوى القمامة (بالمعنى الحرفي المعتاد لكلمة «قمامة»)؛ لأنها تفتقد قيمة «الحقيقة». **وعندما يتم الكشف عن زيف تلك المذكرات، وأنها تمثل معاناة مخترعة، تتدهور سمعتها لتصبح «أدب زبالة» رديئًا وهابطًا مهما قدمت مبررات قوية ومقنعة بأن جزءًا كبيرًا من أحداث هذه السيرة قد حدث بالفعل لآخرين**. وفي غياب قيمة «الصدق والحقيقة» في المذكرات، وعدم توافر ضمان كوجود سارد حقيقي «آخر» عانى مثل المؤلف، تصبح تلك الكتب بالكاد نصًّا دراميًّا لا يقدم تنويرًا أو إضاءة.

عندما دافع بعض القراء عن فَرَايْ على أساس أنه على الرغم من كون مذكراته مزيفة لكنها زودتهم (كما كان يأمل) بسمو روحي ومعنوي أصيل كانوا يتوقون لمثله، فإنهم دافعوا في الحقيقة «من دون وعي» عن خيال فَرَايْ وليس تجربته الحقيقية. وهذا الخيال «ربما» يقدم بالصدفة متعة سامية تحكي عن «حقائق»؛ ولكنها لا تستطيع تقديم «الحقيقة».

ولكن السؤال الذي لا يناقشه ياغودا مطلقًا وحقًّا هو: «لماذا، الآن على وجه الخصوص، يوجد الكثير من الخلط بين الواقع والخيال؟». فمثلًا، لا يذكر ياغودا في كتابه فضائح التزييف والخداع المتعلقة بالصحافة، مثل ستيفن غلاس في مجلة **نيو ريببلك**، وجايسون بلير، في صحيفة **نيويورك**

= صدقية الكتاب، حيث كشف وجود معلومات مفبركة وغير صحيحة عن طفولة المؤلف وعن معسكرات الاعتقال النازية، إذ قال إن السائحين في ألمانيا لديهم معلومات أكثر دقة من ويلكوميريسكي عن أحداث الهولوكوست. (العيسى)

تايمز - التي تكشفت في نفس فترة انكشاف فضائح مماثلة لكتب مذكرات. وتشرح الإجابة عن هذا السؤال لماذا يكون صعبًا عدم الشعور بأن هناك شيئًا مميزًا بخصوص المرحلة الحالية لانتشار كتابة المذكرات وردود الفعل العنيفة المضادة لها، كما سنشرح في الفقرات التالية.

لقد انخفضت قيمة مصطلح «الواقع» وتدهورت بسرعة. مثلًا، تأملوا «**تلفزيون الواقع**»: في هذه البرامج، هناك أناس «حقيقيون» (أي ليسوا ممثلين محترفين) يُوضعون في مواقف مصطنعة - يذهبون إلى مواعيد مرتبة بشكل متقن، أو يتركون في جزر أو صحاري، أو يُعاد فرش وتزيين شققهم القبيحة، أو يُلقى بهم في خزانات مليئة بالديدان أو العقارب أو الثعابين - لكي تتم إثارة واستفزاز عواطف «حقيقية» منهم والتي من أجلها يتابع الجمهور تلك العروض (مثل خيبة الأمل، الرغبة والشهوة، الفرح، الامتنان، والرعب). هذه الرغبة الهوسية الملحة للجمهور في مشاهدة عروض «حقيقية/واقعية» من الحياة ليحسوا بتلك المشاعر المفرطة بدلًا من المشاعر التمثيلية غير المقنعة التي يتم التمرن لإخراجها علنًا بإتقان كما يحدث في المسرح أو في السينما، تنبع بالتأكيد من بزوغ ثم انتشار برامج «التوك شو» الحوارية في السبعينيات التي يضع مقدموها ضيوفهم العاديين مع مشكلاتهم في دائرة الضوء: بدأها أولًا المذيع الشهير فيل دوناهيو، ومن ثم سالي جيسي رافائيل ولاحقًا مونتيل ويليامز. وساعدت هذه البرامج التلفزيونية في خلق ونشر ثقافة واسعة لبرامج عن مراجعة النفس والبوح الذاتي والتي من دونها لم يكن من الممكن بزوغ الموجة الأخيرة من تأليف وقراءة كتب المذكرات بشغف.

«كلما زاد «الادعاء» الدراماتيكي في السيرة
الذاتية، زاد احتمال كون الحكاية «خيالية» ومبالغًا فيها!!»...
هكذا اعترف الأميركي جيمس فَرَايْ في تمهيد الطبعة الجديدة لمذكراته بعد كشف زيفها!!

والأهم لتاريخ تطور «كتب السيرة الذاتية» هو أنها خلقت سياقًا يبرر الشعبية الهائلة للسيدة «أوبرا وينفري» التي استعملت برنامجها منصةً «ليبوح»

الناس بقصصهم، أو في حالة المؤلفين لـ «يبيعوا» قصص حياتهم المهمة. ولذلك، ليس من قبيل الصدفة أن وينفري نفسها وقعت فريسة لأكثر من حالة مذكرات مزيفة. (إضافة إلى ترويجها لمذكرات جيمس فَرَايْ، وينفري روّجت ما يمكن أن يكون أغرب مذكرات زائفة في التاريخ وهي تلك التابعة لهرمان روسنبلات، أحد الناجين من الهولوكوست الذي نمق وزوّق قصته الحقيقية لمحاولة البقاء على قيد الحياة في المعسكرات النازية، مع لمسة عاطفية مزيفة، حيث اخترع وجود ما سماه «ملاكه» وهي فتاة يهودية صغيرة، ادعى أنها رمت له التفاح في المعسكر من فوق السياج). توضح قابلية وينفري لذلك الخداع كيف أصبحت أوبرا تبالغ فوق اللازم والمعقول، وتتوق وتقبل أية قصة لها نهاية مقبولة (من أجل نجاح برنامجها) - وهو ما وصفه ذات مرة الروائي والناقد الأميركي ويليام دين هاولز (1837-1920) لـ إيدث وارتون بالشغف الأميركي للبحث عن **«تراجيديا نهاية سعيدة»** - ما يجعلنا عرضة لعمليات احتيال وخداع من مؤلفين ينبغي في الأصل أن نثق بهم؛ لكنهم يتحركون بيننا كباعة متجولين ليسوّقوا بضاعة لرفع المعنويات والسمو الأخلاقي، كما يزعمون. وكما يذكرنا فَرَايْ في تمهيد مذكراته الجديدة بعد كشف زيفها: **«كلما زاد «الادعاء» الدراماتيكي في السيرة الذاتية، زاد احتمال كون الحكاية «خيالية» ومبالغًا فيها!!»**.

لكن جوع أوبرا وينفري - وبالتبعية جمهورها - الشديد لحكايات جيدة بأيّ ثمن يشير إلى أن مذكرات «الكوارث والخلاص»، مع سردها المحكم وتيمتها الواضحة المباشرة، قد تكون بدأت تملأ بالفعل فجوة خلقت جراء تنحية الرواية كنوع أدبي تدريجيًا من مركزها الرئيس في الثقافة الأدبية. وفي الواقع، فإن برامج مثل برنامج وينفري، التي تصر على استثارة «مشاعر حقيقية»، قد تكون خلقت بنفسها جمهورًا خاصًا من الذين سيعتبرون المشاعر الخيالية كما في الرواية نوعًا أدبيًا ليس مشبعًا لهم ولا تقدم أية «دراما تنويرية» مقنعة؛ فمثلًا: إذا كان يمكنك مشاهدة امرأة حقيقية وحيدة تسعى بشبق نحو شاب رياضي مربوع وجذاب جنسيًّا في برنامج «تلفزيون الواقع»،

فلماذا ترهق نفسك - مثلًا - بقراءة رواية «**مدام بوفاري**» لمعرفة مغامرات بطلتها إيما بوفاري (Emma Bovary) العاطفية؟ والأكثر أهمية، المال الطائل الذي صرف في تلك البرامج من أجل الحصول على «**مشاعر فورية مفرطة**» صار يبرر جعلها مفبركة ومصطنعة بشكل أكثر من واضح حتى لا تحدث خسارة للمنتج، أيْ باختصار كونها أيضًا أصبحت خيالية بطريقة ما ولا تعبر عن الواقع. ويؤكد ياغودا بزوغ إشكالية محيرة عند جمهور القراءة تتلخص في وجود التباس وتشوش عميق حول: أين تنتهي الحقيقة وأين يبدأ التظاهر والتمثيل والادعاء. ويرى ياغودا أن هذه الإشكالية سببها ليس طوفان كتب المذكرات المخادعة فحسب؛ ولكن الانتشار لما يسميه ياغودا المذكرات ذات البطولة الاستعراضية الخطرة Stunt وهي سرديات تنجم من بطولات «مزعومة» غير محتملة ومشكوك فيها بدرجة كبيرة (مثل: مذكرات شخص يزعم أنه عمل في غسل الأطباق في جميع الولايات الأميركية الخمسين!).

يرتبط هذا الإبهام الضبابي والخلط للحقيقة مع الخيال المصطنع مع تشويش كبير آخر: الفرق بين الحياة العامة والخاصة. أجبر بزوغ الهواتف المحمولة ملايين الناس الذين يجلسون في المطاعم، أو الذين يقرؤون في القطارات، أو الذين يتسكعون في غرف الانتظار، أو يحضرون المسرح ليصبحوا طرفًا في التفاصيل الأكثر حميمية لحياة أناس آخرين (مثل: طلاقهم، قوة شركاتهم، وتقدمهم في العلاج النفسي، وخلافاتهم مع رؤسائهم أو أصدقائهم أو أهلهم وجميع تفاصيل حياتهم الشخصية). لا يوازي هذه التجربة والتعود المستمر على معرفة قصص حقيقية لأشخاص آخرين إلا حرص وتوق عظيم من الناس لرواية قصصهم الحقيقية، ولكن ليس عبر الهاتف فقط! فالإنترنيت يعتبر شهادة حاسمة لعنصر يناقشه ياغودا في سياق خروج طوفان المذكرات في القرن السابع عشر عندما جعلت التغييرات في تكنولوجيا الطباعة وصناعة الورق عملية النشر ممكنة على نطاق أكبر من ذي قبل: أيْ كيف أثر التقدم في وسائل الإعلام وطرق التوزيع في تطور سرد الرواية الشخصية. **أعظم فيضان للسرديات الشخصية على الأرض حصل،**

مؤخرًا، على الإنترنت. فور توافر وسيلة رخيصة ومناسبة لفعل ذلك، قام الناس بحماس بنشر مذكراتهم، وتعليقاتهم، وآرائهم، ومراجعاتهم للأدب وهم يتقمصون بسعادة دوري المؤلف والناشر معًا.

ولذلك، إذا كنا نشعر بأننا هوجمنا وأغرقنا بانتشار طوفان المذكرات الشخصية، فإن ذلك ليس إلا بسبب كوننا أنفسنا في حقيقتنا نمثل أعظم مثال واقعي لهذه الحكايات الشخصية التي توجد فينا وليس على أرفف المكتبات.

وعلى أية حال، فإنه من الصعب ألّا نعتبر أن أكثر الغضب والهيجان ضد المؤلفين والناشرين مؤخرًا يمثل تحويلًا «لا شعوريًّا» منا لتوترنا وقلقنا من «عدم قدرتنا» على التصفية والسيطرة على عدد مفرط من المذكرات والسرديات الذاتية المشبوهة القادمة إلينا من كل الاتجاهات. في الشارع أو في عالم المدونات، لا يوجد محررون ولا مدققون ولا باحثون مساعدون من الذين نستطيع أن نتهمهم بالإخفاق عندما نكشف زيف كتاب مذكرات تقليدي.

تركيز ياغودا وإصراره على ابتذال وانتهازية هذا النوع الأدبي يحجبان الرؤية عن حقيقة وجود بعض كتب المذكرات والسير الذاتية العظيمة؛ فمثلًا لا يكرس ياغودا في بحثه الممتاز ولو مساحة صغيرة لروائع في السيرة الذاتية مثل **تعليم هنري آدمز**[22] *The Education of Henry Adams* وهو خيار بحثي يريد

(22) كتاب **تعليم هنري آدمز** (*The Education of Henry Adams*): سيرة ذاتية تسجل كفاح شخص من مدينة بوسطن الأميركية يدعى هنري آدمز (1838–1918) ليستوعب بزوغ القرن العشرين، ويحتوي على نقد حاد لنظرية التعليم في القرن التاسع عشر وممارساتها. بدأ آدمز يوزع نسخًا محدودة من مذكراته التي طبعها على حسابه لأنه لم يرد نشرها إلا بعد وفاته. وبعد نشرها رسميًّا، فاز بجائزة بوليتزر للكتابة وتم تصنيفه في المرتبة رقم 1 كأهم كتاب غير روائي إنكليزي في القرن العشرين في أمريكا. وعلى غير المعتاد في السيرة الذاتية كان الكتاب يعبر عن أفكار آدمز أكثر من أعماله، ويحتوي على تأملات طويلة وعميقة حول التغيرات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي عاصرها المؤلف. واستنتج آدمز أن تعليمه التقليدي فشل تمامًا في مساعدته على الاستعداد لتطورات القرن العشرين السريعة؛ ما أجبره على تعليم نفسه ليصبح المحور الذي ينتظم محتويات الكتاب: هو كيف ضاع التعليم الرسمي الذي تلقاه وغيره من جوانب حياته ضاعت هباء، ما أوجد لديه حاجة إلى تعليم نفسه من خلال التجارب والصداقة والقراءة. يعتبر

ياغودا تبريره على أساس أنه يقدم منهجًا نقديًّا تاريخيًّا وليس جماليًّا لكتب السيرة الذاتية. ويعتبر هذا التكتيك البحثي الغريب مثل تأليف دراسة تاريخية عميقة عن تدهور الرواية من دون الإشادة بالروايات العظيمة؛ لأن دراسة ناقصة كهذه ستقدم لنا فهمًا قليلًا عن سبب قراءتنا للروايات. ويكشف هذا الحجب والإغفال المتعمدان من ياغودا عن شكه الكبير في فكرة أن البوح الحميم يمكن أن تكون له دوافع غير «الاستعراض» أو «التجارة»!

تجربة مذهلة عن الذاكرة البشرية

وبالنسبة إلى تهمة فرويد الدقيقة، بأن المذكرات معيبة ومخففة كنوع أدبي بسبب «الكذب والزيف والخداع»، فقد يكون المذنب هنا ليس في الحقيقة هذا النوع الأدبي المسمى «مذكرات»؛ ولكن ببساطة «الذاكرة» نفسها. القسم الأكثر إثارة في كتاب ياغودا هو الفصل الذي يعرض فيه، ولو بشكل سطحي، المعلومات العلمية الواسعة حول الذاكرة وكيف تعمل. الفكرة التي يقدمها هي أن هناك رغبة فطرية واضحة للجنس البشري العاقل في السرد المتماسك؛ لأن «المعنى» يؤثر غالبًا على طريقة تذكرنا للأشياء. ويقتبس ياغودا من عالم النفس الشهير إف سي بارتليت[23]، من دون الخوض في تفاصيل عمله، حيث يقول إن بارتليت أجرى تجربة مذهلة تم فيها إخبار أناس بحكايات خرافية تحتوي على عناصر غير منطقية ومتناقضة وغير مقبولة عقليًا. وعندما طُلب منهم إعادة سرد الحكايات، أغفلوا أو حسنوا - دون أن يُطلب منهم ذلك - المعلومات الشاذة والمنحرفة عن المعقول!!

ومؤخرًا في دراسة أخرى، عندما سئل طلبة دراسات عليا عن مستوى

الكتاب من أهم الأعمال الأدبية الأميركية لكونه يقدم نظرة فاحصة وعميقة للحياة السياسية والفكرية في أواخر القرن التاسع عشر. (العيسى)

(23) السير فريدريك بارليت: (1886-1969) عالم نفس بريطاني يعد أول بروفيسور ومؤسس معمل في حقل علم النفس التجريبي في جامعة كيمبريدج العريقة، وهو من رواد علم النفس المعرفي. (العيسى)

توترهم الذي تم قياسه قبيل الامتحانات، ضخموا تلك المستويات. وكما قال ياغودا بحق: «حكاياتهم المزيفة الصغيرة التي رووها هكذا: «لقد كنت حقًّا قلقًا ومتوترًا؛ ولكنني نجحت في الامتحان» تستحق أن تكتب في مذكراتهم». ولكن حكاية حقيقية واقعية مثل «لم أكن قلقًا ونجحت في الامتحان» لا تستحق أن تكتب في المذكرات. وبعبارة أخرى، نحن ننجح في تحويل ذكرياتنا إلى حكايات ممتازة حتى لو لم تكن تلك الحكايات حقيقية تمامًا. لا يحتاج أيّ شخص يكتب مذكراته إلى تجارب سيكولوجية لتخبره بأن الذاكرة تستطيع أن تكون محايدة أو منحازة أو معطوبة.

منذ سنوات قليلة، كنتُ عائدًا في الطائرة من أستراليا بعد أن قابلتُ ناجين من الهولوكوست لنوع مختلف نوعًا ما من السرد الشخصي: حكاية بحثي لمعرفة ما جرى لعم أمي وعائلته، وهم يهود بولنديون، خلال الحرب العالمية الثانية. وعندما أجريت مقابلات مع ناجين من المدينة نفسها التي كان يسكنها عم أمي، لم أسأل عن أقاربي وماذا حدث لهم فقط؛ ولكنني سألت أيضًا عن أدق التفاصيل الصغيرة للحياة قبل وأثناء وبعد الحرب: ماذا كانوا يأكلون في الإفطار، ومن كان أساتذتهم في المدرسة الإعدادية، وكيف وأين كانوا يقضون العطل المدرسية.

ثم صدمتني حادثة عارضة في الطائرة ونحن عائدون علمت منها أن ما قمت به في تلك المقابلات كان مزيجًا من «طموح مجنون»، و«مغامرة شخصية مؤلمة» بصورة عامة لمحاولة إعادة بناء الماضي، أعني ماضي أيّ شخص من «الذاكرة» فقط. كنتُ جالسًا في الطائرة بجوار أخي مات Matt، وهو مصور فوتوغرافي متميز وقام بتصوير الناجين من الهولوكوست في تلك المقابلات. وفي منتصف الرحلة تقريبًا، بدأ بعض الأطفال في الجزء الخلفي من الطائرة، كانوا يرتدون ملابس جوقة النشيد المدرسية، بغناء أغنية «شعبية» Pop شهيرة من عقد السبعينيات في انسجام تام. التفت أخي مات نحوي وهو مسرور، وقال: «**هل تذكر يا دانيال، كنا نغنيها معًا في جوقة المدرسة؟**».

نظرتُ إليه وقلت بدهشة وذهول: «ماذا يا مات؟ أية جوقة؟ أنت لم تشترك معي في الجوقة مطلقًا يا مات! أنا كنت رئيس الجوقة المدرسية، ومتأكد تمامًا من جميع أعضائها!!». والآن جاء دور مات ليدهشني عندما صعقني: «لا تمزح هكذا يا دانيال، لقد كنت أقف دائمًا على يمينك في الجوقة قرب السلالم أثناء الحفلات!!».

أخي مات كان يتحدث عن تاريخ مشترك بيننا يعود إلى عام 1978، وهو ماض «حديث نسبيًا». الناجون من الهولوكوست الذين قابلناهم للتو في أستراليا كانوا يكافحون من أجل العثور على مفاتيح لذاكراتهم الصدئة لاستعادة بعض الحكايات والذكريات التي حدثت منذ ستين أو سبعين أو ربما ثمانين سنة. فكرت في هذه المفارقة العجيبة، وانفجرت ضاحكًا. ثم ذهبت إلى منزلي وكتبت مذكراتي.

ملحق صور الفصل الثالث

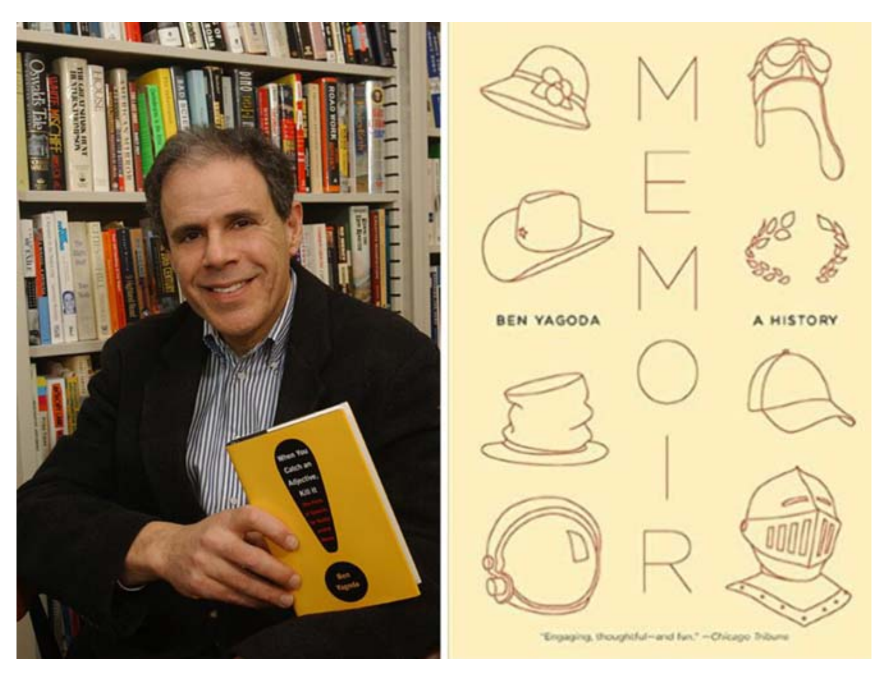
إعداد وتحرير: د. حمد العيسى



كاتب العرض البروفيسور دانيال مندلسون

البروفيسور دانيال مندلسون ناقد أميركي ولد في نيويورك عام 1960. حصل على الدكتوراه عام 1994 في «لغات وأدب الإغريق والرومان» (Classics) من جامعة برينستون العريقة التي أصبح يدرس فيها؛ ولكنه اشتهر بصورة أكبر كناقد للكتب والسينما والمسرح في كبريات الصحف والمجلات الأميركية مثل «**نيويورك تايمز**»، و«**نيويورك ريفيو أوف بوكس**»، و«**نيويوركر**»، و«**إسكواير**»، و«**ذا باريس ريفيو**»، و«**لوس أنجلوس تايمز**» و«**نيو ريببلك**» وغيرها من المطبوعات العريقة. حصل على جوائز وطنية عديدة في الكتابة الصحافية والنقد، وأصدر ستة كتب. حصل عام 2006 على جائزة جمعية نقاد الكتب الوطنية في فرع «السيرة الذاتية» عن كتابه «**المفقودون: البحث عن ستة من ستة ملايين شخص**».

(هذه الصفحة من إعداد د. حمد العيسى)



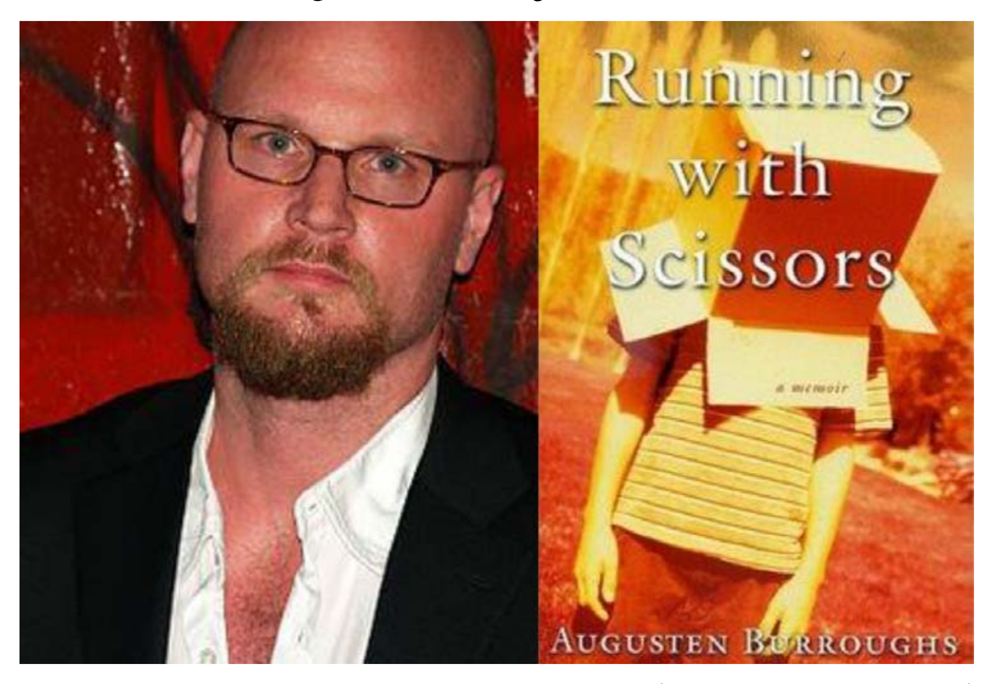
كتاب «تاريخ كتب السيرة الذاتية» لمؤلفه البروفيسور بن ياغودا.

ولد بن ياغودا عام 1954، في نيويورك. حصل على الدكتوراه في اللغة الإنكليزية من جامعة ييل (Yale) العريقة. يُدرس الصحافة والكتابة الإبداعية في قسم اللغة الإنكليزية بجامعة ديلاوير. كما يمارس كتابة النقد الأدبي والفني في كبريات المطبوعات الأميركية بصورة غير متفرغة ككاتب مستقل. ويعيش مع زوجته وابنتيه في ولاية بنسلفينيا.

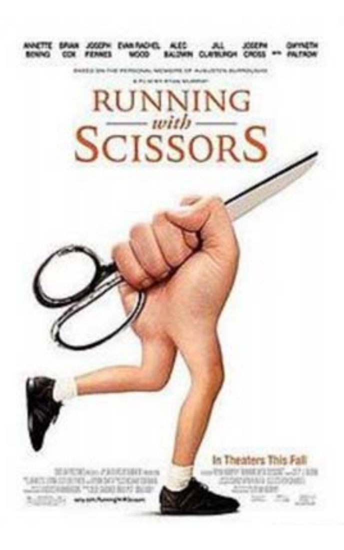
(هذه الصفحة من إعداد د. حمد العيسى)

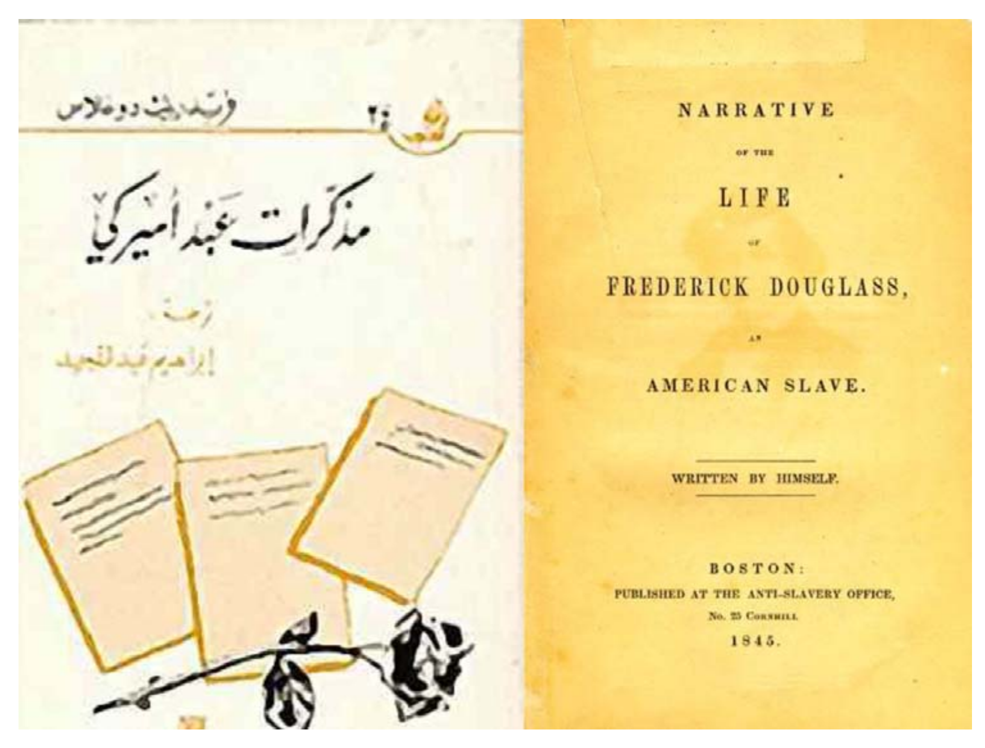


كتاب القديس أوغستينوس «اعترافات».

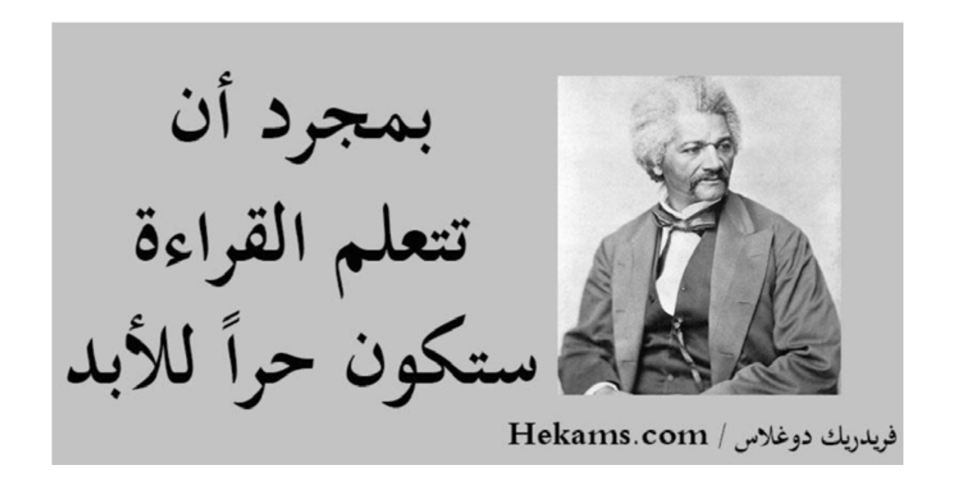


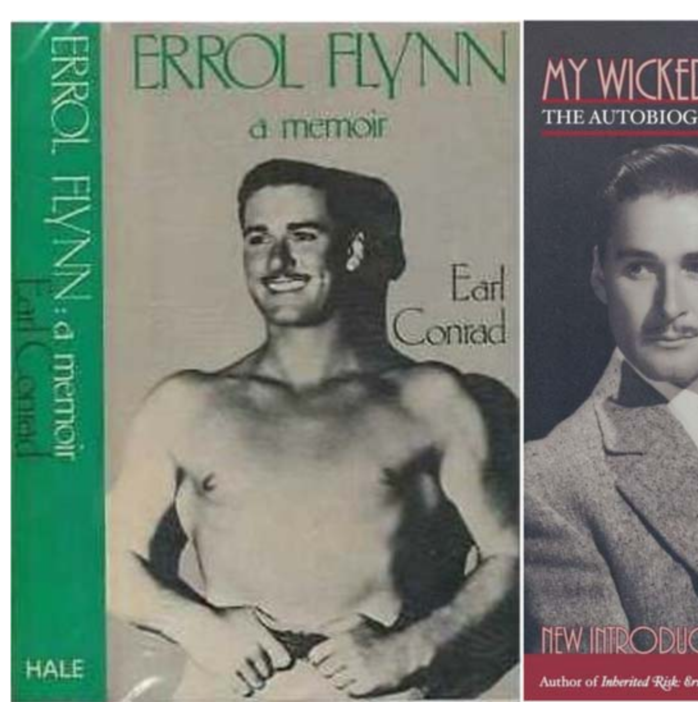
أوغسطن زون بوروز: كاتب أميركي معاصر وشهير ولد عام 1965. وهو مؤلف سيرة ذاتية أصبحت بست سيلر رائجة جدًا بعنوان «الجري مع مقص» (عام 2002). وصل الكتاب، في البداية، إلى قائمة نيويورك تايمز للكتب الأكثر مبيعًا واستمر فيها 8 أسابيع؛ ولكن ثبت لاحقًا أنها سيرة مزيفة، لأنها تحتوي على الكثير من الخيال والمبالغة. ومن ثم، اضطر الناشر إلى دفع مليوني دولار كأضرار نفسية لإحدى العائلات التي كتب عنها المؤلف. وجرى، لاحقًا، تغيير وصف العمل من «سيرة ذاتية» إلى «كتاب» في طبعة و«شبه سيرة ذاتية» في طبعة أخرى. أُنتج فيلم سينمائي عن الكتاب عام 2006، وحصل على تقييم 5 نجوم من 10 نجوم.

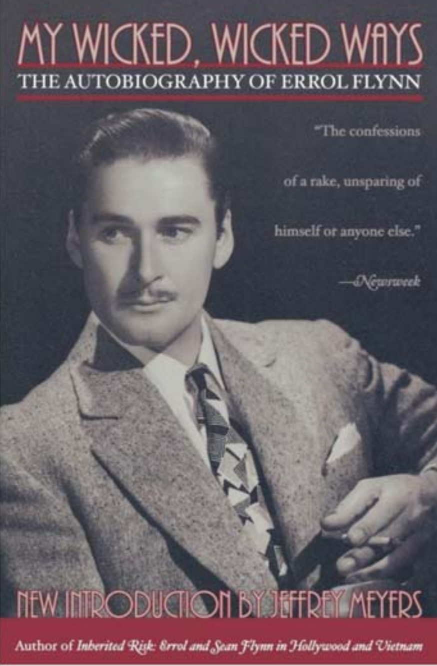




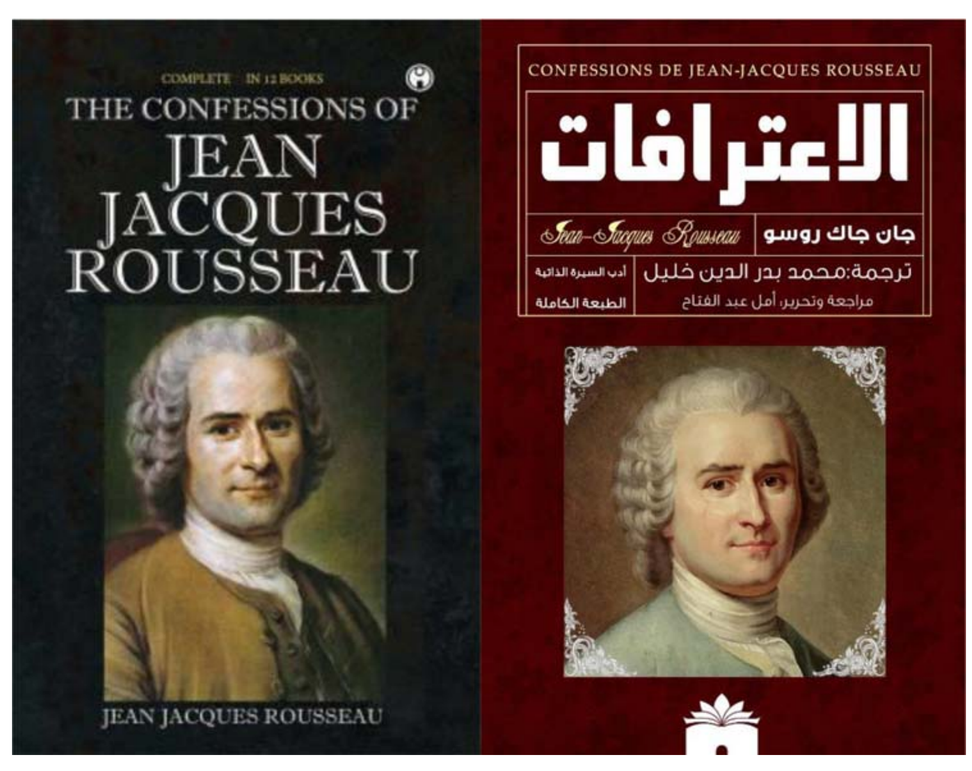
فريدريك دوغلاس (1818–1895) رجل أسود ولد عبدًا في ولاية ميريلاند؛ ولكنه هرب في العشرين من عمره إلى نيويورك، حيث وجد حريته. عمل صحافيًا في جريدة «المُحرِّر» التي يملكها وليام لويد غاريسون وتعاونا في مناهضة العبودية. برع في الصحافة، واكتسب شهرة كبيرة كخطيب بليغ ضد العبودية. تعرف إلى أبراهام لينكولن وساهم في إقناعه بإصدار «إعلان تحرير العبيد». يوصف بأنه مؤسس حركة الحقوق المدنية الأميركية. كتب، عام 1845، سيرته الذاتية «مذكرات عبد أميركي»!



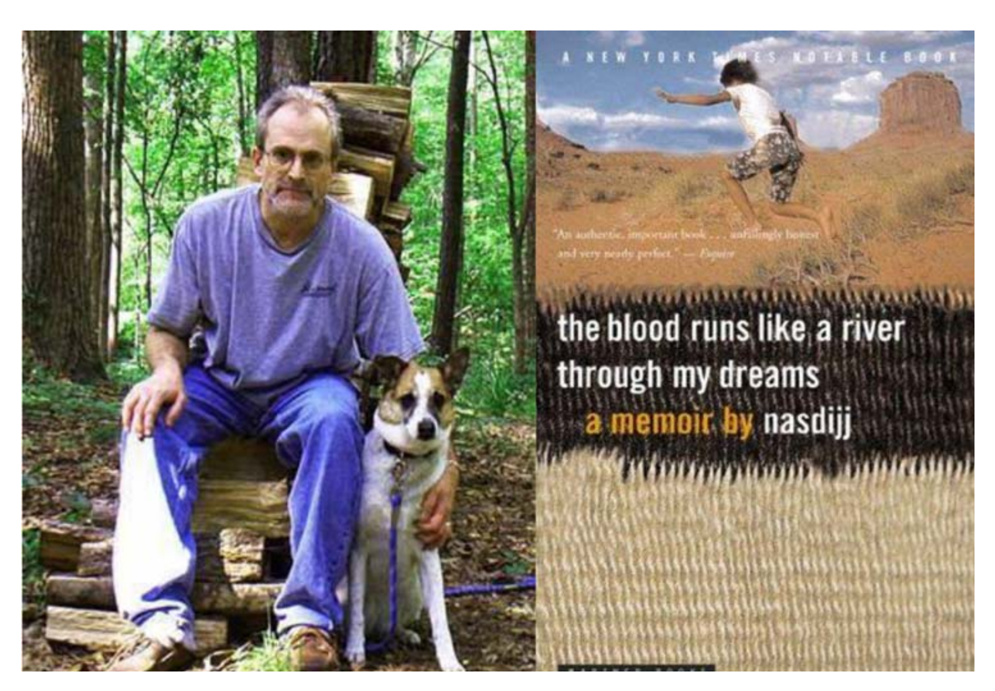




إنها بالضبط مكانة «مذكرات الخلاص» كشاهدة (أو كشهادة) على وضع الحياة الحقيقي الذي يسبب غضبًا عنيفًا وصاخبًا عندما تزور المذكرات وتمتلئ بالكذب. وبالعكس، إذا كان الممثل إيرول فلين Errol Flynn قد عاشر نجمات أكثر بعشرة أو أقل بعشرة مما يدعي في سيرته الذاتية، فلن تشعر بأنك خدعت!!



كتاب «الاعترافات» هو سيرة ذاتية لجان جاك روسو، ويُنشر بالإنكليزية غالبا تحت عنوان «اعترافات جان جاك روسو» لتمييزه عن كتاب القديس أوغستينوس «اعترافات». يغطي الكتاب السنوات الـ53 الأولى من حياة روسو، حتى عام 1765. انتهى الكتاب عام 1769، ولكن لم يُنشر حتى عام 1782، بعد أربع سنوات من وفاة روسو، على الرغم من أن روسو قرأ مقتطفات من مخطوطته علنًا في صالونات مختلفة وأماكن اجتماع أخرى.

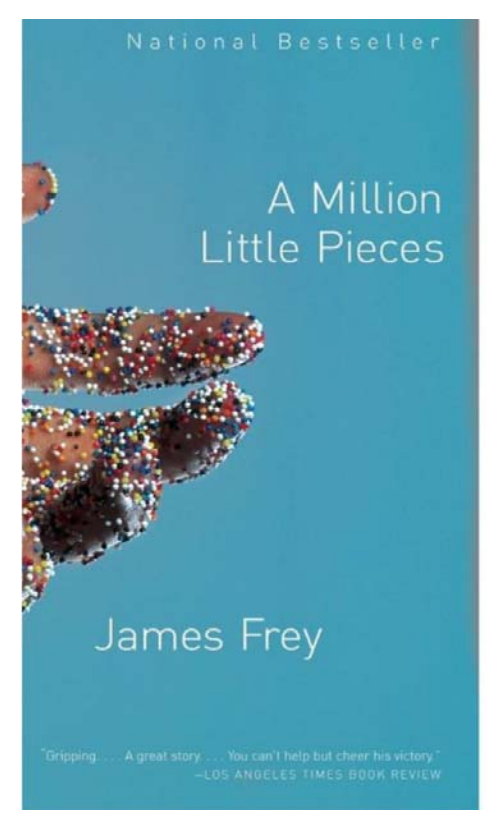


ياغودا، المبدع بصورة خاصة عندما يناقش المذكرات الكاذبة والمزيفة، يكشف بسعادة بالغة كيف أن مذكرات بعنوان «الدم يجري كنهر في أحلامي» (يمين) وهي واحد من ثلاثة كتب سيرة ذاتية لمؤلف أميركي ادعى كذبًا أن أصله من الهنود الحمر ويدعى ناسديج (يسار)، قدم فيه المؤلف «كاتالوغًا مزيفًا» ضخمًا منوعًا من جميع أنواع المعاناة (طفل مشوه بسبب إدمان أمه الكحول أثناء الحمل، وحياة المهاجرين، والتشرد، والإيدز) والتي ادعى أنها غذت رفضه وكراهيته لحضارة الرجل الأبيض؛ ولكن تبين، في النهاية وبعد التحري، أن مؤلفها الحقيقي رجل أميركي «أبيض» من وسط أميركا مطلق مرتين وله كتابات سردية إبداعية سابقة. كانت البداية عندما نشر ناسديج عام 1999 مقالة طويلة يلخص تلك السيرة بالعنوان نفسه «الدم يجري كنهر في أحلامي» في مجلة «إسكواير» الشهيرة ليفوز بجائزة الصحافة الوطنية، ثم نشر السيرة الذاتية في كتاب بعدما وسعها كثيرًا، وتمت مراجعتها واستعراضها بسرور بالغ وبهجة في الصحافة الأميركية الخاصة بالسكان الأصليين (الهنود الحمر) حيث تم وصف ذلك الكتاب في تلك الصحافة بـ

«الأصيل والمؤثر والرومانسي والمؤلم»!!!



والأهم لتاريخ تطور «كتب السيرة الذاتية» هو أنها خلقت سياقًا يبرر الشعبية الهائلة للسيدة «أوبرا وينفري» التي استعملت برنامجها منصةً ليبوح الناس بقصصهم، أو في حالة المؤلفين لـ «يبيعوا» كتبهم. ولذلك، ليس من قبيل الصدفة أن وينفري نفسها وقعت فريسة لأكثر من حالة مذكرات مزيفة. (...) ولكن جوع أوبرا وينفري - وبالتبعية جمهورها - الشديد لحكايات جيدة بأي ثمن يشير إلى أن مذكرات «الكوارث والخلاص»، مع سردها المحكم وتيمتها الواضحة المباشرة، قد تكون بدأت تشغل بالفعل فجوة خلقت بسبب تنحية الرواية كنوع أدبي تدريجيًا من مركزها الرئيس في الثقافة الأدبية!





جيمس فَرَايْ (James Frey): كاتب ومخرج وسيناريست ومنتج وروائي أميركي معاصر. ولد عام 1969 في مدينة لوس أنجلوس. نشر، عام 2003، سيرته الذاتية بعنوان «مليون شظية صغيرة» التي كان محورها إدمان المخدرات والكحول ثم الشفاء منهما. لقيت تلك السيرة رواجا كبيرا، خاصة بعد ظهور فَرَايْ في برنامج أوبرا وينفري ومصادقتها على اختيار كتابه في «نادي أوبرا للكتب». وهكذا، أصبحت هذه السيرة من أكثر الكتب مبيعًا، حيث تجاوزت مبيعاتها خمسة ملايين نسخة. ولكن في يناير 2006، نشر موقع «ذا سموكنغ غن» على النت (The Smoking Gun) تقريرًا استقصائيًا بعنوان «الرجل الذي خدع أوبرا: مليون كذبة صغيرة»، كشف كاتبه أن سيرة فَرَايْ مزورة وغير صادقة وتحتوي على مبالغات خيالية (Fictional) ضخمة لتصوير بطولة فَرَايْ؛ ولكن هذا الأخير نفى هذه التهمة تمامًا وصرح بأنه «استخدم بعض الخيال» الضروري لصياغة أحداث حقيقية. بعد نشر هذا التقرير، ساند الناشر «دبلداي» فَرَايْ في البداية؛ ولكنه قام بالتحقيق مع فَرَايْ بصورة سرية ثم نشر بيانًا جاء فيه: «عندما نُشر تقرير موقع «ذا سموكنغ غن»، كان رد فعلنا الأوليّ مساندة المؤلف فَرَايْ لعدم وجود أدلة لدينا. ومنذ ذلك الحين، وجهنا أسئلة إلى المؤلف، وأدركنا للأسف بأنه بالفعل هناك بعض الأحداث التي تم «تبديلها وفبركتها وتضخيمها». ولهذا، قررنا وضع تنويه واعتذار من المؤلف والناشر في تمهيد هذا الكتاب بهذا الخصوص في الطبعات المستقبلية».

(يتبع ص-203)

(تتمة قضية جيمس فَرَايْ وسيرته المزيفة)



وفي **11** يناير **2006**، ظهر فَرَايْ مع أمه (يمين) على برنامج «لاري كينغ لايف» الشهير (يسار)، ودافع عن كتابه قائلاً: «جميع المذكرات تغيّر بعض التفاصيل لضرورات السرد والصياغة الأدبية، وأصر على كون جوهر الكتاب صادقًا وحقيقيًّا». واتصلت أوبرا وينفري بالبرنامج لتدافع عن جوهر كتاب فَرَايْ، ولا سيما أنه ظهر في برنامجها الشهير وروّجت لكتابه. وأكدت وينفري أن الكتاب ألهم الكثير من المدمنين على وجود أمل للنجاة من الإدمان، ودافعت عن نفسها لكونها روّجت لكتاب مزيف، وألقت باللوم على الناشر الذي لم يتأكد من صدق المؤلف. ثم قابلت أوبرا بنفسها فَرَايْ من جديد (تحت) لتواجهه بالتهمة بشكل مباشر، وسألته عن رأيه في تقرير موقع «سموكنغ غن» المعنون «الرجل الذي خدع أوبرا». ورد فَرَايْ بصفاقة: «أعتقد أن معظم ما ورد في التقرير دقيق جدًّا»، وكان يقصد تحديدًا أنه قضى بضع ساعات فقط في السجن وليس **87** يومًا كما زعم في سيرته الذاتية!! وفي **2** نوفمبر **2007**، نشرت وكالة «أسوشياتيد برس» خبرًا عن صدور حكم قضائي لصالح القراء الذين ادعوا أن فَرَايْ والناشر خدعاهم. وقام الناشر بإعادة القيمة المالية للكتاب لكل قارئ طالب بتعويضه إذا كان اشتراه قبل الاعتراف العلني لفَرَايْ عن وجود خيال في الكتاب. وبلغ مجموع التعويضات **2,000,000** دولار (2 مليون) تقريبًا، ثم تبرع الناشر بمبلغ نصف مليون دولار للجمعيات الخيرية ومؤسسات مقاومة الإدمان. كما بادر الناشر بحماية نفسه في المستقبل، من خلال وضع تنويه واضح في التمهيد لتوضيح أن أحداث الكتاب تحتوي على وقائع «خيالية غير حقيقية».



نبذة عن المترجم والمحرر



د. حمد بن عبد العزيز الحمد العيسى

نبذة عن المترجم والمحرر

- د. حمد العيسى باحث ومترجم سعودي مستقل، مقيم في الدار البيضاء، المغرب.
- ولد في مدينة الدمام المطلة على الخليج العربي ويعود أصل عائلته إلى مدينة **«شقراء»** في نجد، شمال غرب الرياض.
- بكالوريوس هندسة مدنية، جامعة الملك فهد للبترول والمعادن، الظهران، السعودية.
- ماجستير ودكتوراه في «الترجمة العامة إنكليزي/عربي»، جامعة لندن (University of London).
- هاجر في أكتوبر 2007 من «الدمام» إلى «الخبر» بحثًا عن الهدوء والجمال والحداثة والإلهام!
- **تجاوز، بفضل الله، سقف 2 مليون (2,000,000) كلمة مترجمة من الإنكليزية إلى العربية.**
- مهندس تخطيط في «أرامكو» من عام 1984 حتى عام 2004، إذ تقاعد مبكرًا وتفرغ للكتابة والترجمة.
- **الإيميل**: **hamad.aleisa@gmail.com**
- صدرت له الكتب الآتية:

(1) (ترجمة) **وارث الريح**، مسرحية، جيروم لورنس وروبرت لي.

(2) (تأليف) **أسبوع رديء آخر**، قصص قصيرة.

(3) (ترجمة) **النصوص المحرمة**، نصوص متمردة، مالكوم إكس وآخرون.

(4) (ترجمة) **عقل غير هادئ**، سيرة ذاتية مترجمة للدكتورة كاي ردفيلد جاميسون.

(5) (ترجمة) **قضايا أدبية: نهاية الرواية وبداية السيرة الذاتية**، نصوص ومقالات أدبية مترجمة، دانيال مندليسون وآخرون.

(6) (ترجمة) **ضد النساء: نهاية الرجال وقضايا جندرية أخرى**، نصوص جندرية، حَنَّةْ روسين وآخرون.

(7) (ترجمة) **قصص لا ترويها هوليوود مطلقًا**، خطب وحوارات ومقالات للمؤرخ هوارد زن.

(8) (ترجمة) **حتى لا يعود جهيمان: حفريات أيديولوجية وملاحق وثائقية نادرة**، توماس هيغهامر وستيفان لاكروا، منتدى المعارف، بيروت، ط-1، ط-2، ط-3.

(9) (ترجمة) **السعودية والمشهد الاستراتيجي الجديد**، تحليل استراتيجي، جاشوا تيتلبام.

(10) (ترجمة) **زمن الفتنة: شيعة ضد سنة... وسنة ضد شيعة!**، مخطوط لم ينشر، لارس برغر وآخرون.

(11) (ترجمة) **قبل سقوط الشاه... بقليل**، دراسة تاريخية/سياسية/اقتصادية، أندرو سكوت كوبر.

(12) (ترجمة) **حزب الله الحجاز: بداية ونهاية تنظيم إرهابي**، دراسة تاريخية/سياسية، توبي ماثيسن.

(13) (ترجمة) **دور إيران في محاولة الانقلاب الفاشلة عام 1981 بالبحرين**، دراسة وثائقية تاريخية/سياسية، حسن طارق الحسن.

(14) (ترجمة) **التشيع في سوريا ليس خرافة**، بحث ميداني، البروفيسور خالد سنداوي.

(15) (ترجمة) **من قتل رفيق الحريري؟**، تحقيق استقصائي، نيل ماكدونالد.

(16) (ترجمة) **التهديد الإقليمي الإيراني من منظار سعودي**، بحث في السياسة والعلاقات الدولية، لارس برغر.

(17) (ترجمة) **وسيلة وليست غاية: لماذا تناصر إيران القضية الفلسطينية؟!**، دراسة تاريخية/سياسية، تريتا بارسي.

(18) (ترجمة) **من إرث أحمدي نجاد: تذمر الشعوب الإيرانية وانهيار الريال الإيراني**، دراستان، جون برادلي وكيت منبعجي.

(19) (ترجمة) **تمرد شيعة القطيف عام 1400 هـ**، دراسة وثائقية تاريخية/سياسية، توبي غريغ جونز.

(20) (ترجمة) **إيران والإخوان: علاقات ملتبسة**، دراسة تاريخية/سياسية، فريدريك (فِردْ) هاليداي.

(20 مكرر)، (ترجمة - إعادة إصدار): **حتى لا يعود جهيمان: حفريات أيديولوجية وملاحق وثائقية نادرة**، توماس هيغهامر وآخرون، مدارك للنشر، دبي، الطبعة الرابعة «الشاملة»: مزيدة ومنقحة بالكامل مع دراستين جديدتين هامتين وملحقين إضافيين نادرين.

(21) (ترجمة) **هل تراجع دور علماء الوهابية السياسي؟ عائلة آل الشيخ أنموذجًا**، بحوث ومقالات تاريخية/سياسية، ألكساندر بلاي وآخرون، مخطوط لم ينشر.

(22) (ترجمة) **انهيار «ترتيب فيصل» وتمرد الحركة الإسلاموية في السعودية**، بحوث ومقالات تاريخية/سياسية، ريتشارد هرير دكميجان وآخرون، مخطوط لم ينشر.

(23) (ترجمة) **نهاية عصر الجزيرة**، مقالات وتحقيقات استقصائية، رون ساسكايند وآخرون.

مشروع «مختارات د. حمد العيسى - دراسات نادرة»

(1) (ترجمة) **هكذا تأخون السلفيون: مصر والكويت أنموذجين**، بيورن أولاف أوتفيك، دراسة تاريخية/سياسية مع ملاحق وثائقية، عام 2016.

(2) (ترجمة) **ربيع الكويت: مقدمات الحكومة المنتخبة؟!**، كريستيان كوتس أوريكسن، دراسة تاريخية/سياسية مع ملاحق وثائقية، عام 2016.

(3) (ترجمة) **شجرة نسب السلفية الجهادية**، كوينتان فيكتورفيتش، دراسة أيديولوجية مع ملاحق وثائقية نادرة، عام 2016.

(4) (ترجمة) **اللعب بالنار: مشروع توريث جمال الذي أسقط مبارك وكاد أن يحرق مصر!!**، جيسون براونلي وآخرون، دراسات سياسية وملاحق وثائقية، عام 2017.

(5) (ترجمة) **الكويت: النظام البرلماني «الكامل»... هو الحل!**، مايكل هيرب وآخرون، دراسات سياسية وملاحق وثائقية، عام 2017.

(6) (ترجمة) **الصراع السياسي و«التحيز للحضر» في الصحافة الكويتية المعاصرة**، كتيل سلفيك وآخرون، دراسات وملاحق وثائقية، عام 2018.

(7) (ترجمة) **الأزهر والسياسة: 1952-2002**، مليكة الزغل وآخرون، دراسات فكرية وملاحق وثائقية نادرة جدًا، عام 2019.

(8) (ترجمة) **إشكالية الحضر والبدو في الكويت**، د. فرح النقيب وآخرون، دراسات ومقالات تاريخية وسياسية، عام 2020.

(9) (ترجمة) **سابقة عربية: مجلس الأمة الكويتي يعزل الأمير المريض عام 2006 ويحسم أزمة الحكم،** فرد لاوسن وآخرون، دراسات ومقالات سياسية مع ملاحق وثائقية نادرة، عام 2021.

(10) (ترجمة) **القنبلة: كبرى جرائم التاريخ!**، هَوارد زِنْ، دراسة تاريخية/سياسية، عام 2022.

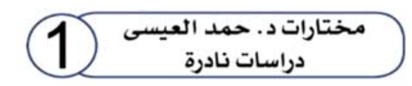
(11) (ترجمة) **تأثير سيد قطب في الثورة الإسلامية الإيرانية**، يوسف أونال وآخرون، دراسات فكرية، 2022.

(12) (ترجمة) **مذكرات حسن البنا بين الحقيقة... و«الخيال»!!** برينيار لِيَّا وآخرون، دراسات فكرية، عام 2023.

تحت الإعداد:

- (...) **تأثير...**

مختارات د. حمد العيسى
دراسات نادرة



البروفيسور بيورن أولاف أوتفيك

هكذا تأخون السلفيون: مصر والكويت أنموذجين!!

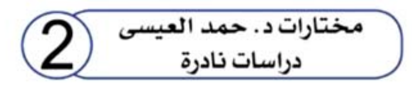




إعداد وترجمة وتعليق:

د. حمد العيسى





البروفيسور كريستيان كوتس أولريخسن

ربيع الكويت:
مقدمات الحكومة «المنتخبة»؟!



إعداد وترجمة وتعليق:

د. حمد العيسى



مختارات د. حمد العيسى
دراسات نادرة
3

بروفيسور كوينتان فيكتورفيتش

شجرة نسب «السلفية الجهادية»
(دراسة أيديولوجية مع ملاحق وثائقية)



إعداد وترجمة وتعليق: د. حمد العيسى





البروفيسور جيسون براونلي وآخرون

اللعب بالنار

مشروع توريث جمال الذي أسقط مبارك وكاد أن يحرق مصر!!

(دراسات سياسية وملاحق وثائقية)



إعداد وترجمة وتعليق

د. حمد العيسى

تقديم

د. علاء الأسواني



PROFESSOR MICHAEL HERB

سياسات
POLITICS

البروفيسور مايكل هيرب وآخرون

الكويت:

النظام البرلماني «الكامل»... هو الحل!!



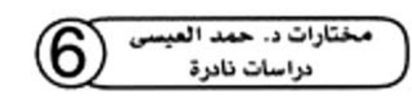
إعداد وترجمة وتعليق:

د. حمد العيسى

تقديم:

أحمد الديين





كتاب يهم كل صحفي عربي
وكل مرشح لمجلس الأمة الكويتي

د. كتيل سلفيك وآخرون

الصراع السياسي و«التحيز للحضر»

في الصحافة الكويتية المعاصرة



سحب جناسي.. وإغلاق 6 فروع جمعيات

سحب جنسية جبر والبرغش ومن كسبها بالتبعية.. والإعلان عن دفعة جديدة بعد العيد

إغلاق «اليوم» و«عالم اليوم»

لفقدانهما أحد شروط الترخيص

إعداد وترجمة وتعليق: د. حمد العيسى

تقديم: محمد عبد القادر الجاسم






مختارات د. حمد العيسى
دراسات نادرة
7
يحتوي على وثائق
سعودية نادرة جدا
البروفيسور مليكة الزغل وآخرون
الأزهر والسياسة: 1952 - 2002
إعداد وترجمة وتعليق: د. حمد العيسى
منتدى المعارف
alMaaref Forum



د. فرح النقيب وآخرون

إشكاليّة الحضر والبدو في الكويت

وأسباب استمرار الانقسام الحضريّ - البدويّ حتى الآن



تحرير وترجمة وتعليق: د. حمد العيسى









البروفيسور فِرِدْ لاوسن وآخرون

سابقة عربية: مجلس الأمة الكويتي

يعزل الأمير المريض عام 2006 ويحسم أزمة الحكم

تحرير وترجمة وتعليق: د. حمد العيسى



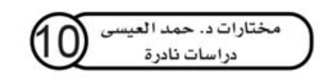
فشل اجتماع عاصف لآل الصباح لترتيب شؤون انتقال الحكم

صباح الاحمد يطلب عزل الشيخ سعد لعجزه
سالم العلي يرفض.. ويصر على تسهيل اداء القسم

القرار الصعب للرجل الكبير من أجل الكويت



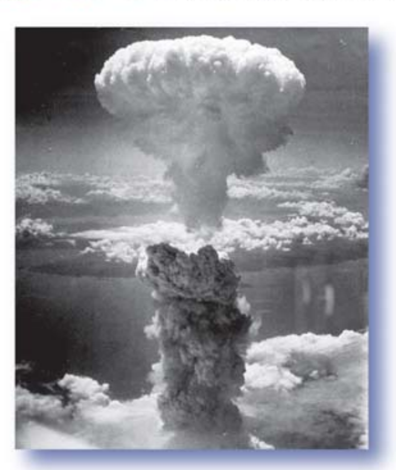
ترجمنا أكثر من 2 مليون كلمة



البروفيسور هوارد زِنْ

القنبلة: كبرى جرائم التاريخ!

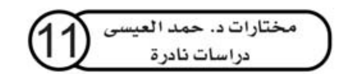
ترجمة وتحرير وتعليق: د. حمد العيسى







ترجمنا أكثر من 2 مليون كلمة



الدكتور يوسف أونال

(أول دراسة من نوعها في العالم)

تأثير سيد قطب في الثورة الإسلامية الإيرانية

ترجمة وتحرير وتعليق: د. حمد العيسى







